في جنوب الجزيرة العربية

مُزيَّن بالخرائط والصور والرسوم الفنية



تأليف

صلاح عبد القادر البكري

دار الوفاق

DAR AL WEFAQ

فِي جَنُوبِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية بعدن: (١١٥٣) لعام ٢٠١٩م

الطبعة الأولى
١٤٤١ هـ/ ٢٠١٩ م

دار الوفاق
DAR AL WEFAQ

دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر
هاتف وواتس آب: 00201008170225
بريدٌ إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com

في جنوب الجزيرة العربية

مُزيَّن بالخرائط والصور والرسوم الفنية

تأليف

صلاح عبد القادر البكري


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠ م

قصة هذا الكتاب
(في جنوب الجزيرة العربية)

بقلم: د. محمد أبوبكر حميد

لو لم يكن صلاح البكري مؤرخًا صادقًا لكان روائيًّا وفنانًا مبدعًا، ولو لم يكن لا هذا ولا ذاك لكان رحّالة جوّالًا يطوف العالم ويشغل الناس بعجائب أسفاره ونتاج مشاهداته، ولو لم يكن كل ذلك لكان مفكرًا تربويًّا يثري مدارس التربية ومنهاجها بأفكاره ومرئياته وسعة اطلاعه. ولكن صلاح البكري كان كل ذلك، كان عدة مواهب اجتمعت باقتدار في رجل واحد، ولهذا جاءت كل مؤلفاته ممتعة تجتذب القارئ منذ الوهلة الأولى للقراءة. والسبب أن صلاحًا البكريَّ لم يكتب كتابة تاريخية جافة، ومؤلفاته ليست مجرد جمع لمعلومات من مصادر متعددة وتنسيقها في كتاب، بل كان يسافر الى البلاد التي سيكتب عنها، ولا يتوقف عند المدن الكبيرة بل يدخل قراها وشعابها ووديانها ويتجول فيها، ويخالط أهلها ثم يعود ليكتب التاريخ بأمانة المؤرخ وحاسة الجغرافي وملاحظة الرحالة، وبجماليات أسلوب الأديب الذي تمتعك كلماته ويشدك وصفه ويسحرك بأسلوبه فتتابعه بشغف. هذه الخصائص جميعًا نجدها تجتمع في مؤلفات صلاح البكري جميعًا لأنها أسلوبه في الكتابة ومنهجه في التأليف، ولأنها أيضا قبس من جمال روحه وتكوين شخصيته الوديعة، وفكره المتقد المستنير.

وهذا الكتاب (في جنوب الجزيرة العربية) نموذج رائع لهذه الصفات، فهو ثمرة رحلة صلاح البكري الى وطنه حضرموت سنة ١٩٤٧م. الرحلة التي عاد فيها الى وطنه بعد غياب ثمانية عشر عامًا منذ غادره إلى مصر سنة ١٩٢٩م.

وفي طريقه الى حضرموت هبط في عدن لأول مرة، وتجول بالمناطق المجاورة لها. كان صلاح البكري في هذه الفترة قد استقر في مصر واستوطنها، وكان يعمل آنذاك مدرِّسًا للتاريخ بمدرسة محمد علي الثانوية في الجيزة، وكان قد اشترك مع صديقه علي أحمد باكثير في تأسيس (جمعية النهضة الحضرمية) سنة ١٩٤٤م عقب المجاعة التي عصفت بحضرموت بعد الحرب العالمية الثانية، وكان من أهداف هذه الزيارة معرفة الواقع السياسي والاجتماعي والتعليمي التربوي والاقتصادي في حضرموت بما يخدم أهداف الجمعية.

وقصة هذا الكتاب تبدأ بهذه الرحلة التي استمرت ثلاثة شهور واستغرق وصفها حوالي ربع الكتاب الذي يتجول بك بين الماضي والحاضر دون أن تشعر بالانتقال. يبدأ بوصف أدبي أخاذ يشعرك بأنك تقرأ بداية رواية ممتعة أو تشاهد فيلمًا مشوقًا مثل هذه البداية: "كان الهدوء شاملًا والجو معتدلًا والقاهرة غارقة في النوم، وكانت النجوم تطل من السماء فتُلقي علينا نورًا ضئيلًا ... الخ" ثم يمضي بهذه الانسيابية والجمال في وصف الرحلة وركوب الطائرة ونزوله في الخرطوم وأسمرة قبل وصوله إلى مطار عدن. لهذا جاء هذا الكتاب مزيجًا رائعًا من أدب الرحلات والتاريخ والجغرافيا والقص الروائي والاهتمام التربوي.

تبدو أهمية ذلك الكتاب في أن مؤلفه يقدم تفصيلات جغرافية وتاريخية غاية في الأهمية عن جنوب الجزيرة العربية، مبينًا ما يجهله الناس عن هذه المنطقة ومصححًا لهم المفاهيم الخاصة بها.

ولهذا يكون من أفضل الكتب التي عنيت بجغرافية هذه المناطق وتاريخها، إذ تناول فيه صلاح البكري أدق التفاصيل عن جغرافية جنوب الجزيرة العربية

خاصة منطقتي حضرموت وعدن، وما فيها من آثار ومعالم، إلى جانب ذكر القبائل والعائلات التي عاشت في هذا المكان أو ما زالت تحيا به. كما اهتم المؤلف بكل ما مرت به منطقة جنوب الجزيرة العربية من أحداث.. وإلى جانب ذلك كله قام بنقد كل الخرافات التي جاءت مكتوبة أو مروية حول تلك المنطقة وما فيها، وقدَّم ذلك كله في صورة إبداعية سَلِسة.. غاية في الجمال.

كما ظهر صلاح البكري في آخر فصول هذا الكتاب بآرائه الرائدة والمبكرة بالحديث عن الكيان المستقل لسلطنات الجنوب العربي، ودافع استقلالها مؤكدًا عدم خضوعها للإنجليز، كما قدم الأدلة التاريخية على عدم تبعيتها للمملكة المتوكلية اليمنية التي كانت تطالب بها. ثم أبدى رأيًا في مسألة وحدة إمارات الجنوب العربي ومسألة الوحدة مع اليمن مدعمًا بالأدلة التاريخية وبرأيه الشخصي بصفته مؤرخًا ومواطنًا من الجنوب العربي. وصلاح البكري بهذا يُعدُّ أقدم من تحدث في هذين الموضوعين وأول من طرقهما بصدق وإخلاص قبل أن ترتفع الأصوات السياسية بعد ذلك بسنوات بالمزايدة لمصالح حزبية. كتب صلاح البكري رأيه بلغة المفكر البصير، والسياسي الحذق، والمحلل البارع والمؤرخ المخلص الذي يقف عند كل كلمة أو حدث فيستوفيه حقه كاملًا غير منقوص.. رحمه الله.



عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي اليافعي



صاحب السمو عوض بن صالح القعيطي اليافعي ولي عهد الحكومة القعيطية



عظمة السلطان جعفر بن منصور الكثيري السلطان الحالي للحكومة الكثيرية



المؤلف

[صلاح بن عبد القادر البكري اليافعي (ت ١٤١٣هـ)]

الإهداء

إلى قائد النهضة الحضرمية وراعيها

حضرة مولانا عظمة السلطان

صالح بن غالب القعيطي اليافعي

سلطان حضرموت أطال الله عمره وأيد ملكه[1].

(١) توفي السلطان صالح بن غالب بن عوض القعيطي - رحمه الله - سنة ١٩٥٦م. (الناشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يكاد يكون الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية مجهولًا للعالم العربي والإسلامي.

والصورة العامة عند بعضهم أن حضرموت وعدن وما جاورهما من المحميات التسع بلاد صحراوية جافة، وأهلها متأخرون يسكنون في الخيام، ويشتغلون بالرعي والانتقال وراء الإبل والأغنام سعيًا إلى مواطن الكلأ والمرعى، ولا شك أن هؤلاء لا يعلمون أن في حضرموت منازل طاعنات في السماء سمَّتها مس فريا ستارك: «ناطحات السحاب»، وقال عنها المستر بودلي في كتابه (The Messenger): «إن هندسة هذه المدن الآن ومن قرون قبل الآن أكثر شبهًا بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية».

ولم يكن السبب في ذلك عدم وجود كتب تتناول ذلك الجزء من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، فهناك سياح من الألمان والإنجليز والهولنديين ذهبوا إلى حضرموت وكتبوا عنها الكتب الضخمة، وأعيد طبع مؤلفاتهم مرارًا.

ولكن لسوء الحظ معظمنا نحن الشرقيين لا نهتم كثيرًا ولا قليلًا بدراسة الشعوب، ولا نتطلع إلى الوقوف على نظمها وأوضاع حياتها، حتى تلك الشعوب التي تستوطن على مقربة منا وترتبط بنا في الدم واللغة والدين.

لقد كانت حضرموت موطن حياة زراعية مستقرة منذ أقدم العصور؛ لأن تربتها من النوع الذي يحتفظ بالرطوبة ويختزنها بين ذراته من فصل إلى

فصل، كانت جنة الله في أرضه كما كانت موطنًا للحضارات المعينية والسبئية والحميرية، وقد استمرت خلال ما يقرب من ألف وخمسمائة عام قبل ظهور الإسلام، وما تزال الآثار الباقية من الخزانات والسدود تدل على ذلك.

وعرب الجنوب -وعلى الأخص الحضارم- من أنشط الشعوب وأكثرها ولوعًا بالمغامرات والأسفار، نزحوا إلى أقاصي الدنيا منذ عهود واغلة في القدم، وكوَّنوا لهم مراكز اقتصادية وأدبية، بل وأقاموا دولًا دامت قرونًا متتالية. ففي القرن الثالث الميلادي هاجرت قبيلتا (قضاعة) و(تنوخ) وهي فرع من (أزد) إلى جنوب نجد، ثم إلى ساحل الأحساء فحدود العراق الغربية، حيث استقرت تنوخ وكوَّنت دولة اللخميين، وأهم مدنها الحيرة. وانتقلت قضاعة إلى شرق الشام وكوَّنت دولة الغساسنة، ومن أهم مدنها بصترة ودمشق.

وفي أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه هاجر كثير منهم إلى مصر[(١)]، وأول من تولى القضاء منهم بمصر يونس بن عطية الحضرمي في أيام عبد العزيز بن مروان سنة ٨٤هـ، وآخرهم لهيعة بن عيسى الحضرمي سنة ١٩٦هـ من قِبل عباد بن محمد، وعباد يومئذ يدعو للمأمون بمصر.

وعن محمد بن يوسف قال: حدثني يحيى بن أبي معاوية قال: حدثني خلف بن ربيعة عن أبيه قال: ولي قضاء مصر تسعة رجال من حضرموت آخرهم لهيعة بن عيسى، وولي برقة جمع من حضرموت على قضائها. قال يحيى: آخرهم خير بن سعيد بن خير. وولي على الأندلس معاوية بن صالح الحضرمي، وعلى فلسطين ضمضم بن عقبة، وعبد السلام بن عبد الله، والنعمان بن المنذر، وعلى حمص كثير بن مرة، وجبير بن نفير، وعلى دمشق يحيى بن حمزة.

(١) راجع الجزء الثاني من كتاب (تاريخ حضرموت السياسي)، ص٢٢٠.

قال الشاعر:

لقد ولي القضاء بكل أرضٍ ... من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال ... من الصيد الجحاجحة الضخام

وقال يزيد بن مقسم الصَّدفي:

يا حضرموت هنيئًا ما خصصت به ... من الحكومة بين العجم والعرب
في الجاهلية والإسلام يعرفه ... أهل الرواية والتفتيش والطلب

وفي الشرق الأقصى في إندونيسيا جنة الشرق استقر المهاجرون الحضارم وسيطروا على التجارة في البر والبحر، وحكموا بعض الجزر، وقضوا على البوذية، ونشروا الإسلام.

هذا الشعب الذكي النشيط والمكافح المغامر، يجب أن نعرف الشيء الكثير عن حياته في الماضي والحاضر.

لقد أتاحت لنا الظروف السفر إلى حضرموت في صيف سنة ١٩٤٧م فقضينا هناك حوالي ثلاثة شهور اتصلت في خلالها بكل الهيئات والأحزاب على اختلاف مشاربها ومبادئها، وشاهدت بنفسي مظاهر الحركة والنشاط، وبوادر التطورات العلمية والاجتماعية والسياسية.

ها أنذا أتقدم إلى القراء بما شاهدته بنفسي في جنوب الجزيرة العربية وما لمسته من التطورات في جميع نواحي الحياة. وقد تناولت بشيء كثير من الاختصار تاريخ حضرموت قديمًا وحديثًا لنعطي من يهمه تاريخها فكرة واضحة عنها.

والله أدعو أن ينفع به. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

القاهرة في إبريل سنة ١٩٤٩م ... **صلاح عبد القادر البكري اليافعي**

من القاهرة إلى عدن

كان الهدوء شاملًا والجو معتدلًا والقاهرة غارقة في النوم، وكانت النجوم تطل من السماء فتلقي علينا نورًا ضئيلًا، وتسللت بنا السيارة إلى مطار ألماظة في تهاد وبطء كأنها تشفق أن يزعج صوت عجلاتها الضخمة الراقدين، جلسنا جميعًا صامتين وثَقُل هذا الصمت على صديقنا السيد حسن أحمد باكثير الذي انبرى للحديث عسى أن يحطمه، ولعله أراد أن يدخل إلى نفسي السرور ظنًا منه أني أخشى السفر بطريق الجو، وكنت غارقًا في لجة عميقة من التفكير فانخفض صوته تدريجيًا، وماتت الكلمات على شفتيه وأطبق السكون مرة أخرى.

لم أكن نائمًا ولا حالمًا ولا هائمًا حين كان السيد باكثير يحدثني، وإنما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة، حاضر الذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن، ولست أخشى الطائرة ولا أخاف السفر في جو السماء، وكل ما في الأمر أني كنت في ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف: أحدهما يظهر الفرح والمرح، والآخر يظهر الكآبة والحزن، وبعبارة أخرى كنت نهبًا بين شعورين متعارضين: الألم من فراقي لمصر التي نشأت فيها وتعلمت في معاهدها واشتغلت بالتدريس في مدارسها، والفرح بالسفر إلى حضرموت وطن الآباء والجدود.

انتحينا جانبًا في مقصف المطار ننتظر ساعة الرحيل، فلما انبلج نور الصباح حلقت بنا الطائرة وراحت تشق طريقها في جو السماء، وأخذت مباني القاهرة تختفي شيئًا فشيئًا، وظهر النيل ينساب مسرعًا نحو الشمال، وعلى جانبيه المروج الخضراء وغابات النخيل السامقة تمد أعناقها نحو النهر الهادئ العظيم، كأنها تقدم له عرفانها للحياة التي يهبها للكائنات على ضفتيه.

ولم يكن بالطائرة غيري سوى اثنين من سويسرا، ولم يكن بيننا تعارف قديم لنتبادل التحيات والحديث، فأطرقت الرؤوس، وأطبقت الشفاه، وغرقت العيون في لجة عميقة من التفكير، ولكن لم يطل هذا الصمت فقد جاءنا مهندس الطائرة وبدأنا بالحديث، فدبَّت الحياة بالطائرة، ورفرفت أجنحة الألفة في جوها، فلم نعد غرباء لا نتبادل تحية وحديثًا، بل أحسسنا أننا أسرة واحدة تضمنا سفينة الهواء، والتفت كلٌّ إلى صاحبه يُعنى بأمره ويقص عليه نوادر حياته ومخاطراتها.

بعد ساعة هبطنا في مطار الأقصر وتناولنا فطورنا، ثم قامت بنا الطائرة إلى وادي حلفا، وهناك في المطار شرب كلٌّ منا قدحًا من شراب البرتقال. كان الحر شديدًا وكانت المناظر كلها صحاري قاحلة وتلالًا ماحلة، ولكن صعود الطائرة إلى أكثر من تسعة آلاف قدم لطف درجة الحرارة كثيرًا. وفي الساعة الواحدة ظهرت مدينة الخرطوم عاصمة السودان، وحامت الطائرة حولها قبيل هبوطها في المطار، ولم تكن على ارتفاع كثير، لذلك استطعنا أن نشاهد شوارع المدينة ومبانيها وأكواخها، وليس هناك ما يجذب الأنظار سوى مباني موظفي الشركة، وعندما هبطنا المطار استقبلتنا وجوه سودانية تضيء بالذكاء والنشاط واليقظة، كانت الرحلة ممتعة ومريحة دون شك.

أسمرة

بعد حوالي ساعتين استأنفنا السفر، وبعد لحظة اختفت أراضي الخرطوم الخصبة وظهرت قفار غبراء قاتمة، وكانت طائرتنا تخترق السحب الكثيفة مرة وتعلوها مرة أخرى، دخلنا حدود أريتريا وبدت جبالها المكسوة بالأعشاب تناطح السحب، وسرعان ما هبطت درجة الحرارة، يا لها من مناظر جميلة! هضاب خضراء تتخللها مجموعات من المنازل البيضاء كأنها ركامات الجليد.

هبطنا مطار أسمرة؛ ويقع في إحدى ضواحي المدينة، الجو بارد والنسيم عليل، وكل شيء من حولنا جميل، يا له من فرق عظيم. ففي الخرطوم ومنذ ثلاث ساعات شعرنا بحرارة شديدة وكان العرق يتصبب من جباهنا مدرارًا. أما هنا في أسمرة عاصمة أريتريا، فقد شعرنا ببرودة الجو وهبوب النسيم العليل، لقد ذكرتني أسمرة بجوها البارد وحدائقها الغناء ومروجها الخضراء بسوكابومي وقاروت في جاوة الغربية.

بعد أن وضعنا حقائبنا في فندق البرقو الإيطالي الجميل خرجت ورفيقي الإنجليزي، وهو مهندس زراعي بالسودان، خرجنا لنشاهد المدينة؛ الشوارع واسعة نظيفة والمتاجر كثيرة، ولكن معظمها يكاد يكون خاليًا من البضائع لا سيما المنسوجات وأدوات الزينة، ومما هو جدير بالذكر أن الإيطاليين وهم الأغلبية الساحقة يبدو على وجوههم البؤس والحزن، ولعل ذلك يرجع إلى تأثير هزيمة إيطاليا في الحرب، ويلاحظ أن نسبة الجمال في الإيطاليات هنا أكثر مما هو في مصر، ولكن تكسو هذا الجمال الرائع مسحة من البؤس وغمامة من الحزن، ولعل هذا يرجع إلى رغباتها المكبوتة في قرارة نفسها، فهي تريد أن تتحدث عن جمالها وتبدي رشاقتها وخفة دمها، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا باقتناء الملابس الفاخرة وأدوات الزينة، وليس في استطاعتها ذلك.

والمتسولون كثيرون ومعظمهم دون العاشرة من عمرهم، جاثمون على أرصفة الشوارع في حالة يُرثى لها، فدلائل البؤس الحقيقي في وجوههم الذابلة، وأجسادهم الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والعري والجوع.

وكنا في سيرنا متمهلين مترفقين نسعى قليلًا لنقف كثيرًا، ونحن نمد أبصارنا إلى هذه الناحية أو تلك لنرى هذا المَشْهَد أو ذاك من مشاهد الفن والجمال،

نمد أبصارنا في هذه الناحية لنرى (الفيلات) الجميلة النظيفة، ونمد أبصارنا في تلك الناحية لنرى قطرات الندى تتساقط من أوراق الشجر فتتلقاها زهور جميلة تحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم، وعذوبة الندى وهدوء الليل، وربما انحنى أحدنا فجأة إلى الأرض لا يحاول ركوعًا ولا سجودًا، وإنما دعته هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذي ينبت في أعقاب الغيث.

ولحسن الحظ أن لرفيقي الإنجليزي سابق عهد بهذا البلد، جاءه مرارًا ودرس في خلالها أخلاق السكان، وعرف الشوارع والمتنزهات، وليس هذا فقط؛ فهو يعرف اللغة الإيطالية ولولاه لما استطعت أن أتفاهم مع هؤلاء القوم الذين لا يعرفون الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية، وقد بلغنا قهوة من قهوات أسمرة الجميلة فتلقانا خادمها باسم الثغر، مشرق الوجه، يعرض علينا ما عنده في إيطالية، وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على قليل من طعام حتى ننظر، فإذا المعوزون والمعدمون يتساقطون علينا من كل وجه كلهم جائع يريد أن يطعم، وكلهم محروم يريد أن يُعطى، وكلهم قد ظهر في وجهه البؤس وألح عليه الضرر.

العرب

وهؤلاء من أنشط الجاليات الأجنبية في أريتريا وأكثرها خبرة بشؤون التجارة، ويملك بعضهم أفخم المباني في أسمرة، لقد جاء هؤلاء العرب من حضرموت ولم يكن لديهم شيء، ولكنهم بذكائهم وعبقريتهم ونشاطهم استطاعوا أن يشقوا طريقًا لهم في الحياة ويخلقوا لهم مركزًا اقتصاديًا ممتازًا يشار إليه بالبنان.

وفي أكتوبر سنة ١٩٤٧م عند عودتي من حضرموت إلى مصر مررت بأسمرة، واستطعت أن أتصل ببعض الشخصيات البارزة من إخواننا الحضارم، فاحتفوا بي أيما احتفاء، وأظهروا نحوي من العواطف النبيلة والإحساس الرقيق ما أعجز عن وصفه، وقد ألحوا في بقائي أيامًا بأسمرة، ولكن لسوء الحظ لم يكن لديّ متسع من الوقت فلم أقم بينهم سوى ليلة واحدة، ولقد أعجبني ما شاهدته فيهم من التكاتف والتعاضد، ولهم ناد فخم يجتمعون فيه للنظر في مصالحهم العامة، ولترقية حالتهم الأدبية والاجتماعية، وقد زرت هذا النادي فأعجبت به، وعلمت أن لهم مدرستين ابتدائيتين ومعهدًا دينيًا، ولكن الحاجة إلى المدرسين شديدة.

عدن

وفي الساعة الثامنة صباحًا ركبنا الطائرة ودارت محركاتها، ودرجت فوق أرض المطار ثم ارتفعت حتى ارتقت السحب رويدًا رويدًا، ولم ير الركب سوى جبال من السحاب تتراءى عن اليمين وعن الشمال، ولم نسمع سوى زئير الطائرة يهزم الفضاء، يدوي فيصم الآذان.

بعد ساعة أخذت الحياة النباتية تختفي حتى وصلنا إلى منطقة جافة، وبعد أن اجتزنا البحر الأحمر ظهرت لنا جبال غبراء وسوداء، وفي الساعة ١١ صباحًا وصلنا مطار عدن، وهو مطار متواضع جدًّا لا يتناسب مع موقع عدن الجغرافي، الحر شديد جدًّا؛ فرياح السموم تهب علينا، وإشعاع القفار الماحلة يلفح الوجوه، يا له من فرق شاسع! ففي مطار أسمرة ومنذ ثلاث ساعات كنا نرتعش من البرد، أما هنا فالحر يزهق النفوس.

وتكاد تنقسم عدن إلى أربعة أقسام:

(١) **عدن القديمة**: وتحيط بها جبال شاهقة تتخللها كهوف يسكنها جماعة من قاطعي الأحجار والصيادين الذين يجلبون السمك إلى سوق عدن، وأرضها منخفضة، والضغط الجوي ثقيل، والحر في الصيف شديد. وعندما ينزل المطر تتحول الشوارع إلى نهيرات ومستنقعات، وكل الشوارع ضيقة، ومعظم السكان هنا عرب؛ من اليمن وحضرموت ولحج والعوالق وبضعة آلاف من الصومال واليهود والهنود.

والمتاجر على أوضاعها القديمة، وتشبه إلى حد كبير المتاجر في شارع الغورية بالقاهرة.

(٢) **الشيخ عثمان**: وهو مجموعة من منازل ومتاجر صغيرة.

(٣) **المعلّا**: ويتكون من منازل ومتاجر صغيرة ومخازن، ويقع على البحر.

(٤) **التَّوَّاهي**: وبه الميناء، ويعتبر أنظف منطقة في عدن، وهواؤه معتدل ويسكنه بعض الأوربيين.

وجميع أقسام عدن تنار بالكهرباء، والمباني ليست عالية ولا تحمل شيئًا من الزخرفة، ولا تبعث على شيء من الإعجاب؛ فهي تشبه الثكنات العسكرية، وأسواق عدن تموج بالتجار من مختلف الأجناس.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ملامح معظم العدنيين خليط من ملامح العرب وسكان شرق أفريقيا، ولهجتهم تختلف كثيرًا عن لهجة العرب في حضرموت، ففيها كلمات عامية لا تحصى، وهي لا تختلف كثيرًا عن لهجة سكان لحج ويافع واليمن.

وتزدحم المقاهي في المساء بروّادها، وكلها قذرة ما عدا بعض مقاهي التَّوَّاهي. وفي عدن دور للسينما كثيرة بالنسبة للسكان الذين لا يزيد عددهم

عن ٥٥ ألف نسمة، ومعظم الأفلام التي تعرض مصرية وهندية، وروّادها كثيرون جدًّا، وقد يشاهد بعضهم الفيلم الواحد لا سيما الفيلم المصري أكثر من ستين مرة، ولذا فقد يمتد عرض الفيلم المصري أكثر من خمسة شهور متتالية، وقد قلد بعضهم عبد الوهاب وأم كلثوم في أغانيهما.

والمتسولون كثيرون وبعضهم مصابون بأمراض جلدية، والعجيب أن الكثرة الساحقة منهم لا تثير رؤيتهم رحمة أو شفقة، فعلى وجوههم سيماء الرذائل التي ينطوون عليها، وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التي تمكنهم من العمل الشريف، واكتساب الرزق من غير التسول والاستجداء.

والماعز والقطط والكلاب تجول طول يومها بمنتهى الحرية في التلال والوهاد، وفي الشوارع والحارات، والماعز عادة تأكل من الفضلات التي تجدها في الشوارع، وتقنع بقليل من قطع قشور الفواكه والقاذورات، وتطعم الجمال بعد الظهر إذ تجلس على شكل نصف دائرة، بينما يجلس الجمَّال في مواجهتها على مكان مرتفع كالمرضعة تقص حكاياتها على الأطفال.

ومن المباني الأثرية في عدن (الصهاريج) والشيء العجيب ضخامة أحواضها واتساعها، فهي تحوي من الماء أكثر من ثلاثين مليون جالون، وقد أنشئت بواسطة إدارة حربية فنية، وتاريخ إنشائها مجهول وربما بناها الحميريون.

ويقوم مسجد عيدروس (ولي عدن وحاميها) كما يزعم العامة في ركن بعيد عن المدينة الحديثة، وهو يعد تحفة فنية في الداخل، وعلى مقربة منه مقابر مؤسس المسجد وعائلته.

وهناك أسطورة يتداولها الجهلة؛ وهي أن مؤسس هذا المسجد من الصالحين كان في حاجة إلى الأخشاب لعمل الأبواب فوصلتهم هذه الأبواب عائمة من الهند إلى شواطئ عدن.

الحياة الأدبية

ولا تزال الحياة الأدبية هناك في مراحلها الأولى، ولكنها تخطو إلى الأمام بفضل شبابها الذي يبذل مجهوداته لتنمية ثقافتهم بوسائل شتى، والعدنيون يستوردون الصحف المصرية والمطبوعات العربية، وهناك نواد وجمعيات إصلاحية وثقافية، ولكن نشاطها لسوء الحظ ضئيل جدًّا.

وفي سنة ١٨٧٠م كانت في عدن مطبعتان إحداهما في السجن لطبع النشرات واللوائح الحكومية، والأخرى خارج السجن، ومن المرجح أنها كانت تطبع كتبًا عربية، وفي سنة ١٩١٤م ظهرت مطبعة ثالثة، وربما كانت هناك مطابع أخرى، وتصدر في عدن منذ سنة ١٩٣٩م صحيفة عربية أسبوعية.

وهناك مدرسة ابتدائية في المعلَّا، وأخرى ثانوية في الشيخ عثمان، ومدرسة ثانوية للمبشرين في التَّوَّاهي وأخرى في عدن، والمدرسة الخيرية في عدن، وهناك مدارس أخرى كالمعهد التجاري، والمدرسة الإسلامية الهندية، ومدرسة الحجراتي، وبعض المدرسين من مصر والهند. ولعدن بعثات علمية في مصر والعراق. ومنذ خمس وثلاثين سنة اقترح الكابتن دارنفولد فكرة إنشاء كلية لأبناء سلاطين المحميات التسع ورؤساء القبائل وقد لقيت فكرته قبولًا، ومن وقت إلى آخر كانت الفكرة تخبو إلى أن جاء السير برناردريللي حيث أخذت شكلًا حقيقيًا، وابتدأ في إنشاء الكلية، واستعان السير برناردريللي بالمستر إنجرامس الذي كان مستشارًا للحكومة القعيطية بحضرموت، واختار إنجرامس الثكنات الواقعة خارج عدن لتكون مقرًا للكلية، وكانت فيما مضى مقرًا لفيلق من الضباط الهنود، واستعمل للمنفى، وكان زعيم مصر سعد زغلول باشا منفيًا فيها.

والغرض من هذه الكلية أو المدرسة هو تربية أبناء الأمراء ورؤساء القبائل وتنمية عقولهم وأجسامهم، وفي إبريل سنة ١٩٣٦م فتحت الكلية.

احتلال الإنجليز لعدن

ومنذ عهود واغلة في القدم كانت عدن من أعظم الأسواق التجارية في جنوب شبه الجزيرة العربية، وقد خضعت لدول كثيرة. ولما تراكمت مشاكل العثمانيين وضعف مركزهم وانكمش سلطانهم صار أمر عدن وأبين ولحج إلى يافع (١٠٤٠ - ١٠٥٣هـ)، وجاء صفي الإسلام أحمد بن الحسن اليمني بجيش سنة ١٠٥٣هـ، وهزم الأمير حسين بن عبد القادر اليافعي واحتل عدن، ثم آل أمر عدن إلى العبادلة سنة ١١٤٥هـ.

وعندما احتلت الحملة الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨م بدأ اهتمام الإنجليز بجنوب الجزيرة العربية، واحتلوا جزيرة (بريد) سنة ١٧٩٩م، ليقفلوا البحر الأحمر في وجه الفرنسيين، ثم أخلوها لرداءة جوها وقلة مائها، وولت السياسة البريطانية وجهها شطر عدن.

واستطاع السير هوم بوبيهام في سنة ١٨٠٢م أن يعقد اتفاقًا تجاريًا مع سلطانها، ولم يجد الإنجليز مكانًا أصلح لتموين بواخرهم من عدن، فاتفقوا في عام ١٨٢٩ مع سلطان لحج على استعمال عدن محطة للفحم، واستغل الإنجليز حادثة السفينة (داريا دولت) أبرع استغلال، فقد جنحت هذه السفينة في يناير سنة ١٨٣٧م على مقربة من ميناء عدن، وكانت ملك السيدة بيجم بنت أخت النواب الكارناتيك وكان العلم الإنجليزي يرفرف عليها، وبها شحنة كبيرة تقدر قيمتها بعشرين ألف جنيه، فجاء إليها جمع من الأعراب وسطوا على البضائع ونهبوا ركابها، وادعى الإنجليز أنه كان على رأس المهاجمين أكبر أبناء سلطان لحج، وعلى إثر ذلك قدم السير روبرت جرانت حاكم بمباي

تقريرًا هامًا؛ ومما جاء في هذا التقرير: «إن تأسيس خطوطنا البحرية في البحر الأحمر، وتكوين أسطول صغير من البواخر المسلحة تجعل من الضروري إيجاد محطة تابعة لنا على ساحل بلاد العرب، كما هي الحال في الخليج الفارسي، ثم إن الإهانة التي ألحقها سلطان عدن بنا تجعلني لا أشك لحظة في شدة حاجتنا إلى امتلاك عدن».

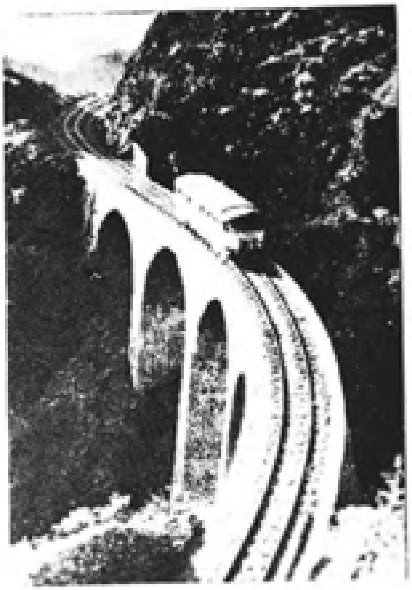
وفي ٢ فبراير سنة ١٨٣٨م تم الاتفاق بواسطة الكابتن «هينز» على أن يتخلى السلطان عن عدن للإنجليز في مقابل مبلغ كبير من المال، ولكن حدث ما لم يكن في حسبان الكابتن «هينز» إذ عارض ابن السلطان في الاتفاقية التي عقدها أبوه. وفي الوقت الذي استعد فيه الكابتن «هينز» للنزول بجنوده علم أن مؤامرة دبرت له حتى يستعيد السلطان الاتفاق الذي مهره بخاتمه، وأن السلطان نفسه وقع تحت تأثير ابنه وأقاربه وأنه قرر المقاومة بكل ما لديه من قوة، فأبحر «هينز» إلى بومباي.

وعندما عاد «هينز» في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٣٨م تحرش العرب بالسفن الإنجليزية فتراجع «هينز» إلى جزيرة صغيرة ينتظر الإمدادات حتى وصلت إليه في ١٦ يناير سنة ١٨٣٩م، وفي خلال يومين احتل «هينز» عدن.

ولا شك أن احتلال الإنجليز لعدن ضربة موجهة إلى محمد علي باشا لإرغامه على الانسحاب من اليمن، وفي الوقت الذي كان إبراهيم يكن باشا قائد الحملة المصرية في اليمن يعمل على توطيد الحكم المصري، كان الكابتن «هينز» يتصل بمشايخ القبائل المجاورة لعدن، والتي خضعت للحكم المصري متوددًا إليهم بالهدايا والمرتبات، وشرع يحرضهم على عدم دفع الزكاة المفروضة عليهم لحكومة اليمن المصرية، ولقد نجح إلى حد كبير.



أحد شوارع أسمرة



في أسمرة



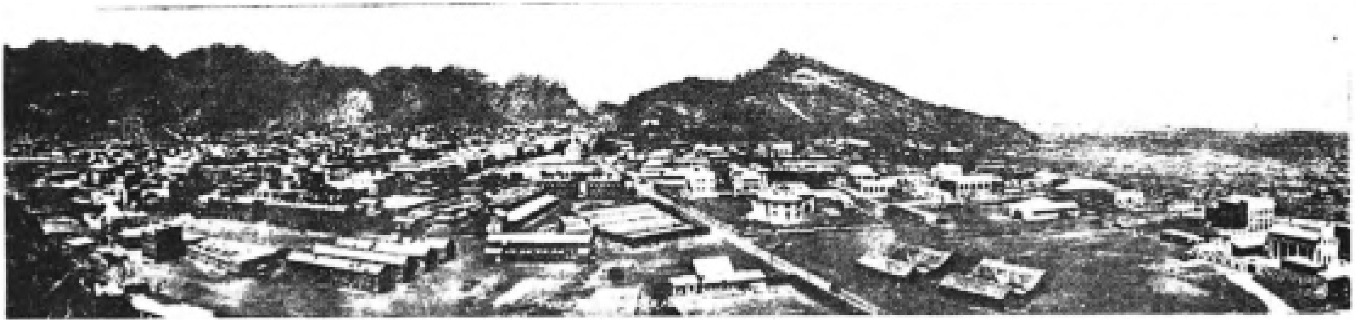
منظر عام لمدينة أسمرة



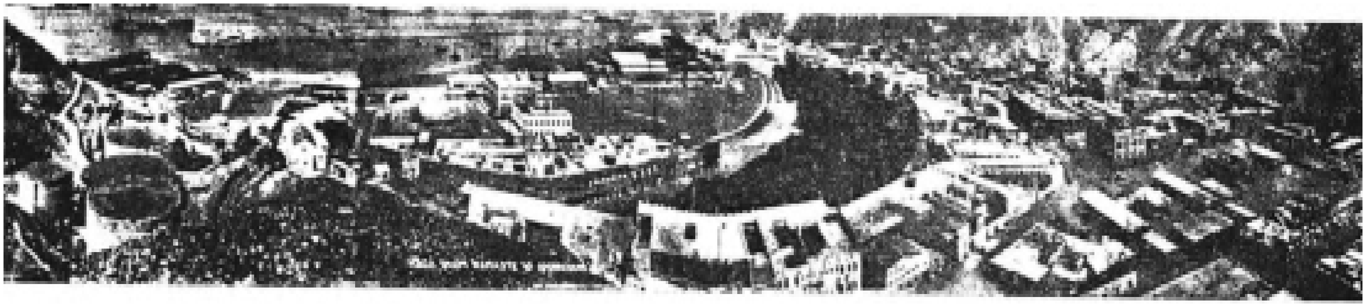
أحد جوامع أسمرة



أحد شوارع أسمرة



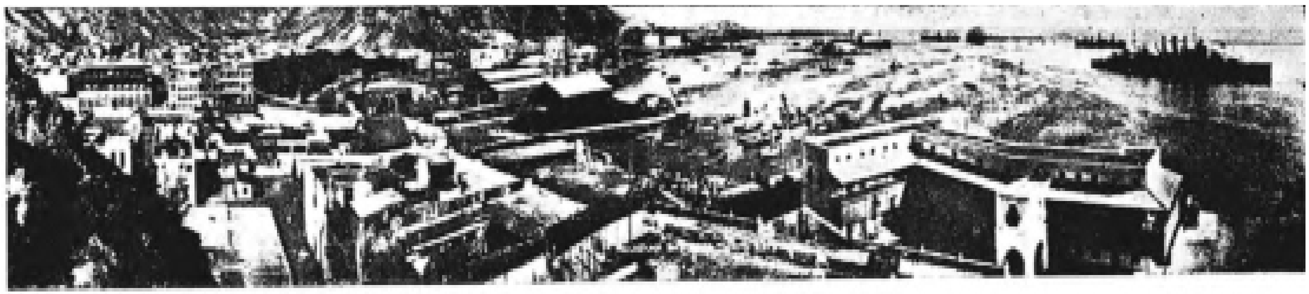
عدن



(التواهي) عدن



الشيخ عثمان (عدن)



ميناء عدن

وخاف محمد علي باشا أن يقوى نفوذ الإنجليز ويمتد سلطانهم، فكتب إلى إبراهيم يكن يستفسر عن صلة الإنجليز بالعرب، ويطلب إليه عدم السماح بإرسال أحد من الصناع وأرباب الحرف من مخا إلى عدن، وقبيل أن يتسلم إبراهيم يكن باشا الأمر السامي بعث إلى محمد علي برسالة يقول فيها: «إن القائد هينز الذي احتل عدن مقيم بجوار الأماكن التي ألحقت حديثًا بالحكومة المصرية، وقد أخذ يقوي مشايخ بعض المراكز والقرى، ويتودد إليهم ويجتذب قلوب الذين يتبعونه بالكسوة والمرتب، وإن سلوكه هذا يؤدي إلى حدوث خلل في المصالح المصرية في اليمن».

ونشط إمام صنعاء الناصر لدين الله في العمل لتقوية العلاقات بينه وبين محمد علي باشا، فقد أوفد رسولًا من قِبله هو السيد عبد الرب إلى أحمد يكن باشا حاكم الحجاز ليسهل له السفر إلى مصر للتفاهم مع محمد علي.

وما كانت تلك الحركات لتخفى على السياسة الإنجليزية التي بثت عيونها في اليمن خوفًا من انضمام اليمن كله إلى الإمبراطورية العربية الكبيرة التي كوَّنها محمد علي، ولا سيما أن بعض البلاد العربية بدأت تتجه إلى مصر.

فكانت ترد إلى محمد علي تقارير من حضرموت وغيرها يطالب أصحابها بالانضمام إلى الحكومة المصرية التي بدأ ينشئها إبراهيم يكن باشا في اليمن. وكان أهم هذه الرسائل رسالة حضرموت المحفوظة بدار المحفوظات الملكية بعابدين يطالبون فيها بإرسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت وإعادة الأمن إليها، وكان على رأس موقعي هذه العريضة علي بن عمر بن سقاف، وسالم بن حماد باعبيد، ومحسن بن علوي.

ووردت التقارير على وزارة الخارجية البريطانية من قناصلها في الشرق بأن محمد علي سيرسل جيوشه لاحتلال مدخل البحر الأحمر عند باب المندب

وسواحل حضرموت، فكتب بلمرستون إلى القنصل الإنجليزية في مصر «الكولونيل كامبل» ليقابل محمد علي باشا ويخبره بأن مثل هذه الخطوة لا ينظر إليها بعين الرضا في إنجلترا أو في الهند، وأكد محمد علي لكامبل أنه لا يفكر في التوسع خارج البحر الأحمر، ولا يبغي امتداد أملاكه شرق صنعاء. وعندما تعقدت المشاكل بين محمد علي وسلطان تركيا، واستحكم النزاع وثارت الحرب طلب بلمرستون من محمد علي جلاء الجيوش المصرية عن اليمن بأجمعه، فأجابه الباشا: «سأضع هذا الطلب موضع النظر عندما تفرغ الدول من بحث المسألة الشرقية».

ولقد ذكر الكولونيل كامبل في رسالته إلى بلمرستون أن الباشا لم يذعن لهذا التهديد، وأراد اكتساب الوقت بقوله: «لست أستطيع في الوقت الحاضر اتخاذ الإجراءات للجلاء عن اليمن، ولكني سأصدر أمرًا إلى بوغوص بك بإرسال رد على طلب وزير الخارجية الإنجليزية».

وشاءت السياسة الدولية إذ ذاك أن تقف موقف العداء من محمد علي، فاضطر إلى سحب جيشه من اليمن في فبراير سنة ١٨٤٠م وتسليم أقسامها المختلفة إلى بعض شيوخها الأحرار.

وهكذا خدمت الظروف الإنجليز فتوطدت أقدامهم في عدن.

في جنوب شبه الجزيرة العربية حوالي خمسين من أمراء ورؤساء المقاطعات المختلفة، وأهم الحكام سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا، وسلطان لحج، ويليهما في الأهمية سلاطين يافع العليا والسفلى، والكثيري والفضلي والحشابي، وأقل هؤلاء مشايخ يحكمون مناطق من الأرض محدودة، وكان على رؤساء القبائل

زيارة عدن مرة في السنة، وكانوا يأتون ومعهم عدد من أتباعهم وخدمهم ودوابهم، ويقضون أيامًا على حساب حكومة عدن.

وكانت اضطرابات القبائل ومشاحناتها والإخلال بالأمن كل ذلك كان يأخذ وقتًا كبيرًا من حكومة عدن، وكقاعدة عامة كانت هذه الأمور تعالج بتحرير كتب إلى رؤساء القبائل وبإرسال هدايا لهم، وفي عهد السير برناردللي تغيرت الأوضاع فمنعت الهدايا وخطابات التوصية، واكتفت حكومة عدن بالعمل لإنشاء السدود والإكثار من الزراعة، وإنشاء المدارس، ومراكز الشرطة، وإقامة المستوصفات في المناطق الموبوءة.

وتختلف كل مقاطعة عن الأخرى في أنظمتها السياسية وأوضاع حياتها، ففي المقاطعات لرئيس القبيلة كل النفوذ وهو المرجع الوحيد في كل شيء، وفي جهات أخرى ما هو إلا صورة يحكم ما دامت قبائله راضية عنه، ومعظم الأحكام عرفية. وتوجد فروق اجتماعية بين طبقات الناس، فهناك حملة السلاح ويعرفون بالقبائل ومن هؤلاء الأمراء والرؤساء والحكام، وألقابهم سلاطين أو مشايخ أو نقباء، ولقب شيخ أشهرها استعمالًا في البادية. وطبقة الروحانيين، ثم التجار والزراع وأصحاب الحرف.

وللقضاء عند بعض قبائل البادية طريقان: التحكيم والامتحان القاسي.

ومعنى التحكيم أن أي شخص مدين أو مرتكب جريمة يمكنه استحضار عشرة أشخاص ليقسموا له بصحة ما يعرفونه عن القضية.

وطريقة الامتحان القاسي هي الطريقة الهامة، يحلف المتهم أولًا ببراءته وله بعد ذلك أن يختار أحد الأمرين:

الامتحان بالنار ويسمى عندهم (البيشا). أو (قطعة العذاب) وهي عبارة عن قطعة يابسة من الخبز يطلب من المتهم بلعها فإن بلعها بسهولة فهو بريء، وإن وقفت في حلقه فقد ثبتت التهمة عليه. وكل جرح له دية، فالذي كسرت ذراعه أو فقدت ساقه أو قطعت أذنه تدفع له دية تتناسب مع مقام المجروح. وبين هذه القبائل أصبحت الحياة رخيصة. وتوجد بين حكومة عدن وبين بعض الرئاسات القبلية معاهدات لحماية الطرق، ومن أجل هذا تدفع الحكومة لهم مبالغ معينة من المال شهريًا.

الأصابح

ويقال لهم الأصبحيون: بطن من حمير يعيشون في الصحراء وعلى سفوح الجبال والتلال الواقعة بين إمارة العِبْدِلِّي ومقاطعات باب المندب غربي عدن، ويحمل بعضهم السلاح، الأمر الذي دفعهم إلى تمزيق وحدتهم إلى طوائف كل طائفة تنازع الأخرى في البقاء، وتتوقف حياتهم على زراعة بعض الحبوب بمياه الأمطار، وهي لا تقوم بحاجتهم الضرورية، ولذا يشتغل بعضهم بنقل البضائع من بلد إلى آخر.

ويعتبر الأصبحيون سلطان لحج زعيمهم الأكبر يخضعون له أكثر مما يخضعون لشيخهم، ويعبث بعضهم بالأمن؛ ينهبون قوافل القات التي تأتي من اليمن في طريقها إلى عدن.

والقات شجرة تنمو في اليمن ويهتم اليمنيون بزراعته كثيرًا، ومضغه ليس هو تسلية أهل اليمن فقط، بل وأهالي عدن أيضًا ولا أثر له -والحمد لله- في حضرموت، وتجارته رابحة لكثرة عشاقه، وتكلف الحزمة المكونة من ستة أغصان حوالي ١٢ عانة، ولكن المولعين به يصرفون أكثر مما يصرفه المدخنون

في السجائر، وحين كنت في عدن مضغت ورقة منه مندفعًا بحب الاستطلاع فشعرت بأنه قذارة، ولكن عندما يتعوده الإنسان يجعله يشعر بنكهة غريبة تدوم ما دام الشعور غير مفقود، وهو كما يزعم بعضهم ينبه الشعور ويرهق الذكاء، وإني لأعرف أن أكثر المدمنين على القات في أشد الحاجة إلى شحذ ذكائهم، ونتائجه لا تدوم إلا وقتًا قصيرًا، وأحب الأيام لتعاطيه هو يوم الجمعة وذلك عندما يجتمعون، فكل منهم يذهب إلى مكان الاجتماع حاملًا معه حزمة من القات، وكل ما يعمله المضيف إحضار المبصقات، وبعد حوالي ساعة تبدأ النكت والقصص، ويا لها من قصص يرويها الصيادون وغيرهم، ومجالسهم تشبه إلى حد كبير مجالس الصينيين المدمنين على الأفيون.

ويجب أن يكون القات طازجًا وإلا فإنه عديم النفع، وتجمع غصونه في الصباح المبكر وتحزم داخل حشائش وأغصان خضراء لحفظه طازجًا، وتحمل هذه الحزم على ظهور الجمال كل حمل ٣٠٠ حزمة، وتصل القافلة إلى لحج في الصباح الثالث إذا واصلت القافلة سيرها، وفي عدن تحمل في سيارات.

الحواشب

وتقع المسيمير عاصمة بلاد الحواشب على بعد خمسين ميلًا تقريبًا من عدن، والأمن بينها وبين لحج مضطرب، لذلك يجب على المسافر في هذه المنطقة أن يستصحب بعض حملة السلاح لحراسته، وتشغل الكثبان الرملية بضعة أميال، وتوجد حقول الذرة والنخل في وادي تُبَن، وتقترب التلال بعد ذلك ويصبح سطح الأرض حجريًا، وفي منطقة عارية جرداء يقوم حصن العَنَد، وقد أخذت عوامل التعرية تهاجمه، ولا بد أن يأتي يوم يصبح فيه كومة

من الثرى. وفي وادي تُبَن تكثر المرتفعات والمنخفضات، وتعتبر هذه المنطقة من أخطر المناطق. ومن المناظر الرائعة جبل وَارْواح وهو جبل أخاذ يشعر الإنسان نحوه باهتمام خاص، وصورته موجودة في الكتب العربية التي تدرس في معهد الدراسات الشرقية بلندن، وعدد الحواشب لا يزيد على عشرة آلاف نسمة، ويحكمهم السلطان محسن بن علي بن مانع الحوشبي، وهو ذو شخصية قوية، ويخضع له قومه خضوعًا تامًا. ويلبس السلطان فوطة يلفها حول وسطه إلى الركبتين، ويضع على كتفه رداء، وعلى رأسه عمامة ذات ألوان فاتحة، وفي وسطه حزام به خنجر ثمين.

والمباني في مسيمير من الطوب النيء ما عدا قصر السلطان المبني من الحجر الأصم، والطابق الأول منه يستعمل للسجن، وغرفة الضيافة مستطيلة ضيقة بها منضدة سطحها من الرخام وحولها بضع كراسي، وأرضية الغُرْفَة مغطاة بالحصير والسجاجيد، وفي جوانبها مخدات مغطاة بقماش من الحرير اللامع. وللسلطان حدائق جميلة بها أنواع كثيرة من الفواكه، ويملك أطيانًا كثيرة يزرعها ذرة ونخلًا، والحر شديد ولذلك ينام الأهالي في سطوح المنازل صيفًا، ويكثر عواء الكلاب ونهيق الحمير في الليل، ولكن الناس هناك لا يكترثون لذلك، ومن الأمراض الشائعة الرمد الحبيبي وحمى الورد، والكي أهم طريقة للعلاج عندهم. وتكثر الأفراح والسهرات في الصيف في الليالي القمرية، والحواشب مولعون بالرقص على دقات الطبول، ولون الحواشب يميل إلى السواد وشعرهم خشن ويكاد يكون مفلفلًا، ولعلهم يمتون بصلة إلى الأحباش الذين غزوا الجنوب الغربي من بلاد العرب في القرن السادس بعد الميلاد وطردوا منها سنة ٧٥٠م، ولكن لبعضهم ملامح أكثر دقة،

والحواشب يحبون العمائم الزرقاء، ويلفون حول وسطهم فوطة ويثبتونها بحزام مملوء بالخراطيش.

الضالع

آل قُطَيب: تبعد الضالع عاصمة القُطيبيين عن عدن بنحو ٣٥٠ ميلًا، وتوجد هناك محطة لاسلكي على مسافة ٤٠ دقيقة بالطائرة، وليس هناك مطار منظم ولكن هناك مساحة من الأرض مسطحة ممهدة على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم من سطح البحر، وآل قطيب من القبائل الضاربة على طريق اليمن، وكانوا ينهبون القوافل بالقوة، وقد عانت حكومة عدن الأمرَّين في إخضاعهم، وفي قطع دابر قطاع الطرق منهم، والضالع من المحميات التسع ويدعى حاكمها حسن علي، وهو قصير القامة يلبس إزارًا إلى الركبتين وفي وسطه حزام، ويلبس جاكتة وعمامة على الطراز الهندي، ولكنها غير مرصعة بالجواهر ويساعده في الحكم عمه مقبل، ولهذا وجه جذاب وشخصية قوية وقد اشتهر بالدهاء والمكر، وهو الذي أثار الحرب بين آل قطيب وبين حكومة عدن ولم تستطع الحكومة إخضاعهم إلا بعد أن ألقت عليهم القنابل بالطائرات. ومن يبحث عن مصدر معظم الاضطرابات بين القبائل يجد سببها مطامح الرؤساء.

بلاد الفضلي

تتكوَّن أراضي الفضلي من جزء كبير غربي عدن، وتمتد على طول الشاطئ من عدن إلى مساحة كبيرة، وخلفها وخلف الجزء الغربي منها تقع بلاد يافع، وتشغل الواحات الخصبة جزءًا صغيرًا من منطقة أبين في إمارة الفضلي. وأهم الغلات الذرة والنخل وبعض الفواكه، ويعتمدون في ري الأراضي على مياه الأمطار التي تسقط صيفًا على جبال يافع وتنحدر في نهر النازعة وفروعه.

وتقع العاصمة «شُقْرَا» على ساحل رملي وبها قصر السلطان، ويبلغ السلطان عبد القادر بن حسين الفضلي حوالي السبعين من عمره، وأولاده أقوى شخصية منه، وهو عديم اللحية تقريبًا، وشعره غامق مجعد، وعمامته معقودة كضفيرة من أكاليل النصر، ويلبس قميصًا موشى بخيوط خضراء فاتحة، وفي وسطه فوطة تشبه ما يلبسه الإسكتش، وعمامته على الطراز الهندي ولونها أخضر مائل إلى الحمرة، وتختلف هيئة شخصيته عن أولاده كل الاختلاف، وأبرز أبنائه حسن ويبلغ من العمر حوالي العشرين، وشخصيته قوية مملوءة شرفًا وعزة وطيب أخلاق، يحترمه كل أفراد الأسرة حتى إخوته الذين يكبرونه كثيرًا، تعلم القراءة والكتابة في مدرسة الأمراء بعدن.

ويبدو (صالح) الابن الأكبر للسلطان ذا وجه مليء بالشخصية والقوة، تنم نظراته عن الجد والحزم والهدوء، وكل الذي يلبسه قطعة من القماش حول وسطه، ويربط حول شعره المجعد الأسود قطعة من القماش المصبوغ، وهو بالطبع أصلح وأكفأ للحكم من أبيه، ولكن قضت العادة في بلاد العرب أن يخضع الأبناء للآباء خضوع العبيد لأسيادهم، وقد يحدث نزاع بينه وبين أبيه بسبب إصرارهم على التمادي في النزاع القائم بينهم وبين يافع الذي استمر أكثر من ثمانين عامًا، ومنشأ هذا النزاع والخلاف قناة النازعة التي تخرج من نهر بنا في أراضي يافع، وتشق طريقها في أرض الفضلي، واتفاق سنة ١٨٧٢م يمنح الفضليين حق إمدادهم بالماء بواسطة اليافعيين. وليس من شك أن الفضليين يحبون أن يأتيهم الماء بدون انقطاع لري أراضيهم. وأدرك اليافعيون أنه لا بد أن ينفذ الاتفاق ولكن تاريخ المشكلة معقد، وفي الفريقين أفراد دأبهم المشاغبات، ولذلك استمرت الإغارات على الجمال والأغنام بالرغم عن

الفترات من الهدنة التي كان سلطان لحج يعقدها بينهم، وأخذت حوادث القتل مكانها في مساحة مستديرة من -حيد حليمة- وهو تل يقع في حدود الفريقين. ومنذ خمسة وعشرين عامًا اتفق الفريقان على أن يعطي اليافعيون الفضليين ماء قناة النازعة نظير مبلغ من المال وكمية من البلح سنويًا، وقد نفذ هذا الاتفاق وانقطعت المشاغبات، ولكنها عادت بعد بضع سنين. وفي سنة ١٩٢٩م عقد بينهم صلح بواسطة سلطان لحج على أساس المعاهدة السابقة، ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلًا، وهكذا صارت مياه النازعة سببًا للاضطرابات والقلاقل، وقد سماها المستر إنجرامس -وقد ذهب إليهم سنة ١٩٤٠م للصلح-: «المياه الصاخبة».

يَرَامس

وهذه المقاطعة خاضعة للفضليين، وتقع في وادي مثوان شمالي بلاد الفضلي على مقربة من جبال جدم بقممها الكثيرة، ويخترق الطريق وادي رخامة العميق المحفور في صخور بركانية سمراء، وفي وادي مثوان تصبح الأرض مسطحة تمامًا تعلوها طبقة من الرمل، وهناك تنبت أشجار، ويأخذ الأهالي وقودهم منها بعد قتل الثعابين الرقطاء التي تكثر في أوراقها. وهناك مجموعة من المنازل الصغيرة يسكنها جماعة قد أنهكهم الجوع والحرمان فأصبحت أجسامهم نحيلة كأنها الشجر المسلوب، ويأخذ الطريق في الصعود، وتنمو الأعشاب على جانبي التلال والوهاد، وتأخذ الجبال منظر المتدفق حين انصهارها، وفجأة تصبح كالبلاط، وكل الطبقات العليا تهبط نحو الأرض في زاوية مقدارها ٤٥ درجة، وبعد ساعتين يظهر وادي يرامس بمياهه الجارية وأعشابه الخضراء وحقوله الخصبة، وأهم الغلات الذرة والبلح والمواشي، والسكان مشهورون بالكرم.

والسلطان حيدرة رجل طاعن في السن قد تساقطت أسنانه وضعف سمعه، ولكنه نشيط مرح ذو ابتسامة كابتسامة الأطفال. وتقع الروضة على الضفة اليمنى لوادي يرامس. ويقيم السلطان وأولاده وحاشيته في دار متواضعة بالروضة مكوَّنة من عدة غرف، إحداها يستعمل للمحكمة وأخرى للضيافة، وهذه مفروشة بالحصر والسجاجيد، وليس للشبابيك زجاج وتبقى دائمًا مسدودة.

ويحكم السلطان حيدرة مقاطعة يرامس، ونظام حكمه يشبه إلى حد بعيد نظام الإقطاع، وهو كما ذكرنا خاضع للفضلي، ولكنه كثيرًا ما يتمرد ويخرج عليه، وعلى الحافة الثانية للوادي يقع بيت ابن أخيه جِعْبل بن حسين ويقيم معه أخوان له، والمنازل لا تبعد أكثر من مائة ياردة، وتنازع جعبل وأولاده مع عمهم وأبناء عمهم، واشتد الخلاف، فلو خرج عمه أو خرج أحد مواشيه من سور الدار فإن جعبل يضربها ببندقيته، وبالعكس لو أن جعبل اجترأ في وضح النهار وخرج من منزله فإن عمه وأولاد عمه يضربونه بالرصاص، ولذا رأى أصحاب المتاجر أن الحياة لا تطاق بين هؤلاء المتنازعين فغادروا الروضة بمتاجرهم فخمدت الحركة، وركدت الزراعة، وانتشرت المجاعة. وفي شهر يوليه سنة ١٩٣٤م استطاع المستر إنجرامس أن يصلح بين الفريقين، فهدأت الحال واستعادت الروضة نشاطها الاقتصادي والزراعي، وخلت من نباح الكلاب التي كانت تأكل الرمم.

يافع

وهم سلالة يافع بن زيد بن مالك بن زيد بن رعيني الحميري، ومنهم مبرح بن شهاب بن الحارث بن ربيعة بن سعد بن شحيت بن شرحبيل

ابن حجر بن عمرو بن شرحبيل بن عمر بن يافع الرعيني الصحابي، وهو أحد وفد رعيني الذي هبط مصر، وكان ميسرة عمرو بن العاص يوم دخل مصر. وهناك علماء محدِّثون من يافع منهم عبد الله بن موهب وعبد الله بن سعيد ابن الصعبة وغيرهما. ومن متأخريهم قطب الحرم المكي عبد الله بن أسعد اليافعي نزيل مكة.

جاء في التاريخ أن مرتا القبطية وجدت نفسها أمام جثة روماني في بيتها، فوقفت واجمة وتوجهت بصلاتها إلى الله أن ينقذها من موقفها الحرج، فبينما هي في صلاتها إذا بالباب يفتح بعنف، وإذا بصوت أجش مرعب: لقد قتلت هذا الروماني أيتها المصرية الخائنة، فانتفضت مذعورة، وإذا بها أمام جنديين رومانيين يهددانها، فتراجعت إلى الوراء، وفي تلك الساعة الحرجة دخل من الباب عربي كالح الوجه براق العينين في يده سيف يقطر دمًا، وما إن وقع نظره على الجنديين الرومانيين حتى وثب صائحًا: لن تفلتا مني ورب الكعبة فأغمي على تلك المرأة، وبعد أن أفاقت وجدت نفسها مستلقية وعلى مقربة منها ثلاث جثث والأعرابي جالس إلى جانبها، ذلك الأعرابي هو حسان بن زياد اليافعي الذي التحق هو وإخوته وأبناء عمه بجيش عمرو بن العاص، واجتازوا نهر النيل في طليعة جيش المسلمين وركزوا العلم في الضفة الغربية للنيل، ومن ذلك اليوم سميت تلك المنطقة (الجيزة) وهذا الجيش هو الذي كان الخليفة عمر بن الخطاب يعنيه عندما كتب لعمرو بن العاص يقول: لا تجعل بينك وبين قومك بحرًا فابن سورًا يحمي المسلمين في جيزة الفسطاط، وقد أراد عمرو أن ينزل عند رغبة أمير المؤمنين، ولكن اليافعيين ومن كان معهم من أبناء القبائل العربية أبوا إلا أن تظل مكشوفة من أمامهم ومن ورائهم، وقالوا لقائدهم عمرو بن العاص دعنا من السور يا عمرو فإنما أسوارنا صدورنا.

وتقع بلاد يافع في الشمال الشرقي لعدن، وتنقسم إلى ولايتين يقال لإحداهما «يافع العليا» والأخرى «يافع السفلى».

وتشمل **يافع العليا**: قبائل الموسطة والضبي والمفلحي وعشائرهم. وتمتاز هذه القبائل بقوة الشكيمة والشجاعة والدهاء، وهم أقرب إلى المدنية منها إلى البداوة، ويدينون بالطاعة لآل الشيخ علي، وسلطانهم الحالي هو محمد صالح بن عمر بن هرهرة اليافعي، ويقيم في المحجبة، وقد كان أبوه ذا شخصية قوية، وقد اغتيل في شهر فبراير سنة ١٩٤٩م بيد أبناء عمومته.

ومجمل الحادث أن محمد بن ناصر هرهرة وأحمد بن سيف هرهرة، وهما من أبناء عمومته وفدا على حصن حلين ليزورا السلطان، وليعرضا عليه اقتراحًا لتسوية بعض المنازعات المتصلة بالمراعي، وقد دعاهما السلطان لتناول العشاء معه، وظلوا بعد ذلك يتسامرون إلى أن بلغ الليل نصفه، فنهض السلطان وابنه ورجال الحرس إلى حيث آووا إلى فراشهم جميعًا، وفي الساعة الثانية صباحًا فتح الزائران باب الحصن الكبير وأدخلا منه عشرة من رجالهما كانوا مختفين في موضع قريب، وما هي إلا لحظة حتى انقضوا جميعًا إلى حجرات النوم وقتلوا السلطان وابنه، وساقوا كل من كان في الحصن من الحرس والنساء إلى مدينة (أهل الحيد)، ثم احتلوا بعد ذلك المنطقة المحيطة بالحصن، واستولوا على كل ما فيها من السلاح والأشياء الثمينة.

ولحسن الحظ أن للسلطان ولدًا آخر اسمه محمد صالح كان أثناء الحادث في مدينة الناجرة الواقعة على مقربة من المحجبة ففزع إلى بعض القبائل وشكا إلى رجالها تلك الجريمة الشنيعة. وعقد رجال هذه القبائل مؤتمرًا نادوا فيه بمحمد صالح بن عمر وريثًا شرعيًا وخلفًا لأبيه على ولاية المحجبة.

ويمتاز مسطح يافع العليا بسعة الأراضي الزراعية وقلة الجبال، وأهم الغلات الحبوب والورس، وبعض الفواكه كالتين، وبعض التوابل، والسمن، والزيت، وخبرتهم واسعة بالزراعة وتربية المواشي والدواجن، ويعتمدون في ري الأراضي على مياه الأمطار.

يافع السفلى: وبها قبائل آل سعد وكلد والناخبي واليزيدي وغيرهم، ويشتهر هؤلاء بالشجاعة والطاعة العمياء لسلطانهم عيدروس بن محسن العفيفي اليافعي، وهو في العقد الرابع من عمره، حسن المنظر قوي الشخصية يترك أثرًا في كل من يقابله، شجاع كريم، عديم الثرثرة في حديثه، استطاع بحزمه وسياسته ولباقته أن يقبض زمام القبائل اليافعية في يافع السفلى. يلبس عمامة من الحرير ملفوفة على طريقة لحج، وسترة هندية طويلة مزررة، وسروالًا من المخمل، وحذاء من الجلد، ويربط في وسطه خنجرًا محلًّى بالذهب، ويفضل ركوب حصانه الأسمر أثناء انتقاله من بلد إلى آخر.

وتحيط بيافع السفلى جبال شاهقة جرداء تخترقها أودية عميقة، والتربة هناك خصبة تكوَّنت من الطمي والغرين ومعظمها خضراء بأشجار البن، وهو ثروة الأهالي هناك، ويصدر منه كميات وافرة إلى عدن وحضرموت ولحج وظَفَار وشرق أفريقيا، وتزرع به أيضًا بعض الحبوب والفواكه كالموز و(الباباي).

وتقع مدينة القارة في مساحة من الأرض منبسطة، وبها قصر السلطان ذو الست الطبقات، وهناك مسجد كبير جميل بمئذنته اللطيفة الجاثمة والتي تشبه قدحًا من الزجاج معكوسًا وسط حوض واسع عميق.

وقبائل يافع سواء في المناطق العليا أو السفلى لا تزال تحتفظ بالصفات العربية كالكرم وحماية المستجير والدفاع عنه، والجهل ضارب أطنابه في طول البلاد عرضها، والنساء سافرات الوجوه، والعفاف والحياء من أهم مزاياهن، ومن العيب أن تذكر المرأة أي شخص ولو كان قريبها بالقوة أو الجمال، وهن يشاركن الرجال في فلاحة الأرض وزراعتها وتربية المواشي والدواجن، وقد يشاركنهم أيضًا في الحرب، ويعتمد محور القرابة عندهم على ناحيتين: النظام الأمي والنظام الأبوي مع أرجحية ناحية الأب على ناحية الأم، ووصلت الأسرة عندهم إلى أضيق نطاقها، فأصبحت لا تشمل إلا الزوج والزوجة وأولادهما ما داموا في كنف الأسرة، غير أنه لا تزال يوجد لديهم رواسب من النظم القديمة، فكل فرد ينتمي إلى أسرتين عامتين: هما أسرة عمومته وأسرة خؤولته، ويرتبط أفراد كلتيهما بطائفة كبيرة من الروابط الاجتماعية والقانونية وبكثير من الحقوق والواجبات، وذلك إلى جانب انتمائه إلى أسرته الخاصة الضيقة التي تتألف من أبويه وأولادهما. وإجراءات الزواج عندهم مبسطة، وسلطة الآباء على الأبناء لا حد لها، وتخضع الزوجة لزوجها خضوع الأمة لسيدها ولا تطلب الطلاق من زوجها مهما كانت معاملته قاسية، ومتى طلقت يصبح أمر زواجها في يدها، ولكن ليس لها أن تختار إلا بعد موافقة أبيها أو من يقوم مقامه، وهذا عكس البنت البكر فلا يؤخذ رأيها عند زواجها، وزواج ابن العم من ابنة عمه له المقام الأول حتى ولو كان أحدهما غنيًا والآخر فقيرًا، وهذه الأوضاع الاجتماعية تكاد تكون موجودة عند جميع القبائل العربية، والحماة من أكبر الأسباب لتوطيد الروابط وتوثيق الصلات بين الزوجين، وتعطف كل العطف على زوج ابنتها، وهذا عكس ما نشاهده في مصر، فإن

الحموات يتدخلن في كل شيء يتعلق بشؤون أزواج بناتهن، ومن هنا ينشأ الخلاف بين الزوجين ذلك الخلاف الذي كثيرًا ما يؤدي إلى الطلاق، أما الثقافة فلا أثر لها هناك البتة، ولهجة اليافعيين غامضة وهي لا تختلف كثيرًا ولا قليلًا عن لهجة سكان المحميات التسع ما عدا حضرموت، فإن لهجة الحضارم واضحة كل الوضوح لا سيما في الحواضر، وتشبه كثيرًا لهجة المصريين في الصعيد.

ويوجد بينهم شعراء وأشعارهم مزيج من العامية والفصحى، وتكثر الأغاني الشعبية في المواسم، وكثيرًا ما تنتقل أغانيهم إلى البلدان المجاورة لهم كلحج والفضلي ولكنها لا تحمل شيئًا من صفات الخلود، فسرعان ما تختفي وتحل محلها أغان جديدة، وكل أشعارهم وأغانيهم تتناول المدح والغزل ووصف الشجاعة والبطولة.

ويبلغ تعداد سكان يافع العليا والسفلى حوالي المائة والأربعين ألف نسمة، ومعظمهم يحمل السلاح، ولآل الشيخ أبي بكر سلطة روحية قوية عليهم، ويقدسون المنصب أعظم تقديس حين يزورهم في بلادهم ويبعثون له الهدايا الثمينة ومنها البن تبركًا به، ولكن هذه السلطة بدأت في بعض المناطق تنكمش وتتضاءل، وليس من شك أن مآلها التلاشي والانهيار متى ما انتشر التعليم بين طبقات الشعب، وتثقفت عقولهم وتنورت أفكارهم.

ولقد سطع نجمهم في حضرموت سنة ١١١٧هـ فقد أتى السلطان بدر بن محمد المردوف الكثيري بستة آلاف محارب منهم سنة ١١١٥هـ لنصرته ضد قومه الذين خذلوه ولم يخلصوا له.

العوالق

تقع بلاد العوالق شرقي بلاد يافع والفضلي، ويحدها من الجنوب المحيط الهندي، ومن الشرق حضرموت وآل عبد الواحد، ومن الشمال وادي بيحان. وتنقسم العوالق إلى عليا وسفلى، ويعنون بالعوالق السفلى تلك القبائل التي تسكن السهول الجنوبية من بلاد العوالق، ويحكمهم السلطان عيدروس بن علي، ومقره الرسمي مدينة أحْوَر التي تبعد عن البحر ببضعة أميال، وبالرغم عن وقوعها في منطقة ماحلة جرداء فإنها مركز تجاري حيث تمر بها القوافل الذاهبة إلى عدن والواردة منها إلى المناطق الشمالية والشرقية، ويأخذ السلطان عليها عشورًا. ولأحور مرسى صغير تؤمها المراكب الشراعية، ومن القرى الهامة (المحْفِدْ) وهي السوق الرئيسي لقبائل آل باكازم الشهيرة بقوة الشكيمة وشدة المراس، ومن بطونها الشهيرة (آل شمعة) ويسكنون في قرية المنقعة، ومن أعلامهم محمد بن فريد، وبيت (البَسَم) ويسكنون بالمحفد، وفي قبائل آل باكازم بيوت دأبها قطع الطرق والنهب والسلب.

والسلطان عيدروس نحيل الجسم قصير القامة يحب التأنق في ملابسه، يلبس إزارًا وجاكتة مزررة، وعلى رأسه عمامة تسمى الدسمال المصنوعة في بونه من بلاد الهند، وهو محب للسلم والهدوء، ولكن ليس له نفوذ قوي على قبائله التي قد تخرج عليه وتتمرد ضده.

ومن أهم أودية العوالق السفلى، وادي المحفد، ووادي المنقعة، ووادي ضَيْقة الذي ينحدر سيله المتجمع من شعابه ويتجه إلى منطقة أحور ويصب في البحر، ويعتبر وادي ضيقة أطول الأودية تقطعه القوافل في ثلاثة أيام.

أما العوالق العليا فكلها جبال وتلال وهضاب، وتتكون قبائلها من قسمين رئيسيين: (المحاجر) ويسكنون في شمال المنطقة، ومن أهم فخائذها المزاريق والمطوسلة وهَمَّام و(آل علي) ويسكنون في جنوب المنطقة، وهم أكثر القبائل عددًا وأشدهم بأسًا، ومن أشهر فخائذهم آل أبو بكر وآل باريس وآل عتيق وآل مِدحج، وشيخ العوالق العليا من آل علي ويطلقون عليه (العاقل)، وبيت المشيخة هم آل فريد، وينتمون إلى آل أبي بكر المذكورين والمشهورين بالإقدام والكرم. والعاقل أو الشيخ الآن هو محسن بن فريد العولقي، وهو محبوب من سائر القبائل العولقية، وله نفوذ قوي ولكنه يعترف بسلطة السلطان عوض بن صالح العولقي، ويقيم السلطان عوض هذا الذي ينتمي إلى قبيلة المحاجر في مدينة (نصاب).

وأهم أودية العوالق العليا وادي ضرا وعَبَدَان ووادي يَشْبُم، وتسكن المحاجر والسلطان في وادي ضرا وعَبَدان، كما أن العاصمة نصاب تقع فيها، وتكثر في هذه المنطقة الأراضي الزراعية، وفيها بعض السهول الفسيحة التي لو تناولتها يد العمران لازدهرت وأصبحت غنية بغلاتها. ومن أهم قرى هذه المنطقة المُصَيْنَعة وبها المشايخ آل أبي حربة، وتسكن قبيلة آل علي في وادي يَشْبُم، وهو واد ضيق محصور بن سلسلتين من المرتفعات، وعلى جانبيه توجد مساحات محدودة من الأراضي الزراعية، وتتصل به أودية صغيرة عرضية أهمها مَرْبُون والعظمة والشعبة، ومن أهم القرى يشبم وبها آل الجفري وآل بانافع وأصحاب المهن المختلفة، وقرية الصعيد -وينطقونها بفتح العين- وبها آل فريد، والسُّفال وبها آل سليمان، ويمر وادي يشبم بمدينة حبّان التابعة لمنطقة الواحدي، وكثيرًا ما حاولوا احتلالها لاعتقادهم أنها داخلة في حدود

بلادهم، وقد كانت تابعة لهم منذ بضعة عشر عامًا، وأهم البيوتات فيها آل المحضار وآل ذيبان وآل الشبلي وآل عليوه.

والسلطان رمز صوري للحكم، فكل السلطة في أيدي المشايخ، فلكل قبيلة شيخ يلجئون إليه عندما تتعقد المشاكل، وهؤلاء يشبهون كل الشبه بعهد الإقطاع في القرون الوسطى، وكل الأحكام تقريبًا عرفية لا تتقيد بقانون مدوّن، ولآل الجفري نفوذ روحي قوي، وقد يتدخلون في حل مشاكل القبائل، وإصلاح ذات بينهم، ونفوذهم ليس فقط على آل علي بل على جميع قبائل العوالق تقريبًا، وعلى قبائل القَموش ويسمون أنفسهم حِمْيَر، وآل خليفة وآل سعد، وكذلك لهم نفوذ على قبائل لحج. ورئيس هذه العائلة هو السيد علوي بن حسن الجفري، ولآل الحداد نفوذ روحي على المحاجر ومقرهم نصاب عاصمة العوالق العليا، كما أن لآل الحامد نفوذًا روحيًا في العوالق السفلى ومقرهم في أحور.

والحالة الاقتصادية في بلاد العوالق سيئة؛ فالجفاف يسود أراضيها طوال السنة تقريبًا، وزراعتهم تتوقف على سقوط الأمطار وهي شحيحة جدًّا.

أما التعليم فلا أثر له البتة.

لحج

تقع لحج شرقي عدن وتبعد عنها بحوالي عشرة أميال، والطريق بين البلدين ممهد في منطقة صحراوية، ولكن يسودها الأمن ليلًا ونهارًا، وحركة المرور لا تنقطع؛ فالسيارة المزدحمة تسير بسرعة، والقوافل ذات المنظر الهادئ تسير ببطء، والجمال تعرف طريقها جيدًا فقد ينام الركاب على ظهورها أثناء سيرها.

ولحج من أخصب الواحات في جنوب شبه الجزيرة فتربتها تحتوي على كل عوامل الخصب؛ ففيها الملح، والرمل، ورواسب الصلصال، والمواد الفسفورية، والنتروجين، وأكسيد البوتاس، والمغنزيا.

وتتدرج سفوح التلال نحو البحر مكونة رؤوسًا من الرواسب النهرية، وفي ديسمبر ومايو تهب الرياح على البر غالبًا من الشمال الشرقي.



عظمة السلطان فضل بن عبد الكريم العبدلي سلطان لحج



[صورة] خزان عدن

وتنقسم لحج قسمين رئيسيين: شرقي ويسمى (الوادي الصغير)، وكان يسمى (وادي الزان)؛ ويبتدئ من قرية زائدة، وينتهي بالقرب من قرية العماد. وغربي ويسمى (الوادي الكبير)؛ ويبدأ من قرية زائدة أيضًا، وينتهي على مقربة من مرسى التَّوَّاهي بعدن. وتخترق هذين الواديين وديان عرضية وطولية يقال لها (أعيار)، وعلى امتداد الأودية تقوم القرى.

وفي عصر التبابعة بني سد لحج العظيم، وهو سد العرايس لخزن مياه الوديان وتوزيعها على الأراضي الزراعية، ولكن لا أثر لهذا السد اليوم، ولا يعرف مكانه بالضبط، ولكن الأمير أحمد فضل العبدلي قال في كتابه (هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن) إنه كان بالمسيد قرب العند حيث توجد أحجار ضخمة مبعثرة في جوف الوادي.

وفي لحج تكثر أشجار الموالح، وتزرع الذرة والخضروات والفواكه، ومنها: الموز، والعنب، والتين، والبابايا، وجوز الهند، والمانجو، والشيكو، وهو من أشهر فواكه الهند وألذها طعمًا. ويقال للبستان حيط، وأشهر البساتين حيط الصمصام، وحيط الجريبي، وحيط باقي، نسبة إلى ناصر فضل الصمصام ومحمد صالح الجريبي والشيخ باقي.

وكان السلطان فضل بن علي أكثر سلاطين العبادلة اهتمامًا بالزراعة؛ فقد جلب نقاوى الأشجار من الهند ومصر وصنعاء وزبيد. وجلب السلطان عبد الكريم فضل الآلات الحديثة لرفع المياه من الآبار. وتتكدس غلات لحج في أسواق عدن.

وأشهر مدن لحج الحوطة وهي العاصمة، وسكانها نحو ١٥ ألف نسمة، وبها نحو ثلاثين بئرًا وتستعمل للشرب، ونحو ١٢ مسجدًا أشهرها جامع السيد عمر بن عبد الله بن حسين المساوى الذي بُني سنة ١٠٨٣هـ، وجدد بناءه السلطان عبد الكريم، ومسجد الدولة، وبناه السلطان أحمد محسن فضل العبدلي وهو جميل، ويشبه مساجد الهند الفخمة، ومسجد (الجامع) وفيه تقام صلاة الجمعة ويصلي فيه السلطان وحاشيته.

وقبائل لحج خليط من العجالم، والجحافل، والأعمور، والحواشب، والعقارب، والأبقور، وذي أصبح. وفي لحج من يافع مشايخ آل علي بصهيب، والحرمان مشايخ آل قطيب؛ فالحرمان من آل الكساوي وآل علي من ذي ناخب، وذي تستعمل عند بعض قبائل البادية بمعنى أل التعريفية، وهي من بقايا لغة مدحج، ويقال لقبائل لحج العبادل أو العبادلة نسبة إلى الشيخ فضل بن علي العبدلي السلامي الذي استولى على لحج. والمعروف في التاريخ أن

بلاد لحج كانت تحت حكم الأمير حسين بن عبد القادر اليافعي. ولما احتلها أحمد بن الحسن اليمني جاء الشيخ فضل بجيش من يافع وهجم على لحج واحتلها، والمصاهرة بين أمراء العبادل وأمراء يافع معروفة. ولما قُتل أحمد بن صلاح السلامي انتقلت زوجته وهي من أميرات يافع بأولادها إلى يافع، وسكنت في خنفر وجاء في كتاب (نزهة الجليس وأمنية الأريب الأنيس) للشيخ ابن العباس بن علي نور الدين المكي: أن آل سلام العبادلة فخذ من يافع من قبيلة كلد وقريتهم في بلاد يافع تسمى بركات غربي جبل موفجة.

وكان يحكم بلاد لحج السلطان عبد الكريم فضل العبدلي الذي توفي في عام ١٩٤٧م، وهو في العقد السابع من عمره، كان طويل القامة أهيف ذا ذقن مدببة وعينين حادتين، وكان ذكيًا رزينًا شديدًا في مواضع الشدة لينًا في مواضع اللين، وليس من شك في أنه كان الحاكم الحازم الذي استطاع بسياسته إخضاع قبائل لحج وبسط نفوذه على الحواشب والصبيحيين، وبدون تدخل منه في الشؤون الداخلية لجيرانه الشماليين والشرقيين، أظهر كياسة ولباقة في معاملته لهم وارتضوه حكمًا في منازعاتهم حتى بعض ذوي الآراء المستقلة من يافع لم يحرموا من مشورته التي كانت ترضيهم كثيرًا.

وكان يحكم بالعدل فأحبه الناس، كان قطب نهضة لحج، ولا غرو فمن عام ١٣٤٧هـ أخذ يبذل أقصى مجهوده لإصلاح بلاده والنهوض بها إلى المستوى اللائق بها. فقد نظم المحاكم الشرعية، واهتم بالتعليم فأنشأ المدرسة الحسينية، وأرسل البعثات إلى معاهد مصر. واهتم بالزراعة فأدخل الآلات الحديثة لنزح المياه من الآبار، وساعد المزارعين بالمواشي والبذور، وأنقص الضرائب وجعلها تتناسب مع المحصول. مات -رحمه الله- منذ سنتين

فخسرت لحج حاكمًا ماهرًا عرف بتفانيه في أداء واجبه وإخلاصه في النهوض بشعبه إلى المستوى اللائق به.

وقام بالأمر بعده ابنه السلطان فضل بن عبد الكريم فضل فاستبشر به شعبه استبشارًا عظيمًا، ولا غرو فهو سلطان نشط حر في تفكيره وآرائه، عمره العقلي سابق لعمره الزمني على حد تعبير علماء النفس؛ فهو في نهاية العقد الرابع من عمره، ولكنه يبدو شابًا في مظهره كبيرًا في تفكيره وبعد نظره؛ وهو في حرصه على خير بلاده ورفاهية شعبه يتتبع أحوالهما بعناية، بلغ من تدقيقه فيها أن كل كبيرة وصغيرة في شؤون مملكته تلقى ما هي جديرة به من التفاته واهتمامه.

ولآل الجفري سلطة روحية على قبائل لحج، وهم من خيرة الرجال الذين تعتمد عليهم حكومة لحج. هاجر جدهم السيد علوي بن علي الجفري من بلدة تَرِيْس بحضرموت وأقام بِيُشْبَم من بلاد العوالق. وفي سنة ١٢٩٧هـ نزح السيد حسن بن علوي الجفري بعائلته إلى لحج بدعوة من السلطان فضل بن علي، وكان السلطان لشدة تعلقه به وثقته فيه لا يبتّ في أمر قبل أن يأخذ رأيه فيه.

حضرموت

والآن تعال أيها القارئ تطل من علٍ على حضرموت موطن عاد وهود وأقيال التبابعة وملوك حمير وكندة. يا لروعةً هذه البقعة من الدنيا، جبال طاعنات في السماء تشارف المحيط الهندي تخترقها أودية فسيحة منبسطة، وفي بطون هذه الأودية تقوم المدن والقرى. وقديمًا كانت حضرموت تسمى (الأحقاف)، ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾، وأول ذكر لاسمها في التوراة في سفر التكوين ١٠ - ٢٦ حيث ورد اسمها «حضرموت»، وقد حصل خلاف

شديد بشأن هذه التسمية وفرضت فروض كثيرة، ولكن أفضلها أن هودًا لما دعا الله أن ينتقم له من قوم عاد حلت بهم النكبات فقال: «حضرموت».

وكانت حضرموت خاضعة للدولة المعينية، ولما أدركتها الشيخوخة غلب عليها السبئيون[1] وانفردت سبأ آخر الأمر بامتلاك ناصية الحكم منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وفي عصرهم كانت حضرموت جنة الله في أرضه، وما تزال الآثار الباقية من خزانات وسدود تدل على ذلك، وكانت شهيرة بعطورها وتوابلها وفواكهها، وكانت تمر بها المتاجر من الهند إلى اليمن ثم مصر وسوريا.

ولما دنا القرن الأول الميلادي من ختامه قام بنو حمير -وهم غالبًا سلالة سبئية- واغتصبوا من سبأ الملك وانفردوا بالزعامة من بين شعوب الجنوب وأكملوا حلقات الحكم السبئي السابق، وأخذ نجمهم يتألق منذ ذلك الحين حتى القرن السادس الميلادي، ونقلوا حاضرتهم من سبأ إلى ريدان (ظَفَار) ليكونوا على مقربة من البحر، لا سيما بعد أن أصاب بعض مدن الجنوب من التخريب في حملة القائد الروماني إليوس جالوس سنة ٢٤ ق. م. ويقول الطلاب الإسكندريون: إن حضرموت كانت مملكة مستقلة، وكان لهم إلههم المسمى (سين)، وكان لكندة ثلاثة ملوك وملكة واحدة، وكان لهم صنم يسمى (حلد).

جغرافية حضرموت

وتقع حضرموت على بعد خمس عشرة درجة عرضًا شمالي خط الاستواء، وخمسين درجة طولًا شرقي جرينوتش Greenwich، وما بين ظَفَار

(١) «بين الحبشة والعرب».

شرقًا، وعدن غربًا، والربع الخالي شمالًا، والمحيط الهندي جنوبًا. ويمتد إقليم الساحل من عَيْن بَامَعْبد غربًا إلى سَيْحُوت شرقًا، وتبلغ مساحته نحو ٤٥٠٠ كيلو متر مربع، وهو يمتد إلى الداخل إلى مسافة ٨٠ كيلو مترًا من رأس الكلب وعشرين كيلو مترًا عند الحدود الشرقية، وأعلى نقطة فيه تقع في وسطه وارتفاعها ٢١٨٧ مترًا، ويتدرج الإقليم نحو الشاطئ شرقًا وغربًا، ويتراجع في الوسط فيضم بينها سلاسل جبلية احتفرت الأنهار لنفسها فيها وديانًا إلى البحر، وتتدرج سفوح الجبال نحو البحر مكونة طبقات من الرواسب النهرية، وعلى امتداد الوديان توجد أحواض من الأرض بها بعض المزروعات، وأهم الغلات الأذرة والقمح والبلح، وتروى الأراضي بمياه الأمطار التي قد تسقط صيفًا وبمياه الآبار الارتوازية.

وجبال حضرموت مركبة من صخور نارية تعلوها طبقة من الحجر الجيري من العصر الجوارسي، وتلي هذه طبقة من الصخر من العصر الطباشيري، ثم قشور اردوازية وجيرية. وتتكون الطبقات الحديثة من الطمي والرمل، وفي الوديان من الرواسب الغرينية.

وتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وفي ديسمبر ومايو تهب على البر غالبًا من الشمال الشرقي، وعلى طول الساحل يشعر المرء بنسيم البر والبحر، ويمتد تياره إلى بضع كيلومترات داخل الوديان، ويشتد البرد شتاء وترتفع درجة الحرارة صيفًا، وفي مارس تصبح أشعة الشمس محرقة ولا يشعر المرء بالرطوبة ليلًا إلا على الجبال المكشوفة، والجو الداخل -لا سيما في حضرموت- جاف ملائم للصحة، والتغير في الطقس بين الساحل وداخل الوديان محسوس جدًّا، وفي المُكَلَّا يبلغ أدنى حد لدرجة الحرارة في مايو

٦٥ فرنهيت. وتحدَّث بعض كتاب اليونان والرومان عن حضرموت على أنها بلد غير صحي المناخ؛ نظرًا لأن حرارته الشديدة تصطحب بالرطوبة الشديدة. وقد يكون هذا سر ما تخلف فيما بعد في اللغتين العبرية والعربية من اسم وادي (حضرموت) الذي يفسره بعض الباحثين على أنه مركب من لفظي (حضر) و(الموت)؛ نظرًا لعدم صلاحية مناخ الإقليم من الناحية الصحية، ولكن هذا غير صحيح فإن وادي حضرموت يمثل واديًا جافًا، ويعتبر من أصح وديان الجزيرة العربية، وإن كانت واحاته لا تزرع غير النخيل وبعض الحبوب.

نهر دَجْر

ومن الظواهر الطبيعية نهر حَجْر الذي يصب بالقرب من رأس الكلب، ويكوِّن دلتاه إقليم مَيْفَع، وهو يشق طريقه في ثلاث خوانق، وعلى امتداده توجد قرى بها مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، ويبلغ طول النهر ٢٠٠ كيلو متر، وعرضه من ٥ – ١٠ أمتار، وعمقه من ٥ – ٢٠ سنتيمترًا، ويعتبر وادي حَجْر أغنى منطقة من الناحيتين الجيولوجية والنباتية، فالطبقات هناك عكسية مكونة من الحجر الجيري الأسود والحجر الرملي، وهناك تغزر الحياة النباتية. وتروي حقول الأذرة والسمسم والبلح قنوات تستمد ماءها من ينابيع ذات ماء حار جدًّا قد يصل إلى درجة الغليان، وهناك برك ومستنقعات عليها طبقة من الملح وتتوسطها أنواع غريبة من النخل.

المعادن

وفي إقليم الساحل يوجد نحو خمسين نوعًا من المعادن منها اللجنيت، والقار البيريت، ويظنونه ذهبًا، والنحاس، والحديد، والفحم، والأحجار

الزيتية، ولكن بعض هذه المعادن لا يوجد منها إلا مقادير قليلة؛ وأهم هذه المعادن معدن اللجنيت Lignite في جبل كسعى وجبل ضلعيه، وتتراوح عروقه المعدنية ما بين نصف متر ومترين، وهو يشتعل بلهب أزرق لامع، وله رائحة كبريتية، ويبيضُّ لهبه بعد ساعة ويتصاعد منه دخان ثم يصبح بعد ساعات أزرق باهتًا تنبعث منه رائحة أول أكسيد الكربون، ويوجد بكثرة في أسفل العين على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر. ويوجد الكحل أو الإثمد Antimony بكثرة، ولا تزال النساء يستعملنه في تجميل وجوههن بتكحيل عيونهن، وبعض الرجال يكحلون عيونهم به ظنًا منهم أنه يقوي النظر. أما في الشعوب الصناعية فيستخدم في إكساب الرصاص صلابة وشدة لاستخدامه في صنع البطاريات والمواسير والصناعات الكيميائية، خصوصًا في صنع الأشياء التي تحتاج إلى مناعة ضد تفاعلات حمض الكبريتيك، وليس هذا فقط؛ فللأنتيمون (الإثمد) أهمية كبرى في الصناعات الحربية؛ لأنه يستخدم في تقوية الرصاص والشظايا عند صنع القذائف. ويقول الخبراء إن في حضرموت حقولًا للبترول. وفي عدن عند عودتي من حضرموت إلى مصر في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧م جاءت بعثة من شركة شل مكونة من عالم جيولوجي ومهندس وطبيب وهي على أهبة السفر إلى حضرموت للبحث عن البترول، وليس ببعيد أن تكون هناك معادن لم تعرف بعد لا سيما في المناطق التي تقع بين المُكَلَّا وحَجْر وبين حَجْر وشَبْوَة، وفي غير ذلك من المناطق الجبلية القديمة والتي تعرضت فيها الصخور للالتواءات ولعوامل التعرية؛ لأن ظاهرتي الالتواء والتعرية من شأنهما أن يقربا الصخور الحاوية للغازات إلى سطح الأرض. وليس من شك أنه متى ما اكتشفت حقول البترول واستخرجت منها هذه

الثروة المعدنية العظمى سيصبح لحضرموت مركز اقتصادي هام وسيتغير وضعها من فقر وتأخر إلى رخاء وتقدم، ومن بؤس وشقاء إلى سعادة وهناء.

السياح الأجانب

ومنذ أكثر من مائة سنة اهتم الأوربيون بجنوب الجزيرة العربية اهتمامًا عظيمًا؛ فقد ذهب إلى حضرموت كثيرون من الألمان والإنجليز والهولنديين، وأول شخص يعد رحالة بالمعنى العلمي الصحيح هو أدولف فون ريدي Adolph Von Wrede، ولكن بكل أسف لا نعلم شيئًا عنه إلا ما أخبرنا به هنريك فويهرفون مولنز الذي نشر كتاب ريدي عام ١٨٧٠م. ولد ريدي في وستفاليا، والتحق بالجيش اليوناني عام ١٨٣٠م، ورحل إلى مصر عام ١٨٤٣م، ومنها ذهب إلى حضرموت، ولما عاد إلى بلاده لم يستطع طبع كتابه فذهب إلى إنجلترا ودفع بالكتاب إلى أحد الناشرين، ولكن لسوء الحظ انتحر هذا الناشر، ولم يبق من الكتاب سوى سرد الرحلة فقط، أما الخرائط والرسوم الملونة ففقدت. وبالقرب من المُكَلَّا توجد كومة من الأحجار يزعم الناس أنها قبر أحد المسيحيين الذي قتل منذ مائة سنة في محاولة دخوله حضرموت، ويقول البعض إنه قبر ريدي، ولكن الجمعية الجغرافية نشرت في المجلة التي تصدرها أنه بعد أن ترك إنجلترا التحق بالجيش التركي ومات في مستشفى بالأستانة في حالة بؤس شديدة. وظل الحال حتى سنة ١٨٩٣م، حيث قام ليوهيرش Les Hirsch الألماني ونشرها في كتابه سنة ١٨٩٧م بعنوان (رحلة في جنوب بلاد العرب في مهرة وحضرموت)، وقد استمر سنة في طريقه إلى داخل البلاد، ذهب من عدن إلى الشِّحْر ثم إلى سَيْحُوت فقِشِن ثم إلى المُكَلَّا، وهنا خانته شجاعته وآب إلى عدن، ولكنه عاد ثانية مزوَّدًا

بحماية الحكومة البريطانية إلى المُكَلَّا، وهو أول أوربي وقع نظره على شِبَام وسَيْئون وتَرِيْم. وفي نفس السنة بعد هرش بزمن يسير قام المستر تيودور بنِت وزوجه برحلة، ولكنهما لم يبرحا شِبَام، ولم يصرح لهما بزيارة قبر هود وبرهوت، وقد نشرت الرحلة سنة ١٩٠٠م في لندن. وفي عام ١٩١٨م أرسلت الحكومة الإنجليزية ضابطين أحدهما و هـ . لي وارنر في مهمة سياسية إلى شِبَام ونشر تقريرهما كذيل مقال نشره و.ا. كوشرين في المجلة الجغرافية عدد (٧٧) (ص ٢٠٩- ٢٢٢)، سنة ١٩٣٠م، وهو من ضباط الأسطول الجوي. ونشر الدكتور ويلهلم هين مقالة في المجلة الجغرافية الألمانية عدد (٥٧)، (ص ٣٢- ٥٨)، سنة ١٩١٤م، وكان قد اصطحب معه تروهين في سنة ١٩٠٢م وذهبا إلى قِشِن، وهناك ظلا أسيرين لمدة شهرين جمعا في خلالهما معلومات لا بأس بها عن حضرموت.

وفي سنة ١٩٢٤م طلبت الحكومة القعيطية إلى الحكومة المصرية أن تبعث لها مهندسًا ليعمل مساحة تفصيلية عن المنطقة الواقعة بين المُكَلَّا ووادي حَجْر وليبحث عن المعادن فيها، فأوفدت ا.هـ لتل O.H.Little ونشر تقريرًا تحت عنوان (The Geography and Geology of Mukalla)، طبع في المطبعة الأميرية في القاهرة سنة ١٩٢٥م.

وفي مايو سنة ١٩٣١م أرسلت الحكومة الهولندية فان درميلن وويزمان إلى حضرموت للوقوف على حالة الحضارم في بلادهم نظرًا لوجود جالية كبيرة منهم في إندونيسيا، وألفا كتابًا عن رحلتهما بعنوان (Hadramaut)، ويشمل مؤلفهما معلومات قيمة عن حضرموت. وبعدهما بزمن ذهبت مس ستارك إلى حضرموت ثلاث مرات، وأصدرت ثلاثة كتب عن رحلاتها. وبعدها سافر

هارود إنجرامس H.Ingrams هو وزوجه وأصدر كتابًا طبع سنة ١٩٤٢م. وفي سنة ١٩٣٩م ذهب فان درميلن للمرة الثانية إلى حضرموت وأصدر كتابًا عن رحلته.

وألف الدكتور فان دن برخ كتابًا بأمر الحكومة الهولندية طبع سنة ١٨٨٦م، ومع أنه لم يذهب إلى بلاد العرب مطلقًا إلا أنه كتب كتابه (حضرموت والمستعمرات الغربية في الأرخبيل الهندي) بمساعدة بعض الحضارمة المثقفين في بتافيا، ولكن بالكتاب والخريطة نقص كبير وأخطاء فاحشة، وقد استعمل ضباط سلاح الطيران هذه الخريطة.

الآثار

ولعل الذي دفع بالأوربيين للسفر إلى حضرموت وجود الآثار القيمة والمعالم الأثرية الهامة مع ما في ذلك من الأخطار والمتاعب التي كانت تعترضهم لا سيما في البوادي حيث المسالك وعرة والماء شحيح والأمن كان مفقودًا. وفي سنة ١٩١٨م حاول والدي المرحوم السيد عبد القادر البكري دخول المغاير الأثرية فلم يستطع الوصول إلى غايته لعدم وجود أجهزة علمية، ولكنه عثر على بعض قطع أثرية، كما نقل كثيرًا من الكتابات والرسوم، ولسوء الحظ وافته المنية في البحرين وهو في طريقه إلى برلين ليعرض تلك الكتابات والرسوم على علماء الألمان؛ ففقدت جميع مذكراته ومقتنياته الأثرية، كما فقدت مخطوطات نادرة كان ابتاعها في أثناء رحلته بحضرموت.

ومن المناطق المشهورة بالآثار المَشْهَد، فهناك أحجار كثيرة عليها كتابات حميرية، وتوجد تلال تعلو إلى ٣٠ قدمًا على سفوحها أنقاض جدران وعلى إحدى هذه التلال بئر اتساعها ٣٠ قدمًا وعمقها ٦٠، وعثرت فريا ستارك

على آثار قيمة في هذه المنطقة، وعلى مقربة من غيبون وفي وادي ثقب أطلال يقال لها ديار عاد، ومنازل من الصخر طول الواحد منها عشرة أقدام وعرضه ستة وبعضها مسدود بالصخر وعلى الحيطان نقوش باللون الأحمر فحصها الأستاذ موردتمان في برلين فوجدها أسماء أعلام، وتقع المنازل على ارتفاع ٤٥٠ قدمًا. وموردتمان درس وحلل الكتابات التي اصطحبها فان درميلن وويزمان فوجد أن أقوام حضرموت غلبت عليهم الصفات الحربية في عصور متقدمة، وعلى قوله فقد ذكر الإقليم وملوكه في النقوش السبئية القديمة وفي نصوص متأخرة.

وفي سَوْم أطلال من الحجر غير المنحوت وأنقاض حائط ضخم من الصوان الطبيعي كان متصلًا بالجبل وهو بقايا سدٍّ كان يخترق الوادي فيما يرجع إلى ما قبل الإسلام. وفي فُغْمَه منطقة حافلة بالأطلال. وعلى مقربة من سَوْم تقوم أطلال مُكَيْنُون يتصل بها بقعة متسعة كانت مقبرة لسكان المدينة والقبور طويلة، وتوجد هناك قلاع متهدمة لها استحكامات حربية، وهذا دليل على أن الإقليم كان منطقة حدود بين مملكتين، وليس من المناسب عمل نقوش على تلك الصخور، ومناطق الحدود ما كانت مركزًا للثقافة، كما أن الحجر في تلك المنطقة لا يساعد على الحفر؛ لأنه خشن جدًّا.

وفي وادي عَمْد أغنى منطقة أثرية، وهي تمتد إلى مسافة ميلين ونصف ميل ولكن السيول جرفت بعضها، كما أنَّ لعوامل التعرية أثرًا كبيرًا في محو معالمها. ومن الصور المرسومة على بعض الأطلال صور للفيل، ولذا يرى بعضهم أن هذه الفيلة كانت تستعمل في جر الأحجار الضخمة المستعملة في الأبنية في الأزمنة التي سبقت ظهور الإسلام، ولكني أشك في صحة هذا الفرض، ولو أنه من الثابت أن الفيلة لعبت دورًا عظيمًا في تاريخ بلاد العرب.

من عدن إلى حضرموت

ها أنذا أغادر عدن بعد أن قضيت فيها أيامًا استطعت في خلالها أن آخذ فكرة واضحة عن هذه المدينة ذات التاريخ المجيد، وأضمها إلى معلوماتي التي استقيتها من المصادر العلمية، ولقد ساعدني في ذلك السيد محمد صالح بارحيم؛ فقد كان يضحي بمعظم أوقاته ويأخذني في سيارة؛ لمشاهدة معالم عدن ومآثرها القديمة والحديثة وضواحيها المتباعدة الأطراف.

لقد كان الحر شديدًا حين قامت بنا الطائرة من المطار، وبالرغم من ضخامة الطائرة فلم يكن بها مقاعد مريحة، ويظهر أنها كانت تستعمل لنقل الجنود إبان الحرب العالمية الثانية، وتستعمل اليوم لنقل الركاب بين أديس أبابا وعدن وحضرموت.

ولحسن الحظ لم تكن سريعة في طيرانها ولا عالية جدًّا، لذلك استطعت أن أشاهد بشيء من الوضوح الهضبة متسامية نحو السماء وبير علي ببراكينه الخامدة القاتمة، ووادي حَجْر بمزروعاته الخضراء، وثغر بُرُوْم بمجده وقصره الناصعين.

ويلاحظ أن بعض الجبال التي تطل على البحر مكوَّنة من صخور سوداء (بازلت) تظهر من بعيد كأنها غابات كثيفة.

بعد ساعتين هبطنا في مطار الريان وهو مطار فسيح بناه سلاح الطيران البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، والمطار بعيد عن المُكَلَّا، ولقد استقبلنا في المطار السيد عبد الله أحمد الناخبي مندوبًا من قبل عظمة السلطان، وأحد سراة المُكَلَّا السيد محسن محمد الناخبي.

انطلقت بنا السيارة إلى مدينة المُكَلَّا مخترقة هضابًا وتلالًا ووديانًا حتى وصلنا مدينة المُكَلَّا، ودخلت بنا السيارة من باب المُكَلَّا العظيم الارتفاع والمخفور برجال من البوليس.

وتمتد مدينة المُكَلَّا على ساحل البحر في غير تحفظ ولا احتياط كما تستلقي الغادة الهلوك على الشاطئ في غير تحرج ولا احتشام، وهي تداعب النهار حين يقبل عليها مشرقًا بما تظهر له من زينتها، يا لروعة هذا المنظر! مدينة أنيقة بمنازلها ومساجدها البيضاء، وخلفها سور جبلي شاهق يبلغ ارتفاعه ٦٠٠ قدم، وقصرا السلطان القديم والجديد يطلان على البحر من ربوة، وفي أقصى المدينة من الجهة اليمنى يقوم قصر ثالث للسلطان، حقًا إن للألوان سحرًا عجيبًا! وبين تلك القصور العالية يمتد لسان من الأرض هو وسط المدينة، وعلى أحد جانبي هذا اللسان يقوم الميناء التي ترسو فيه السفن، وعلى مقربة من القصر القديم تقوم المقابر تتوسطها قبة على ضريح الشيخ يعقوب، ولم نر أثرًا لأشجار الأثل التي تحدث عنها الرحالون القدماء.

سرنا في الطريق الرئيسي الذي يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب، فوجدناه يعج بالناس من الذين يمثلون كل القبائل الحضرمية، ورأينا متاجر مختلفة من البهارات والحلوى والبلح والطباق الحمى والسمك المجفف والطازج وألوانًا من البضائع الهندية، تشبه المتاجر هناك المتاجر في باب الشعرية والموسكي بالقاهرة، وتنار بعض المنازل بالكهرباء، ومعظم الشوارع ضيقة جدًّا، وأزمة المساكن على أشدها، والمُكَلَّا على كبرها ووجاهة منازلها لا تعرف نظام المجاري، والفضلات تجمع في مخازن يكسحها أناس بالأجرة. وإذا عدنا بالسنين القهقرى أكثر من قرن نجد أن المُكَلَّا كانت

مرعى تنبت فيه أنواع من الكلأ تأكله الإبل والأغنام، وكانت تقوم هناك أكواخ الرعاة والصيادين وصغار التجار، ثم أخذت تنمو وتترعرع شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم، لقد ازدحمت بالسكان من الوطنيين والهنود والصومال.

وأنشئت المباني العالية، وهي وغيرها من مباني المدن بحضرموت أكثر شبهًا بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية. قال بودلي R.V.C. Bodley في كتابه (The Messenger): ووفدت الوفود من حضرموت، وهي دولة أخرى جنوبية لاعتناق الإسلام، وقد أرضى ذلك محمدًا أكثر مما أرضته معاهدته مع عُمان، وإن أهل حضرموت من جنس غني متحضر يعيش في مدن فخمة تطل على خليج عدن، وإن منازلهم يجب أن تكون أصل ناطحات السحاب الحديثة في العالم، وإن هندسة هذه المدن الآن ومن قرون قبل الآن أكثر شبهًا بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية. ويقول: كان أهل حضرموت رحالة وتجارًا عظامًا، وإن اعتناقهم الإسلام سيسبب انتشاره -كما قدر محمد- خارج جزيرة العرب، وإن هؤلاء النازلين في الدور المرتفعة قد حملوا الإسلام إلى الملايو وجاوة والفيلبين، ومن المحتمل أن أهل مورو في مندانا، وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسببهم، فإن الإسبانيين الذين كانوا أول من وضع الفيلبين على الخريطة كانوا يعتبرون كل مسلم (مورو)، وهذا الاسم مشتق من الاسم اللاتيني Uaurus ومعناه (مواطن) من دولة المغرب في شمال أفريقيا، فلما وجدوا أناسًا لهم نفس الشعائر الدينية التي لمسلمي البحر الأبيض قرر الإسبان أنهم جاءوا من نفس المكان وسموهم مورو.

لقد أصبحت مدينة المُكَلَّا مزدحمة بالسكان واستحكمت أزمة المساكن بصورة منقطعة النظير، وقد بدئ في إنشاء المباني في منطقة الشرج التي كانت إلى عهد غير بعيد مهجورة، ولا تزال هناك مساحات واسعة خالية من المباني، ولهذه المنطقة مستقبل عظيم لا سيما لو ردمت البقعة المنخفضة التي تفصلها عن المُكَلَّا وأزيحت كثبان الرمال التي تراكمت بين البحر والجبل، وستمتد المباني إلى ما بعد النقعة في المستقبل، وربما تنتقل رقابة التفتيش من باب المُكَلَّا إلى المنطقة التي بها مدرسة أبناء البادية أو إلى شمالها الشرقي، وسيكون من العبث بقاء الباب والسور.

ترحيب الوفود

وفي نفس اليوم الذي نزلنا فيه بمنزل السيد عبد الله أحمد الناخبي اليافعي مدير المعارف بالنيابة وقتئذٍ جاءنا معظم الشخصيات البارزة بالمُكَلَّا يهنئوننا بسلامة القدوم ووجوههم تطفح بالبشر والسرور، ولم يكن بيننا وبينهم سابق معرفة ما عدا صديقنا الوفي الشيخ محمد باجنيد أحد قضاة المُكَلَّا الأعلام، فقد عرفته حين كان طالبًا بالأزهر الشريف بمصر. أجل جميعهم سوى الشيخ باجنيد لم أتشرف بمعرفتهم من قبل؛ فقد غادرت حضرموت وأنا إذ ذاك في أوائل العقد الثاني من عمري، وغبت خمسًا وعشرين عامًا قضيتها في إندونيسيا ومصر؛ ولكن شعورهم الحي وإحساسهم الرقيق دفعاهم للترحيب بي بإخلاص وحب صادر من أعماق قلوبهم وقرارة نفوسهم، وأبى هؤلاء القوم إلا أن يعبروا عن عواطفهم الكريمة، فأقيمت لنا حفلات التكريم من جمعيات وأحزاب على اختلاف مشاربها ومبادئها، وأعظم تلك الحفلات حفلة التكريم التي قام بها أعيان يافع وشرَّفها بالحضور عظمة السلطان

صالح بن غالب القعيطي، وسعادة المستشار المستر شبرد، وصاحب العزة سكرتير الدولة الشيخ سيف بن علي، وعشرات من الوجهاء والأعيان.

في قصر السلطان

وفي المساء ذهبت بصحبة السيد عبد الله الناخبي إلى القصر، وتشرفنا بمقابلة عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي رأس الدولة القعيطية، وباعث النهضة الحضرمية وراعيها، وكانت هذه ثاني مرة أتشرف فيها بمقابلة جلالته؛ فالمرة الأولى كانت في مصر حين زارها قبل الحرب، وكنت وقتئذٍ طالبًا بكلية الآداب بالجامعة المصرية، تشرفت بمقابلة عظمته فخرجت من هذه المرة بشعور زادته الأيام رسوخًا، وهو أنه سلطان ذو قلب عظيم، وأن الله حباه بتلك القوة التي تجتذب القلوب إليه، وكنت بعد ذلك كلما تشرفت بلقاء جلالته أدهشني بطلاوة حديثه وعمق تفكيره وغزارة معلوماته سواء أكان ذلك في الشؤون الداخلية أم في الشؤون الخارجية، ورأيت صورًا جديدة لتلك القوة الإنسانية.

وعظمة السلطان صالح الحقيقية لا تتجلى بأجمل صورها إلا في المواقف غير الرسمية؛ لأنك تدرك عندئذٍ أن سجاياه التي يتحدثون عنها في المواقف الرسمية هي طبيعة فطر عليها، وهو يبهرك بتواضعه وتسامحه وبساطة معاملته فيمكنك أن تحظى بمقابلته ليلًا أو نهارًا، ويمكنك أن تتحدث مع عظمته وتنبسط في الكلام إلى أقصى حدود البساطة.

وقد يدعو جلالته إلى مائدته بعض الناس من الذين يعرفهم شخصيًا فيدور الحديث على شؤون شتى، وفي مثل هذه الجلسات البعيدة عن قيود الرسميات وتقاليد القصور تتجلى ديمقراطية جلالته بأجمل مظاهرها، ويتجلى معها مدى اطلاعه الواسع على شتى الأمور.

وعظمة السلطان صالح أولع بالميكانيكا منذ صغره، وهو بلا ريب من أمهر الميكانيكيين ولديه في قصره آلة سينمائية يديرها بنفسه ويدعو الناس لمشاهدة الأفلام العلمية في إحدى قاعات القصر.

وتسمع أن جلالته يعرف كثيرًا وتسمع من كبار الأجانب الذين يتشرفون بمقابلته أنه يبهرهم بحديثه ويدهشهم بمعلوماته. ولعظمته مؤلفات قيمة وهي:

١- مصادر الأحكام الشرعية، ٣ أجزاء، وقد طبع الأول والثاني منه.

٢- الآيات البينات.

٣- رحلة إلى دَوْعَن.

٤- الملاحة البحرية.

٥- رسالة في الهندسة.

٦- رسالة في الأصول.

ولجلالته شغف عظيم بالكتب، ومما ساعده على كثرة الاطلاع أنه سريع القراءة مع التيقظ التام لكل عبارة أو فقرة تستوقف النظر، وكانت لديه مكتبة فيها كتب قيمة قديمة وحديثة، دينية وفلسفية واجتماعية وأدبية وتاريخية وعلمية بالعربي والإنجليزي، وقد أراد ألا يحرم الشعب من الانتفاع بها فأهداها للمكتبة السلطانية بالمُكَلَّا، فأصبحت هذه المكتبة أعظم مكتبة في جنوب شبه الجزيرة العربية.

أما فيما يتعلق بحضرموت بالذات؛ فالحقيقة هي أن السلطان يعرف عنها أكثر جدًّا مما نظن، وهو محيط بشؤون البلاد والشعب أكثر جدًّا مما يتبادر إلى الذهن.

الرحلة إلى الشِّحْر والغيل

تفضل مولانا صاحب العظمة السلطان صالح واصطحبني فيمن اصطحب معه في رحلته إلى الغيل والشِّحْر، وفي اليوم الرابع من شوال سنة ١٣٦٦هـ ٢٣/ ٨/ ١٩٤٧م، وفي الساعة السادسة صباحًا بدأنا الرحيل من باب المدينة العظيم الارتفاع، وأمامه يقع وادي سديد حيث جرف البحر جانبًا عظيمًا من الأرض وأوغل في الرقعة فكوَّن ثغرة. هنا على الساحل كانت القوافل تحط رحالها في ذهابها وجيئتها من الداخل، وهنا شاهدنا جمعًا من الجمال جاثمة في هيئة دائرية تأكل الطعام الموضوع في الوسط وبينها بضع حمير، وينام البدو ملفوفين في معاطفهم أو يجلسون حول نار قليلة يأكلون في صحاف من الخشب الفتة المصنوعة من الخبز، وبعضهم يشغلهم عملية تحميل الدواب، وبعد أن توزن الأحمال بطريق رفعها، وبعد أن تقسم توضع فوق ظهور الدواب، وكان لهذا النوع من المواصلات رواج عظيم، أما اليوم فقد بدأ يتضاءل ويقل الإقبال عليه إلى حد كبير؛ لظهور السيارات العظيمة التي تخترق الوديان والجبال بين السواحل والمناطق الداخلية، وسيشتد التنافس بين الجمال والسيارات، وستكون الغلبة طبعًا للسيارات.

ويجمع الأطفال في سلال روث الجمال الذي يستفاد منه كوقود، وقد تسللت من أحدهم إلى أذني أغنية ذات نغمة حلوة ذكرتني بأغنية سمعتها من إحدى راعيات الغنم في الحوامدية حينما ذهبنا في رحلة مع طلبة المدرسة لزيارة هرم سقارة، ولم أتبين كلمات تلك الأغنية إذ كانت السيارة منطلقة بنا.

انطلقت بنا السيارة بمحاذاة حافة وادي سديد، حيث يمتلئ هنا بماء البحر، وعلى يسار الطريق على بعد بضعة أميال توجد أحراج من النخيل،

وبها مصايف السلطان وبعض سراة المُكَلَّا. وهناك نبع يحمل منه الماء إلى المُكَلَّا بطريق أنبوبة حديدية قليلة السمك، ممدودة على الأرض ليشرب أهل المدينة. وعلى سفح تل تقوم مدرسة بنات البادية، وسيأتي الكلام عنها فيما بعد، وعلى مقربة من هذه المدرسة يقوم السجن على ربوة عالية بجدرانه الناصعة البياض. ومررنا بثكنات لتدريب الجيش النظامي، وأخرى لتدريب جيش البادية، وبمدرستين: إحداهما لأبناء البادية، والأخرى لتعليم الأميين من الجنود القراءة والكتابة وشيئًا من التاريخ والجغرافيا، وكل ما يتعلق بواجبات الجنود والشرطة المسلحة.



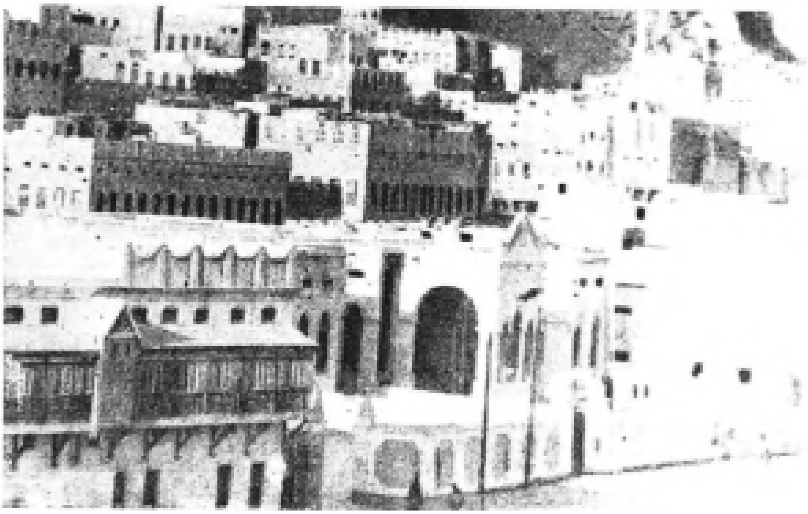
مدينة المُكَلَّا من البحر



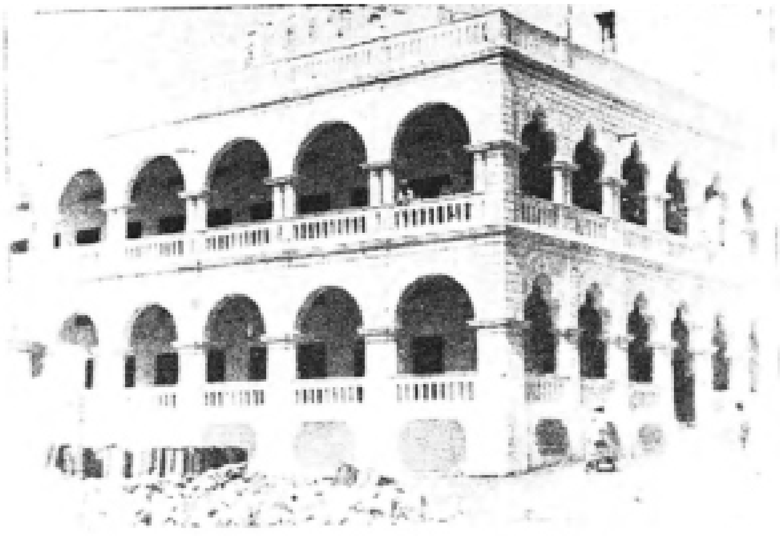
أحد شوارع المُكَلَّا



الشارع الرئيسي في المُكَلَّا



جانب من المُكَلَّا



دار سكرتارية الحكومة القعيطية بالمُكَلَّا

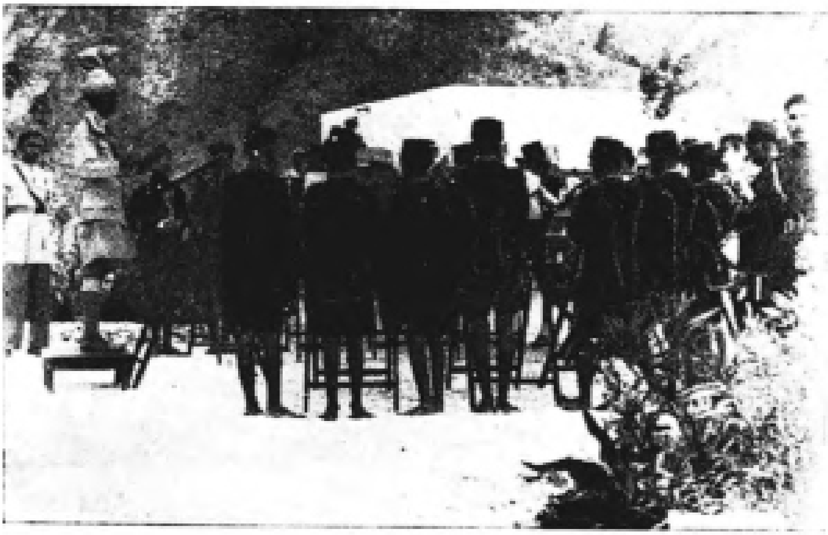


مجلس الدولة

ويرى في الوسط عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي وعلى يمين عظمته سعادة المستشار المقيم المستر شبرد وعلى شمال عظمته سعادة سكرتير الدولة الشيخ سيف



من مدفعية جيش الحكومة القعيطية بالمُكَلّا



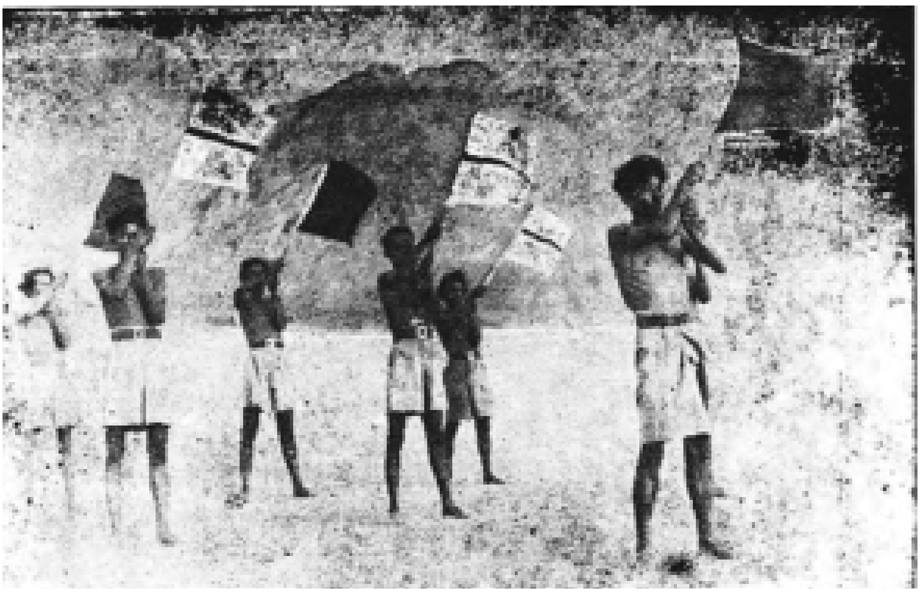
فرقة موسيقية جيش الحكومة القعيطية في المُكَلَّا



الجيش أمام القصر السلطاني



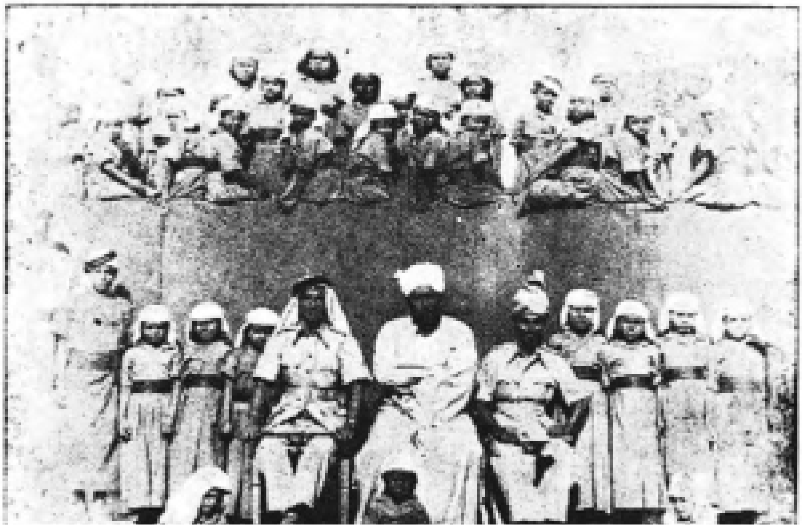
الجيش النظامي للحكومة القعيطية بالمُكَلَّا



فرقة التخاطب بالإشارات في جيش الحكومة القعيطية



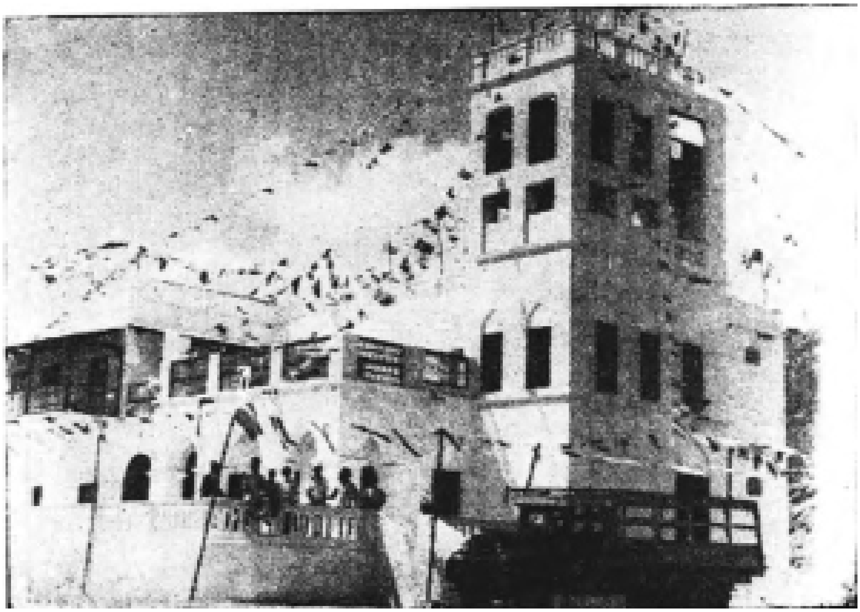
فرقة التخاطب بالإشارات في جيش الحكومة القعيطية بالمُكَلَّا



تلميذات مدرسة (بنات البادية) بالمُكَلَّا ويرى في الوسط مدير المعارف الشيخ القدال



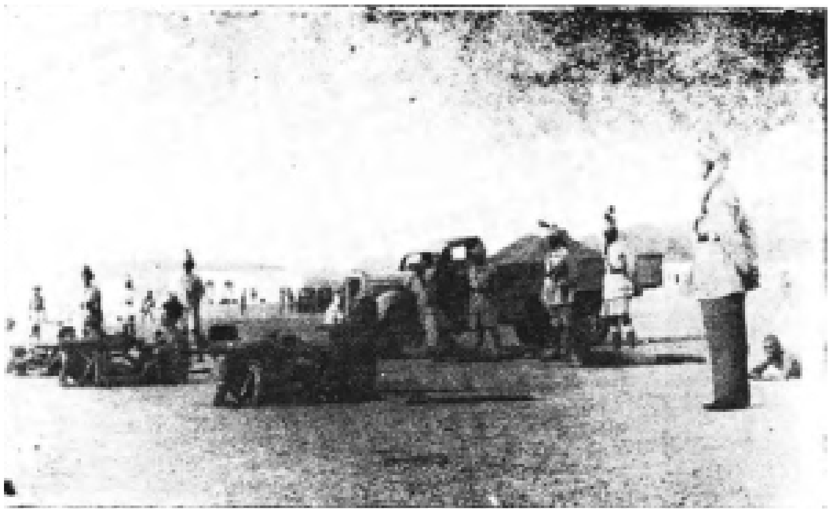
(نظام المشروع) في مدرسة (أبناء البادية) بالمُكَلَّا



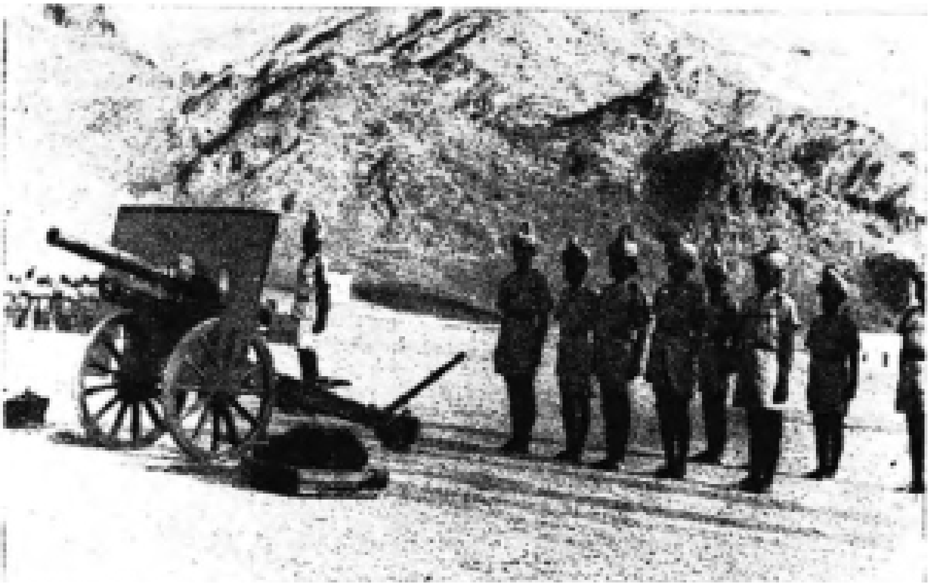
مصيف السلطان في الحَرْشِيَّات



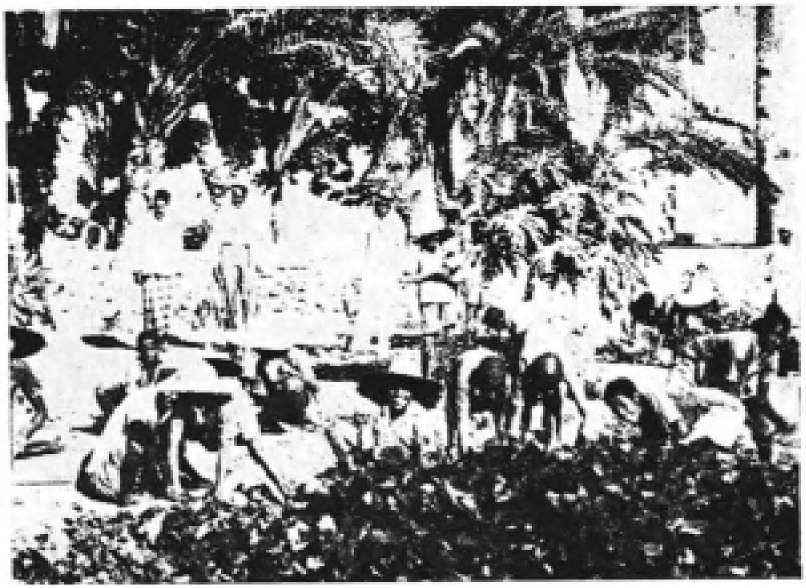
تلامذة المدرسة السلطانية الابتدائية بالمُكَلَّا



من مدفعية جيش الحكومة القعيطية بالمُكَلَّا



من مدفعية جيش الحكومة القعيطية بالمُكَلَّا



(نظام المشروع) في المدرسة الوسطى بغيل باوزير



فرقة الكشافة بالمدرسة الوسطى بغيل باوزير



تلامذة مدرسة (أبناء البادية) بالمُكَلَّا

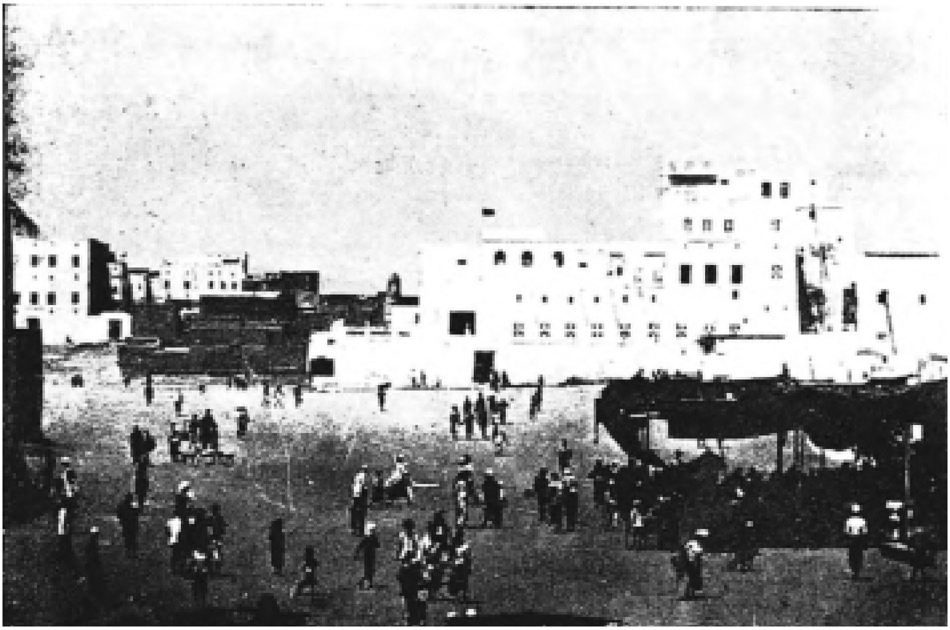
ويرى في الوسط مدير المعارف الشيخ القدال ومن حوله مدرسو المدرسة



قسم التطريز وتفصيل الملابس في مدرسة (بنات البادية) بالمُكَلَّا



البوليس المسلح في الشِّحْر



جانب من مدينة الشِّحْر

ويتدرج الطريق بين صخور منحدرة انحدارًا عنيفًا، وتلتوي حتى تصل إلى هضبة يبدو أنها من الحجر الجيري المرجاني، وتقوم هناك مجموعات من البيوت، أهمها قرية الحَرْشِيَّات، وبها أفخم مصيف جديد لعظمة السلطان، وغالبًا ما يقضي عظمته فيه يوم الجمعة من كل أسبوع، وهو يطلُّ على ثلاثة طرق رئيسية هامة، ولذا فموقعه الحربي هام جدًّا، وعلى مقربة منه يقوم حصن (خازوق) التاريخي حيث حدثت حوله معركة فاصلة بين يافع وآل كثير، وقد اهتم به المستر إنجرامس مستشار الحكومة القعيطية الأسبق، فرممه وطلى جدرانه من الخارج باللون الأحمر. وهناك حصون صغيرة قديمة مبنية من الطين النيء، قد تساقطت شبابيكها وبعض أبوابها تحت هجمات عوامل التعرية، وسيأتي يوم تصبح فيه أكوامًا من الرمل.

وتركنا منطقة المُكَلَّا الصخرية، وانحدر بنا الطريق إلى مدخل للبحر قد أوغل في اليابس، تقع عليه قرية بُوَيْش، ويزرع الموز في هذه الجهة في حافة الحقول، وفي الوادي الذي يدخل في البحر بالقرب من بُوَيْش توجد أشجار نخيل كثيرة، وأشجار فواكه أخرى ونباتات أخرى، يملكها بعض سراة المُكَلَّا، ولا يزيد عمق الآبار التي تروى منها الحقول هنا عن عشرين قدمًا. وأعلى الساحل بين بُوَيْش والمُكَلَّا تقع روكب المشهورة بكثرة الذباب. ويعلو الطريق ثانية، وتقع البصرة في أعلى هذا الوادي قليلًا. والمسطحات الجيرية المرجانية تمتد أعلى من مستوى الأرض حيث تنمو الشجيرات، وتغطي شجيرات البخور رقعًا واسعة أيضًا، وتمتاز هذه برائحتها النافذة وبأن لا أوراق لها أو بأن أوراقها صغيرة جدًّا، وتنمو بعض أشجار اللبخ الطويلة ذات الأزهار المستطيلة منتشرة هنا وهناك بين الشجيرات الحمراء التي تنمو في الأرض الصخرية العارية.

ومرت بنا السيارات على مقربة من مطار الريان، وفي حضرموت حوالي ثلاثة مطارات بناها السلاح الملكي الإنجليزي في الحرب العالمية الثانية، وهناك حراس مسلحون من يافع، يبلغ عددهم حوالي ثلاثين، وبئر يشرب منها موظفو المطار وحرسه.

وينحدر الممر إلى واد حيث يلتقي ويختلط ماء عذب من غيل باوزير وماء ملح من البحر، وتقع شُحَيْر على الشاطئ الآخر، ومنازلها صغيرة مبنية من الطين، وتقع دار الحكومة على تل مرتفع به جماعة من الحرس المسلح، وماء الشرب في هذه القرية ملح، وليس هناك ما يلفت الأنظار سوى منزل السيد صالح علي الخلاقي الذي يقع وسط حديقة غناء مليئة بأشجار الموز والتين

والليمون وجوز الهند، وتروى الحديقة من نبع غزير يقع على مقربة منها ينحدر ماؤه في قناة ويصب في حوض واسع، ومن هذا الحوض يسيل الماء في قنوات صغيرة إلى أنحاء الحديقة، وبداخل المنزل حوض صغير للسباحة. والسيد صالح علي الخلاقي كان ولا يزال يرافق السائحين الأجانب الذين يذهبون إلى حضرموت للبحث عن الآثار، ولذلك فقد اكتسب خبرة واسعة بالآثار القديمة ومناطقها وطريقة البحث عنها، ولديه مجموعة منها لا بأس بها، ولو كان احتفظ بكل ما عثر عليه من الآثار لأصبح لديه متحف أثري ثمين، ولكنه كان يهدي معظم ما يعثر عليه لأصدقائه من السائحين الإنجليز. وكان ياورًا للمرحوم السلطان عمر بن عوض القعيطي. وعند عودتنا من الشِّحْر للمرة الثالثة نزلت ضيفًا عليه وقضيت ليلتين في منزله الجميل استطعت في خلالهما أن أقرأ تاريخ (ابن حميد) كله؛ والكتاب مخطوط ونادر الوجود، وهو عبارة عن سجل لمجموعة من الحوادث وأنباء تاريخية، ويلاحظ أن النصف الثاني من الكتاب يختلف كل الاختلاف في أسلوبه ونظام وضعه، وفي طريقة عرض الحوادث التاريخية، ولذا فلا بد أن يكون هذا الجزء منسوبًا لابن حميد، وهو من وضع أحد الأشخاص الذين كانوا يتزلفون لسلاطين آل كثير ويتوددون إليهم بصبِّ التهم وخلق المفتريات على يافع، وكل من يقرأ هذا الجزء أو الثلث الأخير من الكتاب يلمس في كل جملة بل في كل كلمة حقدًا وبغضًا ليافع.

في الجنوب الشرقي لشُحَيْر ووراء الهضبات المرجانية على طول الساحل حوض واسع ضحل يمده بالماء مجرى ينبع من الجبال الواقعة خلف مسطحات الساحل، هذا الحوض والقطعة من الأرض الصالحة للري هما

أهم بقعة لزراعة الدخان الحمي، وهذا النوع من الطباق لا تجود زراعته إلا في الغيل حيث تلائمه التربة والمناخ ويتقن الناس زراعته، وقد حاول البعض زراعته في لحج واليمن، فلم يحصلوا إلا على نوع آخر أقل مرتبة من الحمي في نكهته، وفي الغيل يسمد الطباق ثلاث مرات بأسمدة مختلفة في كل وقت وبقدر محدود؛ ففي المرة الأولى يسمد ببراز الطيور، وفي الثانية بالسمك، وفي الثالثة بالمواد البرازية المختلفة من الإنسان والحيوان، ويُصدَّر معظم المحصول إلى عدن ومصر، ومنها إلى سوريا وأقاليم البحر الأحمر، وهم يحصلون على الأسمدة إما من الصومال أو بالقرب من بئر علي. والشجرة تجفف بورقها وساقها وفروعها ثم تقطع إلى شرائح صغيرة ثم تضم إلى بعضها في حزمات تزن الواحدة منها ٣٠٠ رطل، وهي حمولة جمل، وثمنها من ١٣٠ إلى ٢٠٠ربية.

وتقع مدينة الغيل التي تحمي مدخل هذا الوادي الخصيب في حافة الهضبة المرجانية، وحين يقترب المرء آتيًا من شُحَيْر أو من الشاطئ يبصر بجلاء حدائق النخيل وجوز الهند، وسرعان ما يجد المرء أمامه جدارًا عاليًا فيه بوابة كبيرة محصنة تغلق ليلًا، وبالقرب من البوابة ويسمونها (السدة) يقوم قصر السلطان الرازح الناهض إلى ارتفاع كبير، ويستعمل الدور الأول اليوم ثكنة للجنود، وفي الدور الثاني المدرسة الوسطى والمدرسة الابتدائية الحكوميتان.

وانطلقت بنا السيارات داخل شوارع الغيل الضيقة إلى المزارع الملكية بالقرب من المدينة، حيث يمتلك عظمة السلطان مساحات واسعة منها؛ وقد ابتنى لنفسه قصرين محوطين بحديقة جميلة للمصيف: أحدهما صغير للرجال، وهو الذي دخلناه والآخر كان يستعمل للحريم، وحينما دخلنا رأينا

أمامنا حديقة غناء، بها كل الفواكه التي تنمو في حضرموت، وظل أشجارها وارف، وقبالة القصر توجد بركة للعوم طولها ٣٠٠ قدم في عرضها، وعلى مقربة من صفحة مائها الرقراق جلسنا على كراسي وثيرة نأكل ما طاب ولذ من الفواكه، ونشرب ماء جوز الهند الطازج، وقد اندفعت أنا وصديقي السيد علي بن أبي بكر العطاس نعق منه في غير رحمة، وقد ذكرنا بجاوة فردوس الشرق، حيث تكثر غاباته وتجود زراعته، وأخذنا نتكلم بلغة الملايو.

وفي تلك اللحظة أخذت ديمقراطية جلالة السلطان تتجلى بأجمل مظاهرها، وأدركنا أنه إذا كان السلطان قد أعفانا من القيود الرسمية، فعلينا من ناحيتنا أن نتجنب كل ما من شأنه أن يذهب برونق الاستجمام الذي ينشده، وقد تبسط في الحديث وعلى الأخص مع السيد أحمد بن حسين العطاس منصب المَشْهَد الذي كان يضحكنا بظرفه وخفة روحه، ولا غرو إذا أحبه كل من عرفه، ويزيد ظرفه حينما يعاكسه صديقه السيد أحمد بن ناصر البطاطي اليافعي، وبعد أن تناولنا الغداء استأنفنا السفر إلى الشِّحْر، واندفعت بنا السيارة من باب الغيل في طريق غير ممهد، فقد اعترضتنا قنوات مليئة بالماء، وكانت السيارات تجتازها في شيء من الصعوبة، ويلاحظ أن الأراضي التي تقع بين الشِّحْر والغيل رخوة، ومعظمها صالح للزراعة.

وبالقرب من الشِّحْر رأينا صخورًا مرجانية ناتئة عن الرمال، وتقع الشِّحْر على سطح متسع من الشاطئ الذي ينحدر تدريجيًا إلى البحر، ولهذا ترسو السفن بعيدًا عنه لضحولته، وبالشاطئ كثبان رملية يبلغ ارتفاعها من ٢٠ إلى ٣٠ قدمًا، وفي أوقات المد يرتفع الماء حتى يجرف بعض هذه الكثبان.

وباب المدينة كبير، ولكن ليس به ذوق فني، ولما دخلنا فوجئنا برائحة كريهة ناجمة عن السمك المتعفن، ومررنا ببيوت غير مسكونة وبخرائب عديدة، وتقع أبنية الحكومة في أقصى الغرب وعليها مسحة من الرواء، ولا شك أن شرفاتها المسقوفة خير ما يلائم رطوبة الجو في الشِّحْر، وعلى مرتفع من الشاطئ تقع القلعة القديمة، وقد عملت بها إصلاحات حديثة، وفي الدور الأول بها مدرسة ابتدائية حكومية. وإلى الشرق يمتد سهل متسع به المقابر بقبابها الشاهقة ومساجدها العديدة.

ومن يلقي نظرة عامة على الشِّحْر يجدها صورة من صور القرون الغابرة، ولا شك أن انصراف الحكومة عن تعميرها وعدم اهتمامها بمستقبلها وإحجام الأهالي عن إصلاحها، كل ذلك أعظم سبب للحالة المحزنة التي صارت عليها. ومنذ عهود واغلة في القدم كانت الشِّحْر أكبر ميناء في جنوب الجزيرة العربية. ولما تولى عرش مصر سنوسرت الذي يدعى سيزوستريس احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر، وأرسل سفنه إلى جنوب الجزيرة العربية، فازدادت أهمية الشِّحْر وعظم مركزها الاقتصادي، ولما مات سيتي أهملت القناة، فانكمشت الملاحة، غير أنَّ هذه الحالة لم تستمر طويلًا، فقد جاء في التوراة كتاب الملوك، الأول، سفر ٤ إصحاح ٣٣ عدد ٣٥، ٣٦ أن ملك أورشليم سليمان أنشأ السفن في عصيون جابر على مقربة من أيلة (العقبة) من بلاد أدوم (إيدوميا) فانتعشت الشِّحْر بعد ذلك، وازداد نشاطها التجاري.

كان معظم الأهالي قد خرجوا لزيارة قبر ولي كما هي عادتهم في كل عام؛ ليؤدوا له تحية العيد وليستنزلوا بواسطته البركات، ولذلك لم يكن عدد المستقبلين كثيرين، وكان يجب أن يكون الاستقبال لصاحب الجلالة أعظم

من ذلك، وأروع منظرًا، وأشد حماسة، وأكثر تعظيمًا؛ لأنهم كانوا يعلمون كل العلم أن عظمة السلطان ما من شك قادم في ذلك اليوم، ولكن لسوء الحظ أن الخرافات لا تزال تهيمن على عقول كثير من الناس والعادات السيئة متغلغلة في نفوسهم.

وجوهر العلة في ذلك الجهل بحقيقة روح الإسلام وإساءة تطبيق تعاليمه، فالدين ينهانا عن التوسل بالقبور والأحجار والأشجار والرقى والتمائم.

نزلنا في القصر السلطاني وقد استقبلنا والي الشِّحْر السيد أحمد عمر باصرة، وهو على جانب عظيم من النشاط والذكاء وقوة الشخصية وكرم الأخلاق، وله في قلوب قبائل لواء الشِّحْر مقام كريم، وتستفيد الحكومة القعيطية من خدماته إلى حد كبير، ووقف أمام القصر ثلة من الجند وأدوا التحية لصاحب العظمة السلطان، وبعد فترة من الزمن جاء كثير من الأعيان للتشرف بزيارة صاحب العظمة، وامتلأ القصر على سعته بالزائرين.

وتاقت نفسي لمشاهدة أحياء المدينة وشوارعها ومنازلها ومتاجرها، وهمست بتلك الرغبة المكبوتة في أذن صديقي السيد علوي بن أبي بكر العطاس فخرجنا نجوب الشوارع والأزقة سيرًا على الأقدام، وقد بدأ الليل ينشر ظلامه على سماء الشِّحْر، ولكن ذلك لم يمنعنا من متابعة السير حتى إذا آن أوان العشاء عدنا إلى القصر فوجدنا القاعة مليئة بالزائرين، وقد أخذ كثير منهم يسألونني عن مركز مصر الأدبي والسياسي، ومكانتها في الشرق وعلى الأخص في الأقطار العربية، وما تبذله من جهود للوحدة العربية، وهي أسئلة قد ألقيت عليَّ من معظم المثقفين شيوخًا وشبانًا في المُكَلَّا، وفي كل حفل تكلمت فيه عن مصر وخدماتها العلمية للبلاد العربية، ولقد لاحظت أن لمصر

مكانة سامية في قلوب الحضارم ويتمنون أن تحقق جميع أمانيها وتنال مطالبها كاملة غير منقوصة.

بعد قليل أقبل عظمة السلطان من الجناح الخاص به إلى قاعة القصر فنهض الجميع تحية وإجلالًا، ولم يشأ عظمته أن يكون وجوده سببًا في تغيير شيء من برنامج السهرة وتقاليد العيد، فأخذ يتحدث مع الحاضرين بما عرف به من ديمقراطية، ويداعب منصب المَشْهَد السيد العطاس، وبعد تناول العشاء وقبيل أن تنتهي السهرة غادر السلطان القاعة فودعه الحاضرون وداعًا حافلًا، والحضارم جميعًا من أغنياء وفقراء كالهنود يفضلون تناول الطعام بأيديهم بعد غسلها ولا يستعملون الشوكة والسكين حتى في أفخر الولائم وأعظم الموائد، ولا يصح أن نعزو ذلك إلى تأخر أو جهل بضرورة استعمال هذه الأدوات، فقصور أمرائهم وبيوت أغنيائهم عامرة بمختلف أنواعها الفاخرة وإن لم يستعملوها، ولكنهم يأكلون بأيديهم؛ لأنهم يؤمنون بأنها طريقتهم الوطنية الشرقية، فلا يصح التخلي عنها من أجل عادات غربية تافهة في نظرهم.

وتدفع الحضارمة هذه الروح أيضًا إلى التمسك بزي خاص بسكان الجزء الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب: حضرموت، عدن، لحج، ويتكون من إزار يغطي نصف الجسم الأسفل، وسترة على قميص وعمامة وحذاء، ومن النادر أن ترى رجلًا يلبس الزي الإفرنجي، ولم يكن ظهوري بالزي الأوربي يثير شيئًا من الدهشة ما عدا في البوادي التي مررت بها.

والمرأة محتجبة لا ترى شيئًا من جسمها؛ لأنها عندما تخرج من منزلها تلبس جلبابًا أسود يغطي جسمها كله، وعلى وجهها نقاب شفاف، وفي بعض المناطق: كدَوْعَن وعَمْد ونهد تستعمل النساء البراقع، وتشبه البراقع التي تستعملها بعض النساء (البلديات) في مصر.

ويفضل الناس الجلوس على الأرض على فرش وثيرة، وسجاجيد فاخرة، ولكن في دوائر الحكومة يجلس الموظفون على الكراسي.

في صباح اليوم الثاني ذهبت أنا وبعض الأصدقاء لزيارة بعض الشخصيات البارزة أمثال السادة: عمر هرهرة، وناصر مخارش وغيرهم، وزرت المكتبة السلطانية التي أنشأها عظمة السلطان، وهي في أشد الحاجة إلى المساعدة الأدبية، وقد أهديتها نسخة من كتابي (تاريخ حضرموت السياسي).

حفلة أهل الشِّدْر

وأقام الأهالي على اختلاف طبقاتهم حفلة عظيمة أمام القصر تكريمًا لمولانا السلطان، وقد أقبلت الجماهير تتدفق على الميدان، حتى استحال على سعته كتلة بشرية واحدة حجبت أرضه عن الأنظار، ولما ضاق الميدان بجموع الشعب انتشرت في الشوارع المؤدية إليه والمتفرعة عليه، وبعد قليل أقبل السلطان، وما كادت الجماهير تبصره حتى تأججت نار حماستها، فإذا الميدان يتحول إلى عاصفة من التصفيق، وكان التصفيق مزيجًا من الدعاء والاغتباط والحماسة، فكان تصفيقًا ينفذ إلى القلوب قبل أن يصل إلى الآذان، وعلت زغاريد النساء على أنغام الجوقة الموسيقية، وأخذ السلطان يردّ لشعبه الوفي التحية برفع يده إلى رأسه تارة وبالتلويح تارة أخرى، وقد تجلت على وجهه المشرق أمارات الغبطة والسرور، وقامت فرقة من الجيش بتمرينات رياضية، واصطف تلاميذ المدارس في الميدان واشتركوا في تحية عظمته، وتكلم بعض الخطباء، وألقيت كلمة تناسب المقام.

حفلة الغيل

وفي صباح اليوم الثالث عدنا إلى غيل باوزير، ولم تكن حفلة أهل الغيل بأقل من حفلة الشِّحْر في روعتها وبهائها، وأبرز شيء فيها الألعاب الرياضية التي قام بها تلاميذ المدرسة الوسطى والمدرستان الابتدائيتان والتي حازت إعجاب جميع الحاضرين، وليس من شك أن الفضل في ذلك يعود إلى مدرسيهم الذين دربوهم على هذا اللون الرائع من ألوان النشاط المدرسي.

بعد انتهاء الحفلة عدنا إلى القصر السلطاني، وبعد المغرب جلسنا في شرفة القصر التي تطل على حوض السباحة نتمتع بسماع أنغام الجوقة الموسيقية تحت إشراف مديرها ومعلم الموسيقى الميجر السيد داسواندي خان، وكان عظمة السلطان يستمع إلى الأنغام بشغف واهتمام، ولا غرو فإنه من محبي الفنون الجميلة.

في صباح اليوم الثاني عدنا إلى المُكَلَّا، وكانت الرحلة ممتعة جدًّا، تركت في نفسي ذكريات حلوة لن تزول.

رحلة إلى رَيْدة الصَّيْعَر

طُلِب إليَّ مرافقة المستر برادلي الذي أتى من عدن للتفتيش على مدارس الحكومة القعيطية بالنيابة عن إدارة معارف عدن فقلت في نفسي: «هذا المسجد الذي نصلي فيه» و«حاجتين في جراب»، وهما من الأمثلة الحضرمية العامية: فالأول يقال للشيء الذي يأتي وفقًا لرغبة الإنسان، والثاني للحصول على فائدة مزدوجة فأنا بمرافقتي للمستر برادلي سأقف على سير التعليم وسآخذ فكرة واضحة عنه، وفي نفس الوقت أشاهد مُدُنًا لم أرها من قبل.

مكثت في المُكَلَّا أسبوعين في انتظار نائب معارف عدن، وفي خلال هذه المدة زرت دواوين الحكومة كالسكرتارية، والمستشارية، والمالية، والجمرك، والقضاء بنوعيه المدني والشرعي، والشرطة المسلحة، والجيش النظامي وغير النظامي، وجيش البادية، والسجن، والمستشفى، كما زرت إدارات الأحزاب، وغرفة المعلمين، والمدارس الحكومية والأهلية، ومدرستي بنات البادية وأولاد القرية، فشاهدت تقدمًا محسوسًا في أوضاع الحكومة وفي نظم أعمالها وفي سير التعليم وإقبال الشعب عليه، رأيت انقلابًا في تفكير الشبان والشيوخ، رأيت فيهم الأمل الباسم والجدة والنضارة والرغبة الملحة في تحصيل العلم.

ولقد أعجبت أيما إعجاب بالنشاط المدرسي في مدرسة بنات البادية، وبنظام المشروع بمدرسة أولاد القرية، فالتلميذات مع صغر سنهن يتقن التطريز والتفصيل والخياطة، وليس هذا فقط فقد اختبرتهن في القراءة والكتابة والقواعد فوجدت مستواهن العلمي مرضيًا، ولم يدر بخلد أحد أن تصبح تلك البدويات اللاتي ولدن بين الصخور وفي الكهوف وتحت أشجار النبق والنخل تلميذات مهذبات يلبسن الملابس النظيفة وينمن على فرش وثيرة، وفي غرف صحية، لم يطرأ على بال أحد أن تلك البنات اللاتي عشن في جو مكفهر بالجهالة والضلال وفي وسط معزول عن الدنيا لا يتصل بالعالم الخارجي كثيرًا ولا قليلًا يجلسن اليوم على مقاعد يتعلمن على أيدي مدرسات مثقفات ومدرسين مثقفين القراءة والكتابة واللغة العربية وقواعدها والأعمال اليدوية وشيئًا من علوم التاريخ والجغرافيا وقواعد الصحة والدين. وحبذا لو ترسل الحكومة القعيطية بعثة من خريجات مدرسة بنات البادية إلى مصر أو سوريا

أو العراق لمواصلة الدراسة الثانوية والعالية ليعملن بعد عودتهن لنهضة المرأة الحضرمية ويقمن بدور مجيد في الجهاد الأدبي والاجتماعي، وليس من شك أنهن سيتفوقن في كل شيء على بنات المدن اللاتي يحول الحجاب دون التحاقهن بالمعاهد العلمية.

والقوم بالغوا في الحجاب، فقد شاهدت بنات محتجبات وهن دون العاشرة من عمرهن، وبالطبع لم أتمكن من زيارة مدرستي البنات في المُكَلَّا وسَيْئون ولم أحاول زيارتهما؛ لأني أعلم أن التقاليد تحول دون ذلك، وهم يعتقدون أن المبالغة في الحجاب تحفظ أخلاق المرأة من التحلل والانهيار وتمنعها من الانزلاق في مهاوي الفساد، والحق أن الحجاب لا يحول دون تسرب الرذائل إلى البيوت مهما بالغوا فيه وتمسكوا به كل التمسك، وإنما الذي يمنع التحلل الخلقي هو التربية المنزلية، فالآباء والأمهات هم الذين يغرسون الأخلاق الكريمة وينمون الصفات الحميدة في أولادهم؛ فالمنزل هو المدرسة الأولى التي يتعلم الطفل فيها الأخلاق الكريمة أو السيئة، وهو كالإناء ينضح بما فيه، لست من دعاة السفور ولن أكون يومًا من أنصاره، ولكني أحب الاعتدال، والإسلام منحنا من الشرائع الرشيدة ما يكفل لنا العدالة والرقي والفلاح، الإسلام اعترف بمقام المرأة في المجتمع ومنحها من حقوق التعلم والتعليم والتجارة والزراعة والصناعة ما يرفعها فوق هامات الأخريات، ولكننا لسوء الحظ أغمضنا عيوننا عن هذا الخير العميم واستعضنا عن الجوهر بالعرض وشغلتنا المظاهر والتمسك بالأعراض عن واجبنا الحقيقي الذي يمليه علينا روح الدين.

الرحيل

في صباح اليوم العاشر من سبتمبر انطلقت بنا السيارة بين الوهاد والجبال والتلال وكان السيد برادلي كثير الصمت قليل الكلام هادئًا رزينًا نشيطًا، وهي صفات حميدة تظهر بوضوح في الإنجليز أكثر من غيرهم من الشعوب. أما السيد عبد الله الناخبي فمحب للحركة والنشاط والكلام، يندفع إلى العمل كل الاندفاع، وقد يرهق نفسه بالأعمال من غير رحمة، وهو علاوة على إشرافه على إدارة التعليم بالنيابة يشرف على إدارة المكتبة السلطانية، وليس هذا فقط، فهو عضو في جمعيات كثيرة، ويكاد لا يمر يوم دون أن يحضر اجتماعًا.

وصلنا شُحَيْر وذهبنا إلى دار السيد صالح الخلاقي اليافعي، وشاهدنا مجموعة من الآثار القديمة، وهي ألواح من الصخر الجيري ومن الرخام عليها كتابات حميرية. وفي الساعة العاشرة زرنا مدرسة شُحَيْر الابتدائية الحكومية، وتتكون من أربعة فصول وبها مدرسان.

المدرسة الوسطى

واستأنفنا سيرنا إلى الغيل، وذهبنا رأسًا إلى المدرسة الوسطى، فاستقبلنا الناظر والمدرسون بكل حفاوة، وبعد فترة من الزمن شربنا فيها الشاي، واطلعنا على برنامج التعليم وجدول الحصص، وزرنا بعض الفرق، وشاهدنا المدرسين السودانيين والحضارم يلقون دروسهم على التلاميذ بكل نشاط وإخلاص. وطريقة تدريس اللغة الإنجليزية من أحدث الطرق، ولذلك فتقدم التلاميذ في هذه المادة ظاهر بشكل محسوس. وقابلنا الشاب النابه السيد عثمان بن شملان التميمي، وهو من أعضاء أسرة المدرسة، ويقوم بقسط وافر من أعمال المدرسة الإدارية، وكان من أحسن تلامذتنا في مدرسة الإرشاد بمدينة سرابايا بجاوة.

وفي المساء شاهدنا معرض الأعمال اليدوية للتلاميذ ومتحف الجغرافيا، وزرنا جمعياتهم على اختلاف أنواعها. وخلف المدرسة بستان واسع به مساحات من الأرض الزراعية، وفي هذا البستان يقوم التلاميذ في أوقات فراغهم بتطبيق نظام المشروع، فهناك يقوم التلاميذ بحرث الأرض وزراعتها ويتعهدونها بالري، ويلاحظون بأنفسهم الفروق الموجودة بين النباتات، ويشاهدون أنواع الخضروات والفواكه ويتعرفون أسماءها وخصائصها، ويجنون ثمار ما زرعوه ثم يتولون بيع المحصول، وتتوزع الأعمال بنظام دقيق تحت إشراف إدارة من التلاميذ مكوَّنة من: رئيس وسكرتير وأمين الصندوق ومستشارين، ولقد حضرنا اجتماعًا للتلاميذ استغرق أكثر من ساعتين، وكان النقاش شديدًا جدًّا حول القرارات التي وافق عليها معظم الأعضاء، وكان النظام يسود الجميع، وقد أعجبنا بهم أيما إعجاب، والحق أن النشاط المدرسي في مدارس الغيل وعلى الأخص في المدرسة الوسطى على خير ما يرام؛ فمن أشغال يدوية مدهشة، إلى كشافة منظمة، وفلاحة بساتين، وتربية دواجن، وإصدار نشرة بخط أيديهم، وأهم ما يزرعونه: السمسم، والبرسيم، والحناء، والورد، والباباي، والموز.

وليس من شك أن المدرسة الحديثة هي إعداد للحياة، والحياة هي التي تعلم الحياة، ولقد سمى الدكتور دكرولي مدرسته في بروكسل (L` Ecole pour la vie par la vie)[1].

تقوم المدارس الحديثة في البلدان الراقية بنوعين من النشاط في خارج المدرسة وفي داخلها: ففي خارج المدرسة يقوم التلاميذ برحلات وزيارات

(١) Hamicde: La Methode Decroly.

للمعامل، والورش، والمحلات التجارية، وشركات المياه والكهرباء، والتليفونات، والسكك الحديدية، والمستشفيات، والآثار التاريخية، والمتاحف، والمناظر الجغرافية والطبيعة، بما فيها من نبات وحيوانات. وفي داخلها يقوم التلاميذ بأنواع مختلفة من النشاط: كاللعب، والتمثيل، والأشغال اليدوية، وفلاحة البساتين، وتربية الحيوانات.. إلخ.

هذه الثورة في التربية غيَّرت نظام المدرسة من أساسه؛ فالفصول التقليدية ذات التخت المصفوفة، والتي كانت ملائمة للتعليم السمعي الذي لا يتطلب الحركة والنشاط أصبحت الآن غير ملائمة للتعليم عن طريق النشاط؛ لأنه يتطلب العمل والحركة واستعمال الآلات والمواد التي تتطلب أمكنة واسعة، لذلك نرى أن المدرسة الحديثة تستبدل بالفصول التقليدية المعامل، والورش، والمتاحف، والمكاتب، والملاعب، والحدائق، وحظائر الحيوانات.

في المدارس الحديثة، وخاصة مدارس دكرولي، والمدارس الأمريكية الحديثة مثل مدرسة السيدة جونسون في قرية Fairhope في Alabama، والمدرسة الأولية بجامعة Missuuri في كولومبيان يدرسون الطبيعة Nature Study بواسطة الملاحظة خارج المدرسة وداخلها. فيذهب التلاميذ إلى الحقول والغابات، ويشاهدون النباتات والحيوانات بأنفسهم، وقد يستعملون الكتب للوقوف على ما أشكل عليهم فهمه، ثم يكتب كل منهم ملاحظاته، وبذلك يقترن درس التاريخ بدرس الكتابة والإنشاء. ويقوم الأطفال بزراعة بعض النباتات في حديقة المدرسة، ويلاحظون بأنفسهم هذه النباتات في أطوار نموها، كذلك يقومون بتربية بعض الحيوانات والطيور في حظائر المدرسة، ويلاحظونها يوميًا، ويلاحظون الجو وتغير الفصول وأثر ذلك في النباتات والحيوانات.

وطريقة الملاحظة تستعمل إلى حد كبير في تدريس الجغرافيا؛ فالتلاميذ يشاهدون أكبر مقدار من المناظر الجغرافية: كالأنهار والبحيرات والبحار، والجبال والسهول والوديان، وشروق الشمس وغروبها، وكذلك يشاهدون البلاد ومراكز الصناعة والتجارة والمعامل والجمارك.. إلخ.

التمثيل

وهو من أهم أنواع النشاط المدرسي في المدرسة الحديثة، وأحسن وسيلة لتدريس التاريخ واللغة وآدابها، بشرط أن لا يمثل التلاميذ قصة معدة على مسرح معد بملابس مستأجرة، بل يكون كل شيء من عمل التلاميذ أنفسهم، وتكون القطعة التمثيلية دائرة حول شخصية تاريخية.

ومدرسة (فرنسيس باركر) من المدارس التي تستخدم التمثيل في تدريس التاريخ، فتلاميذ السنة الرابعة يدرسون تاريخ اليونان، يبنون بيوتًا على الطراز اليوناني، ويفصلون ملابس يونانية ويلبسونها في الفصل، ويصنعون تماثيل لآلهة اليونان، ويمثلون موقعة تروادة أو أي قطعة من تاريخ اليونان[1]، وبهذه الطريقة تكون الحوادث التاريخية التي يمثلونها كأنها جزء من حياتهم؛ لأنها أصبحت كأنها من تجاربهم، فتصير غير قابلة للنسيان.

والتعليم بواسطة التمثيل له قيمة اجتماعية؛ لأن المدرسة من الكتاب هي عمل فردي وغير اجتماعي، أما قيام الفصل بتمثيل أي شيء، فهو عمل اجتماعي ومظهر من مظاهر التعاون، والتمثيل يحتاج إلى إجادة النطق، وعلى ذلك فتمثيل التاريخ ذو فائدة من جهة اللغة.

---

(١) Dewey: Schools of Tomorrow p. ١٢٤.

والتمثيل يمكن أن يستعمل في درس المطالعة للمبتدئين، فيقوم كل طفل بقراءة جزء خاص من القطعة أو القصة عن لسان شخص معين أو حيوان معين، وتمثيل القطعة على هذا النحو يسهل فهمها ويساعد الأطفال على إجادة النطق.

الأشغال

وهناك نوع ثالث من النشاط في المدرسة الحديثة، وهو الأشغال اليدوية: كالنجارة، والصلصال، والقش، والنسيج، والمصنوعات الجلدية، والحياكة، والتطريز، وهذه يتعلمها التلاميذ في ورش خاصة، والعادة أن تكون لتلك الأعمال أوقات معينة، ولكن للتلاميذ الحرية بعد ذلك في دخول هذه الورش في أوقات الفراغ. وهذه الأشغال اليدوية ذات فوائد عظيمة فهي:

١- خير وسيلة للتوجيه المهني للتلميذ؛ لأنها تكشف عن قدراته، وتظهر ميوله[١].

٢- تزيد معرفة الطفل بالمواد وخصائصها.

٣- تفيده من الوجهة الصناعية.

٤- يستفيد خبرة بآلات العمل.

٥- يستفيد اقتصاديًا، إذ يقوم بنفسه بعمل بعض الأشياء اللازمة للمنزل.

٦- يستفيد من الوجهة العقلية كدقة الملاحظة والتخيل.

ومن وسائل التعليم عن طريق النشاط، تعليم الحساب بواسطة أشياء شخصية كالزراير والنقود والقطع الخشبية، فهذه الأشياء يمسكها الأطفال بأيديهم.

---

(١) Ecole Active P،Ferrlere: l. ٧١ - ٧٢.

وفي كثير من المدارس وخصوصًا المدارس الأمريكية الحديثة، لا تدرس اللغة القومية كمادة منفصلة في حصص خاصة، بل يتعلم التلاميذ اللغة من: كتابة وقواعد وإنشاء وإملاء عن طريق النشاط المدرسي مثل كتابة تقريرات عن رحلات أو ملاحظات خاصة.

مزايا التعليم عن طريق النشاط

يقول Binet: «الطفل لا يعرف إلا ما يعمله» والتلاميذ الذين يعملون شيئًا بأنفسهم يقدرون نتيجته، والتعليم عن طريق النشاط لا يعتمد على الذاكرة وحدها بل على العضلات والنظر والسمع واللمس، وكل العمليات العقلية مجتمعة، والتلاميذ في عملهم لا يعتمدون على باعث خاص مثل: المكافأة أو الدرجة، بل يعملون حبًا في العمل، والتعليم بالعمل تصحبه الفضائل الإيجابية مثل: النشاط والابتكار، وما دام الأطفال لا يعملون لأجل مكافآت، فمحاولة الغش تقل إلى أدنى حد ممكن[١].

وأخيرًا: فالتعليم عن طريق النشاط مفيد من الوجهة البيولوجية في نمو الأجسام وتقوية العضلات، فالطفل في حاجة إلى تحريك عضلاته واستخدامها لتكون أعظم قوة وأكثر مرونة.

مدرسة القارة

ذهبنا إلى القارة وهي قرية صغيرة على مقربة من الغيل، وزرنا مدرستها، ثم عدنا إلى الغيل لزيارة المدرستين الابتدائيتين، وبعد أن شاهدنا التلاميذ في الفصول، ورأينا المدرسين يلقون دروسهم، ذهبنا إلى منزل المعلمين لتناول

(١) Dewey: Schools of Tomorrow

الغداء، وفي المساء أقام لنا نادي المعلمين حفلة تكريم حضرها كثير من أهالي الغيل، وألقيت فيها خطب تناسب المقام.

ومدينة الغيل مع صغرها بها مدرستان ابتدائيتان ومدرسة وسطى، وهي المدرسة الوحيدة بحضرموت، وهناك معهد ديني لا يزال يسير على أوضاعه القديمة، وقد تخرَّج منه عدد من علماء الدين؛ ولعل الغرض من اختيار الغيل مقرًا للمدرسة الوسطى إقصاء تلامذتها وهم في سن المراهقة من مفاسد المدن ومباهجها، وهم في القسم الداخلي يراقبون مراقبة دقيقة، ويوجهون توجيهًا حسنًا، ويعلمونهم كيف يحافظون على الشعائر الدينية، ولقد أحسنت الحكومة كل الإحسان حيث جعلت الدين مادة أساسية في المنهج.

وقد صرحت الحكومة الإنجليزية في مجلس البرلمان أنها تعتزم الاهتمام بالتعليم الديني نتيجة لمطالبة اللوردات في مجلسهم بجعل الدين مادة أساسية لا مادة إضافية، في منهاج مزدحم. وجاء في الكتاب الأبيض الذي أعدته الحكومة نفسها عن التعليم وسياسته العامة وعرضته على البرلمان الإنجليزي وناقشه البرلمان في أواخر يوليو وأغسطس سنة ١٩٤٢م أنه لا بد من الاعتراف بالمكان الخاص بالتعليم الديني في الحياة المدرسية، وأنه يجب أن يكون له مكان أظهر وأبرز في حياة المدرسة وعملها كما يجب أن يعنى بالتعبدات العملية.

وما أولى حضرموت بأن تحذو هذا الحذو فتهتم بتعليم الدين وبالعبادات العملية في مدارسها.

والأديان السماوية -الإسلام والمسيحية واليهودية- إنما نزلت لتدعيم الحياة الإنسانية وترسيخ نظامها الكفيل لها بالبقاء، والنمو والسعادة الكاملة.

والإسلام خاصة قامت أسسه لتنظيم الإنسانية وإسعاد البشر؛ ولهذا نجد أن العرب كانوا في صحاري بلاد العرب سادرين في الجاهلية الأولى، فلما أشرقت عليهم أنوار الإسلام انتقلوا من الهمجية إلى حياة سعيدة حافلة بكل أسباب الكمال والنظام؛ فتيسرت لهم الفتوحات ودانت لهم الفرس والروم، وأقاموا إمبراطورية سامية الذرى؛ ذلك لأن الدين ورَّثهم أخلاقًا كريمة، ونفوسًا صالحة، وأحلامًا راجحة، والحضارات الإسلامية التي يفتخر بها التاريخ إنما كانت عناصرها وقوامها النظم الدينية، فلما تهاون المسلمون بتعاليم الدين، واستخفوا بأسسه وقواعده، وغفلوا عن روح الإسلام، تفككت أربطتهم، وانهار ملكهم، وذهبت ريحهم، فأصبحوا نهبًا مقسمًا للمستعمرين.

إننا إذا أردنا لأولادنا الصلاح والتقدم في حاضرهم ومستقبلهم، وجب علينا أن نطبعهم على مبادئ الدين الأولى، وأن نجعل لهم كتاب الله دستورًا يسيرون على نهجه، وأن نلقنهم في أول نشأتهم سير أبطال الإسلام، كما يجب أن ننشئهم على أمهات الفضائل والأخلاق الكريمة: كالتضحية، والإيثار، والنجدة، والوقار، والسماحة، والجود، والدفاع عن حومة الوطن.

ونحن أمة بدائية أو في فترة الانتقال، فخليق بنا أن نكوِّن جيلنا تكوينًا قويًا لا طراوة فيه ولا نعومة، يجب أن يكون جيلًا خشنًا يزدان بالرجولة، وتتوافر لديه الشجاعة والفروسية، ونزوِّده بالأسلحة التي يخوض بها المعركة في ميادين الحياة، وننظم حياته بين الدراسات العلمية والعملية: من رياضة بدنية، إلى تدريب على تحمل أعباء الحياة، والقدرة على الاضطلاع بالواجب نحو الإنسانية في محيطها الواسع.

في الشِّحْر

وبعد يومين قضيناها في الغيل سافرنا إلى الشِّحْر وزرنا مدرسة (مكارم الأخلاق)، وتعتبر أكبر مدرسة في الشِّحْر، إذ يبلغ عدد تلاميذها ٢٥٠ تلميذًا موزعون على سبعة فصول، يتولى تعليمهم سبعة من المدرسين، ومعظم الفصول صحية، ولكن تنقصها الأدوات، والنظافة، والإدارة الحازمة، والمعلمون الأكفاء، ومستواها العلمي ليس بأحسن من مستوى مدارس الشَّرْج والقارة وقُصَيْعَر، وكانت أهلية ثم ضمت إلى الحكومة.

المدرسة الغربية: وتقع على مقربة من القصر السلطاني، وتتكون من أربعة فصول، وأربعة مدرسين نشطين يحاولون بكل ما لديهم من مقدرة تطبيق روح التجديد في التعليم.

في الحامي

بعد أن تناولنا الغداء في منزل السيد أحمد بن عمر باصرّة نائب الشِّحْر غادرنا المدينة في طريقنا إلى الحامي، وانطلقت بنا السيارة بالرغم من التلال والهضاب، وبعد ساعة ظهرت ديار الحامي، وقبيل دخولنا المدينة فوجئنا بروائح السمك تنبعث بشدة من معامل استخراج الزيت من السمك الذي يقال له (العيد) وهذه المعامل بدائية؛ فهي عبارة عن أحواض صغيرة بها أحجار يوضع عليها السمك ويعرَّض لحرارة الشمس فتذوب فيه المواد الدهنية وينزل الزيت مختلطًا بالدم ويتجمع في الأحواض ويرسب الدم ويبقى الزيت طافيًا، وبعد أن يصفَّى يوضع في براميل، ثم يوضع في صفائح، ويقدر ما يستخرج من الزيت سنويًا من ٧٥- ١٠٠ ألف صفيحة، ويتراوح ثمن الصفيحة بين سبع ربيات إلى عشرة، وتباع منه مقادير كبيرة في مصوع والكويت وعدن

والبصرة، ويكثر صيد هذا النوع من السمك في أكتوبر ونوفمبر وديسمبر إلى حوالي منتصف يناير، وبعد ذلك يظهر هذا السمك خاليًا من المادة الدهنية، ولكنه يستخدم في تسميد الأرض، وتستخرج أنواع أخرى من السمك وأهمها (كلب البحر) يجفف ويملح ويرسل إلى عدن وسواحل أفريقيا الشرقية، وتأخذ الحكومة القعيطية ١٥٪ من ثمن الصادرات من الزيت، و٢٠٪ من ثمن السمك الذي يستعمل للسماد.

وتقع الحامي على البحر ومنازلها متواضعة، وعدد سكانها لا يزيد عن أربعة آلاف، وخلفها بساتين النخل وحقول الذرة والبرسيم والسمسم، ترويها قنوات تستمد ماءها من ٢٤ عينًا تتفجر من الجبل الجيري الواقع في الشمال الشرقي للمدينة، ومياهها ساخنة تنبعث منها رائحة الكبريت ولكنها لا تضر بالزرع.

نزلنا في قصر الحكومة واستقبلنا قائم الحامي السيد بدر بن أحمد الكسادي، وبعد أن أخذنا قسطنا من الراحة خرجنا لنشاهد المدينة ومزارعها، ومررنا على مبنى المدرسة الجديد الذي أنشأته الحكومة، وتناولنا العشاء وقضينا ليلة في ضيافة السادة آل الكسادي.

في الدِّيْس

وفي الساعة العاشرة، وبعد أن زرنا المدرسة قامت بنا السيارة، وبعد ساعة وصلنا الدِّيْس، وتقع على هضبة مرتفعة، وهواؤها معتدل جاف، وخلف المدينة غابات النخيل وحقول السمسم والذرة ترويها ٢٥ عينًا جارية طول العام، زرنا مدرسة الدِّيْس، وتتكون من أربعة فصول، وبها ١٦٠ تلميذًا، وثلاثة مدرسين، واختبرنا التلاميذ في بعض المواد فوجدنا مستواهم العلمي حسنًا.

ومما هو جدير بالذكر نظافة التلاميذ، وإقبالهم الشديد على التعلم، ونسبة ذكائهم تفوق نسب تلامذة كل المدارس التي زرناها، ومما يؤاخذ عليه قلة اهتمام المدرسة بالنشاط المدرسي.

وبعد زيارتنا للمدرسة ذهبنا إلى منزل قائم الدِّيْس السيد حسين مخارش، فاحتفى بنا كثيرًا.

في الرَّيْدَة

وبعد تناول الغداء استأنفنا السفر إلى الرَّيْدَة، واصطحبنا القائم نفسه، والطريق ممهد، ولكنه كثير التعاريج والمنحدرات؛ لكثرة التلال والجبال والوديان ومجاري المياه، ومما يلفت الأنظار وجود جبال بها صخور السليكا البيضاء، وتظهر كأنها ألواح من الزجاج متناثرة على السفوح والمنحدرات، واخترقنا وادي (عسِد)، وهو وادٍ طويل عميق تحيط به جبال طاعنات في السماء، وفي هذا الوادي رأينا أسرابًا من الظباء تمرح بمنتهى الحرية بين أشجار السمر والأراك ونباتات البخور، وكان هذا الوادي من أشد المناطق خطرًا على الأموال والأرواح، فحوادث السلب والنهب والقتل كانت لا تنقطع ليلًا ونهارًا.

أما اليوم فقد انتشر الأمن في أرجائه؛ يسير فيه الإنسان وحيدًا بالليل والنهار، فلا يعتدي عليه أحد ولا يمسسه سوء، وقد قابلنا قافلة محملة بالحبوب والبلح، يقودها ثلاثة عزل من السلاح، وفي إحدى أوديته قابلنا شخصًا يسير على قدميه وعلى ظهره صُرة، وكان يغني أغنية شعبية ترددها بطون الجبال، فقلت في نفسي: هكذا يكون الأمن وإلا فلا.

بالأمس ومنذ عشر سنين كان الإنسان لا يأمن على روحه وماله حين يغادر المُكَلَّا وحيدًا إلى الحَرْشِيَّات، أو حين يخرج من مدينة سَيْئون في طريقه إلى إحدى القرى المجاورة لها، أما اليوم فاذهب أنى شئت واقطع الفيافي والقفار والجبال والوديان فلا يمسك أحد بسوء، ولم تشاهد حضرموت في تاريخها سلامًا كهذا، ولم يتمتع الحضرمي بأمن كما يتمتع به اليوم في عهد صاحب الجلالة السلطان صالح بن غالب القعيطي حفظه الله للوطن ذخرًا وملاذًا.

بعد ساعة شاهدنا هضبة سوداء تظهر من بعيد كأنها غابة وسط تلك المرتفعات الماحلة، وعندما جئناها وجدناها تلالًا من صخور بركانية سوداء، تشبه قطرانًا تجمد أثناء تدفقه، وفي هذه المنطقة تقوم قرية (عِسِد الفاية) وهي مجموعة من أكواخ واطئة لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أمتار، ولم نر بها سوى نساء وأطفال، أما الرجال فقد هاجروا إلى عدن وغيرها من موانئ جنوب الجزيرة العربية لطلب الرزق، ولا يعودون إلى قريتهم إلا في أوائل الشتاء حيث يكثر ظهور سمك (العيد)، وعندما يقل ظهوره في أواخر يناير ينزحون إلى مهاجرهم، وبعد ساعتين دخلنا منطقة مسطحة ليس بها جبال ولا تلال، وعلى الجانب الغربي منها تقوم بلدة قُصَيْعَر بمينائها الصغير، وفي الجانب الشرقي بلدة الرَّيْدَة، والمسافة بين البلدتين ليست بعيدة.

دخلنا الرَّيْدَة واخترقنا شوارعها الضيقة المليئة بالرمال، وفي الجانب الشرقي منها حقول الذرة والسمسم والبلح ترويها مياه الآبار، وكل الأراضي التي تحيط بها رملية صالحة، ولا تبعد مياه الآبار عن سطح الأرض أكثر من ستة أمتار، ولريدة ابن عبد الودود ميناء صغير ترسو فيه المراكب الشراعية.

نزلنا في دار قائم الرَّيْدَة السيد عبد الله عوض مخارش، وهو من أكثر الرجال خبرة بشؤون قبائل البادية، فقد عاش بينهم أكثر من ثلاثين سنة، وله نفوذ واسع عليهم ويُكِنُّون في قلوبهم من الاحترام له شيئًا كثيرًا.

ولد بمدينة شِبَام سنة ١٣٠٦هـ، وسافر إلى جاوة وهو صغير، وفي سنة ١٩٠٧م عاد من جاوة إلى حضرموت وأقام في الرَّيْدَة وكانت تابعة لقُصَيْعَر، وفي سنة ١٣٣٤هـ عُيِّن قائمًا بها، ويخضع لنفوذه في مناطق الرَّيْدَة نحو ١٧ قبيلة، وهي قبائل كِثِيرِي، وثِعْيَنْ، ومِنْهَالِي، وغيرهم. وأهم المناطق التابعة للرَّيْدَة (شَخَاوِي) وبها قبيلة ثِعْيَن، وبها غابة من النخيل ترويها ست عيون يتدفع منها الماء طول العام. و(بَدَشْ) بها نخل كثير، وثمان عيون جارية، وفيها تسكن قبيلة قراد. و(عُمْقُرْ) بها منازل قبيلة رَوِيكَه، وهم فخذ من آل يزيد اليافعيين، جاءوها واستقروا فيها قبل نزوح يافع من اليمن إلى حضرموت، وبهذه القرية نخل ومساحات من الأرض الزراعية ترويها ثلاث عيون. وقرية (معيان موايب) لآل باكريت.

ويبلغ عدد سكان الرَّيْدَة ألف نسمة، وبها مسجدان، ويبلغ سكان جميع المناطق الخاضعة للرَّيْدَة نحو ثمانية آلاف نسمة.

في صباح اليوم الثاني زرنا مدرسة الرَّيْدَة واختبرنا تلامذة السنة الرابعة، ومما هو جدير بالذكر أن كثيرًا من التلاميذ من أبناء البادية بعضهم أبناء شيوخ القبائل، وهي سياسة محمودة من الحكومة القعيطية، سيكون لها أثر حسن في تلك القبائل التي تعيش في الكهوف وسفوح الجبال والتلال وفي بطون الوديان. ليس من شك أن العلاقات بين الدولة القعيطية وبين تلك القبائل ستتقوى وستتوطد الروابط والصلات، وذكرني هذا بما فعله تحتمس الثالث فرعون

مصر، فقد أحضر أبناء أمراء الشام حين احتلها، وأنزلهم في مصر وعلَّمهم حتى أصبحوا رجالًا وعادوا إلى الشام، فتوطدت العلاقات بينها وبين مصر.

في قُصَيْعَر

وفي الساعة العاشرة ذهبنا إلى قُصَيْعَر، وتبعد عن الرَّيْدَة بنصف ساعة بالسيارة، والمنازل ليست عالية، ويحيط بها سور له باب كبير متواضع، ذهبنا رأسًا إلى المدرسة وتقع على البحر، وبعد أن اختبرنا التلاميذ وشاهدنا بعض المدرسين وهم يلقون دروسهم على تلامذتهم سرنا إلى منزل السادة صالح محمد وسالم آل بعسي.

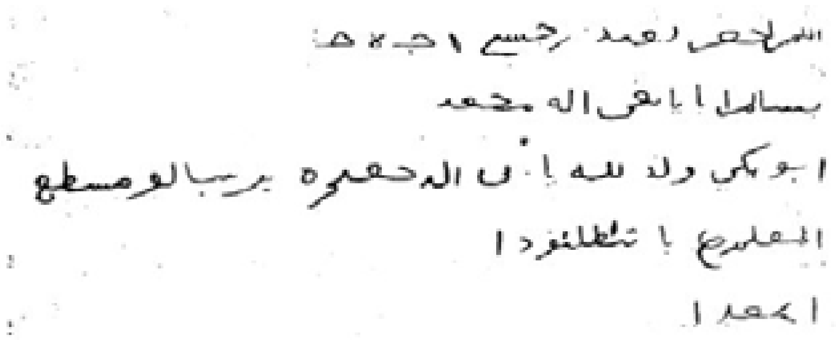
وسكان قُصَيْعَر ألفا نسمة، وقائمها السيد غالب عوض القعيطي، وتشمل قُصَيْعَر من قبائل البادية العليي والجمحي، وهم أفخاذ من الحُمُوم، ويبلغ عددهم حوالي ١,٥٠٠ نسمة، وفي شمالها غيضة المعبر وبها نخل ترويه عينان، وأهم عمل للأهالي صيد السمك وهو عماد ثروتهم.

منطقة أثرية

في شمال قُصَيْعَر وفي عسد الجبل حصن يقال له حصن البرتقيس، وبعضهم يسمونه حصن شقبون ابن شروان، وهو مبني من الحجر على ربوة عالية جدًّا، ويتكون من دورين، ولكن الدور الثاني قد تهدم فسقط معظمه على الدور الأول وسدَّ منافذه، ويحيط بهذا الحصن سور طول جداره الجنوبي ثمانون ذراعًا، وعرضه أربعة أذرع، وطول جداره الشرقي خمسون ذراعًا، وعرضه ثلاثة أذرع، وقد تساقطت من السور بعض أحجاره بسبب عوامل التعرية، وفي الجهة الشرقية من الحصن ست غرف لكل منها نافذة تطل على هوة سحيقة،

ومدخل الحصن من الشمال كما هو مبيَّن في الخريطة التي أتحفنا بها السيد عبد الله عوض مخارش قائم الرَّيْدَة، وعلى شمال الداخل كوخ صغير قائم بين صخرتين كبيرتين، وعلى يمينه حوض واسع كان مستعملًا لخزن المياه، وفي جنوب الحصن مسجد مهجور قد تراكمت على سطحه الرمال وأخذت جدرانه تتفتت بفعل الحرارة والرياح، وسيأتي يوم يصبح فيه هذا المسجد ومئذنته القائمة في الشمال الشرقي كومة من الثرى.

والطريق إلى هذه النقطة وعرة، ولا يمكن للسيارة أن تجتازها، وبعد أن يقطع السائر ساعة ونصف ساعة في طريقه من قُصَيْعَر إلى الحصن يجد ثلاثة صخور كبيرة في إحداها كتابة، وهي كما يأتي:



وبعد النزول من العقبة يشاهد الماشي على يمينه صخرة كبيرة مكتوب عليها:



العودة إلى الدِّيْس

بعد أن تناولنا الغداء في منزل السادة آل البعسي سافرنا إلى الدِّيْس، ونزلنا في منزل السيد عبد الحبيب مسلم التميمي، وهو من النبلاء الأفاضل، وقد قابلناه في الشِّحْر عند سفرنا إلى الرَّيْدَة فأقسم بأغلظ الأيمان أن ننزل في داره، وفي المساء أقام لنا نادي الإخاء والمعاونة حفلة تكريم حضرها معظم أهالي الدِّيْس وتلامذة المدرسة، واستغرقت الحفلة أكثر من ساعتين.

العودة إلى الشِّحْر

وفي صباح اليوم الثالث سافرنا إلى الشِّحْر، وأدبت لنا جمعية المواساة اليافعية مأدبة غداء فخمة حضرها أعيان الشِّحْر ووجهاؤها، وفي المساء أقامت حفلة تكريم لنا برئاسة السيد ناصر عمر مخارش اليافعي.

ضبضب

سافر السيد الناخبي والمستر برادلي إلى المُكَلَّا، وبقيت في منزل السيد أحمد عمر باصرة نائب الشِّحْر، وأجمعنا نحن والسادة أحمد عمر باصرة، وناصر عمر مخارش، وصالح باشراحيل، وعلي البكري، وبعض من الأصدقاء على الذهاب إلى جبل ضبضب الأثري، ويبعد عن مدينة الشِّحْر بنحو ربع ساعة بالسيارة، ويقع في الشمال الشرقي لها، وعلى سفحه الغربي طريق مرصوص بالأحجار ظاهر بشكل بارز ويشبه خطًا منكسرًا، وقد زعم الناس أن مغارة ضبضب تقع على سطح الجبل وصعد هناك كثيرون من أجانب ووطنيين فلم يجدوا شيئًا سوى أكوام من الأحجار متراكمة ظنناها قبورًا، ولما حفرنا تحت أحدها لم نعثر على شيء سوى قليل من العظام

قد تفتت معظمها بفعل الحرارة، وفي السطح الشمالي من الجبل وجدنا بئرًا جافة وعلى جوانبها أعشاب خضراء، ولعل السكان القدامى الذين سكنوا هذا الجبل الشاهق كانوا يخزنون فيها مياه الأمطار للشرب، وفي قمة الجبل عثرنا على حفرة ضيقة الفوهة يخرج منها بخار ساخن، ولما أدخلنا فيها عصا خرجت منها ضفدعة، ويلاحظ أن التراب بداخلها رطب عليه آثار الماء، ولا بد أن تكون هناك عين ماء، وحاولنا أن نحفر حولها فلم نستطع لعدم وجود آلات الحفر.

مغارة ضبضب

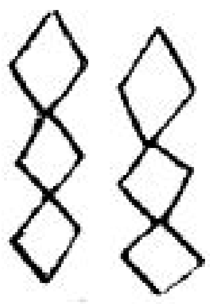
لم نستطع العثور عليها إلا بعد أن بذل نائب الشِّحْر بواسطة أحمد الحُمُومي جهودًا كبيرة في البحث عنها، وهي تقع في سفح الهضبة الجنوبية المجاورة للجبل، وبعد صلاة الصبح ذهبنا إلى المغارة لنصل إليها قبل الشروق، وقد عزمنا على أن نبقى هناك للبحث والتنقيب طوال اليوم؛ ولذلك أمدَّنا نائب الشِّحْر بالماء والزاد وآلات الحفر، ولكن السيارة تعطلت في الطريق بعد أن قطعنا حوالي ثلثي المسافة ففضلنا السير على الأقدام، وكنت توقعت أن السيد صالح باشراحيل لا يستطيع لكبر سنه أن يقطع برجليه تلك التلال والهضاب الصخرية؛ ولكنه برهن على أنه لا يقل عنا نشاطًا وحركة واندفاعًا في السير.

وصلنا المغارة وجلسنا على مقربة من مدخلها لنستريح قليلًا، ونتناول الفطور ونشرب القهوة.

ويشبه مدخل المغارة فوهة بركان خامد، وهو محفور في الصخر، ويبلغ عمقه حوالي ١٥ مترًا، أدلينا فيها حبالًا متينة ونزلنا بها، وعندما وصلنا إلى قاعدة المدخل رأينا فتحة ضيقة. ولما دخلنا منها وجدنا كهفًا منبسطًا على

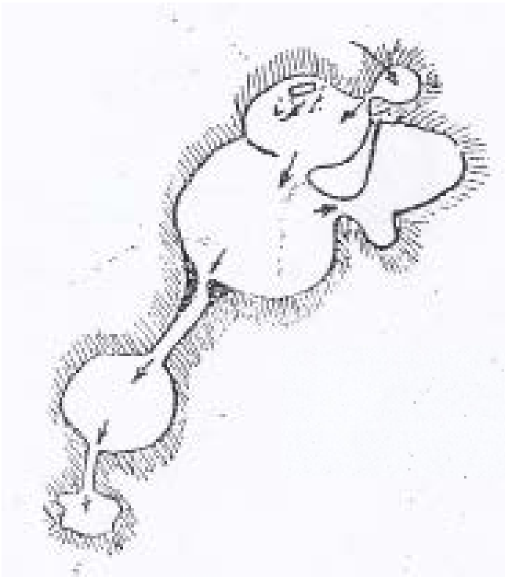
جوانبه مصاطب أشبه بمقاعد عريضة قد تراكمت عليها أحجار تساقطت من السقف، وهناك قبر منبوش منحوت في الصخر ويظهر أنه نقش منذ عهد قديم، ولعل نابشه هيريك ملتسان Heinrich Maltzan الألماني الذي ارتاد سواحل حضرموت سنة ١٨٧٠م.

ويتصل بهذا الكهف كهف آخر واسع، في أعلاه فتحة يدخل منها الهواء والضوء، وهناك كهف ثالث سقفه يكاد يلامس الأرض، ورأينا بداخله جزءًا بارزًا مستطيل الشكل ولعله قبر، وحاولنا نبشه بواسطة العمال الذين أحضرناهم معنا فلم نوفق لقرب السقف من الأرض، وفي الكهف الثاني شاهدنا ممرًا ضيقًا مظلمًا دخلناه زاحفين على بطوننا، ويبلغ طوله حوالي ستة أمتار، وخرجنا منه إلى كهف منحوت في الصخر على شكل دائرة، وفي سقفه نقوش منحوتة في الصخر وشكلها:



الظلام حالك، والحرارة شديدة، والضغط الجوي ثقيل، ورائحة بول الخفافيش تنبعث من كل جانب، وهناك ممر ضيق يبلغ طوله حوالي أربعة أمتار، زحفنا فيه على بطوننا حتى وصلنا إلى كهف غير واسع به حفرة منحوتة تشبه البئر أو الزير الكبير، وقد تراكمت عليها الأتربة والضغط هنا شديد، وكمية الأكسيجين قليلة، والحرارة تزهق النفوس، ولم نستطع البقاء طويلًا لشعورنا بالضغط الجوي والتعب، ولخوفنا من انطفاء المصابيح التي حملناها معنا، وقد بدأ ضوؤها يتضاءل ويحمر، عدنا أدراجنا وكاد أحد الزملاء وهو السيد ناصر عمر مخارش يُغمى عليه، ومما هو جدير بالذكر أن

السيد أحمد عمر باصرة كان أكثرنا نشاطًا وجرأة، فقد كان في المقدمة عند دخولنا في تلك الكهوف، وبعد أكثر من ثلاث ساعات قضيناها تحت الأرض خرجنا ونحن نلهث من التعب وكان العرق يتصبب منا، وقد بلت ملابسنا وتوسخت بالتراب وبول الخفافيش، ولما رآنا زملاؤنا الذين فضلوا البقاء خارج الكهف نظروا إلينا في شيء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا.



مغارة ضبضب

السهول الداخلية المنخفضة

كان البرنامج الذي رسمته لرحلتي ببلاد الأحقاف أن أقضي نصف إجازتي في مدن الساحل وقراه، والنصف الآخر في السهول الداخلية المنخفضة، وتسمى عندهم (الداخل) ولكن لظروف قهرية قضيت كل إجازتي في الساحل ما عدا خمسة أيام منها أمضيتها في الداخل.

وتتركز أعمال الحكومة القعيطية في الساحل، ويظهر فيه نشاطها السياسي والاقتصادي والأدبي بشكل بارز يفوق جميع مظاهر الحياة في الداخل، وإذا عدنا بالسنين القهقرى عشرًا نجد التعليم يكاد يكون محصورًا بصورة واضحة في مدينة سَيْئون وتَرِيْم، وهما من أمهات المدن في الداخل وأكثرها حضارة وعمرانًا. أما اليوم فقد تألقت أضواء العلم، وأشرقت أنواره في الغيل والمُكَلَّا وغيرهما من مدن الساحل، وأخذ التعليم هنا ينزع نحو التجديد في طرقه وأساليبه وفي اتجاهاته ومراميه.

الرحيل

في اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر قامت بنا السيارة من المُكَلَّا، وكانت كبيرة حملت كثيرًا من الرجال والنساء والأطفال، ولحسن الحظ جلست بجوار السائق، ولذا لم أشعر بتعب كثير من الاهتزازات التي كانت تقلق راحة الراكبين، وسرعان ما مالت الشمس للغروب، فقد قمنا من المُكَلَّا الساعة الخامسة مساء، وخيم الظلام على وادي حويرة الطويل العميق بعقبته الكؤود، وبعد ربع ساعة أخذ الوادي يضيق وتقترب السلسلتان الجبليتان من بعضهما، وقد حفر مجرى لري حقول الذرة والنخيل يتخذ ماءه من نهير صغير، وعلى حافة هذه الحقول تنمو أشجار الموز، واندفعت بنا السيارة صاعدة، وعلى حافة الوادي تعلو القمم الشامخة وقد تساقطت منها أحجار إلى الوادي، أخذت عوامل التعرية تهاجمها حتى فككتها، وكلما تقدمنا أوغل الوادي في الضيق، وعند نهايته وجدنا بركة صناعية بها ماء آسن، وعلى مقربة منها كوخ يقيم فيه جماعة من الحرس المسلح، والحرس موجودون في كل الطرق على مسافات متباعدة، ومهمة الحراسة في المناطق الجبلية والصحراوية عسيرة

شاقة تحتاج إلى يقظة وجلد وهدوء، ولكنهم استطاعوا أن يحرسوها وأن يصونوها وأن يكسبوا سلاح الدولة قوة ومناعة يفاخر بها مزهوًّا، لقد استطاعوا أن يشيعوا الأمن في أوصال الصحراء وأرجاء الجبال والوديان.

بعد أن أخذنا قسطًا من الراحة استأنفنا الرحيل في الجول، وهو هذه الهضبة التي تمتد بين السلاسل الجبلية الساحلية والسهول المنخفضة الداخلية، وكان طريقنا يخترقها حتى وادي دَوْعَن، والجول عبارة عن مسطحات من الأرض تفصلها وديان عميقة، وليس بها أي نبات اللهم إلا على الحافة حيث تصطدم بها بعض السحب، ولا حيوان اللهم إلا بعض السحالي والطيور، وجوّه حر قائظ أثناء النهار، وبرد قارس أثناء الليل، ولا شيء يؤلم المسافر فيه سوى هذه المناظر التي لا تتغير، ولما كان المطر نادرًا في هذه المنطقة لا يمكن أن نعزو تكوين هذه الوديان إلى المطر وحده، بل مما ساعد على تكوينها أن الأرض مكونة من طبقة من الحجر الجيري كثافتها من ٥٠ إلى ١٠٠ ياردة تحتها طبقة مماثلة من الحجر الرملي، وبذلك يسهل على الوديان أن تشق لنفسها طريقًا غائرًا، وفي الجول يمكن أن ترى قمم (كَوْر سَيْبَان) شامخة في ذلك الفضاء الواسع العريض، ويبلغ ارتفاعها ٧٠٨٨ قدمًا. وإلى الغرب من (كَوْر سَيْبَان) تمتد هضبة مسطحة لا تشقها وديان كثيرة، ولكنها ملأى بما يسمونه النقابات، وهي عبارة عن نوع صغير من الآبار محفور في الصخر الجيري، ضيقة الفوهة اتساعها قدم، وعمقها ٢٠ قدمًا، وتتسع من الداخل، وهي تستعمل لتخزين مياه الأمطار، وقد جعلت فوهاتها ضيقة لتمنع التبخر، وهي تحل محل السقايات في الوديان، ولها فائدة عظمى في هذه البقاع الجافة، ويبقى ماؤها ٣ سنوات وليس به عيب سوى طعمه الآسن.

مولى مطر

في منتصف الليل وصلنا مولى مطر، وهنا شعرنا ببرد شديد ولكنه جاف كبرد أعالي الصعيد بمصر، وتناول كل منا طعام العشاء، ورأينا الحرس يوقدون نارًا ويجتمعون حولها يغنون أغنياتهم التي لا نستطيبها بينما لها أثر كبير على أعصابهم، وليس لهؤلاء الحرس آمال ومطامح كبيرة في الحياة، ولكنهم يشعرون بالوحشة في هذه البقعة المنعزلة عن العالم، فهم يغنون من حين إلى آخر؛ ليدخلوا إلى نفوسهم شيئًا من المرح والسرور، ولقد صدق أبو سعد زميل السائق حيث سمَّى الجول (ريم الدنيا) والريم باللغة الدارجة (السطح).

استأنفنا الرحيل واندفعت بنا السيارة في طريق ممهد، وأخذ السائق فرج يغني أغنيات شعبية حلوة.

البرير

وفي الساعة الثانية صباحًا وصلنا البرير، وهرع رفاقنا إلى مسكن الحرس وناموا فيه، أما أنا فقد فضلت البقاء في السيارة لوحدي واضطجعت في أحد مقاعدها، لكنني لم أذق للنوم طعمًا لشدة البرد، ولقد نصحني السيد عبد الله الناخبي قبل الرحيل من المُكَلَّا أن آخذ معي لحافًا من الصوف ليقيني شر برد الجول، ولكني اعتذرت؛ لأني من الناس الذين يكرهون أن يحملوا في أسفارهم أكثر من حقيبة واحدة وشنطة يد واحدة.

تنفس الفجر وتدفقت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام الهادئة واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية، يا لروعة هذا المنظر الطبيعي في هذه البقعة العالية من الدنيا.

ها نحن أولاء في نقطة التحول الحاسمة بين الحضارة والبداوة، تركنا وراءنا مساكن المُكَلَّا وحدائقها الغناء ومصايف السلطان والسراة، وأصبحنا نحن والسيارة بين الهضاب والرمال وشجيرات متناثرة هنا وهناك، لها شكل غريب قد أدى تنازع البقاء بينها إلى التواء غصونها وقصرها وتجردها من الورق فأصبح لها شكل الصخور، ما أعمق هذا الشعور الذي يحسه الإنسان كلما وقف عند إحدى نقط التحول أو كلما كان في المكان الذي يمكنه من عقد المقارنات بين الأضداد! إن البداوة جميلة مهما تكن ناقصة، ولكن في الحضارة أيضًا جمال.

وتابعنا السير نذرع الطريق وقد صمتنا جميعًا من غير داع إلى الصمت، وكان طريقنا يخترق هضبة صخرية تشقها بعض المنخفضات الشبيهة بالأحواض، وعلى حافة أحدها وجدنا ثلاث ظباء، ويظهر أن النباتات هناك لا تسد رمق هذه الحيوانات المسكينة، فهي هزيلة ذابلة.

اقترابنا من وادي دَوْعَن

اقتربنا من وادي دَوْعَن، وقد مرت بنا سيارات في طريقها إلى المُكَلَّا، ولم نتمكن من رؤية ذلك المنحدر العظيم الذي يؤدي إلى الوادي إلا عند اقترابنا منه؛ لأن هذه الهضبة الشامخة كانت تحجزه عنا، وتنحدر هذه الأسوار الجبلية انحدارًا يبلغ ٩٠٠ قدم. وفي الساعة العاشرة صباحًا وصلنا عقبة الجحي، ويا لها من عقبة طويلة خطرة! ففي بعض أجزائها ينحدر الطريق انحدارًا سريعًا بجوار هوة سحيقة، وخاف بعض رفاقنا فنزلوا من السيارة وفضلوا السير على أقدامهم، وفي إحدى أوديتها العليا أشجار ضخمة بها أسراب من القردة جفلت عند سماعها صوت الموتور، وقد ذكرني هذا المنظر بغابات إندونيسيا حيث تكثر القرود.

وصلنا أسفل العقبة مصحوبين بالسلامة والحمد لله، شاهدنا منظرًا رائعًا؛ غابات خضراء من النخيل، وحقول الذرة، وأشجار النبق، يخترقها خط أبيض هو مجرى السيل.

اجتزنا مدينة الجَحْي ومجموعات أخرى من المنازل متناثرة على سفوح التلال، ومررنا على القِزة منازل آل البطاطي، ورأينا مدنًا على الجانب الغربي للوادي، وتبدأ المزروعات تقل كلما اتجهنا شمالًا، ويحل النبق محل النخيل، والنبق ويسمونه (الدوم) من أهم ثروة الإقليم، ويُعنى الأهلون بأشجاره عناية تفوق الوصف لا سيما في وادي عَمْد ووادي العَيْن، وتستخدم جذوع أشجاره لعمل قوائم للمباني، وفروعه الشائكة لحماية أشجار البلح من السرقة، وأوراقه لرعي الماشية، وكثيرًا ما رأينا راعية تتسلق الشجرة وتنفض أوراقها بعصا صغيرة ليتساقط الورق لتأكله الأغنام، وأزهار أشجار النبق مرعى خصيب للنحل، وتشتهر دَوْعَن بالعسل وتصدر منه سنويًا كميات وافرة إلى عدن ومصر وسواحل أفريقيا الشرقية.

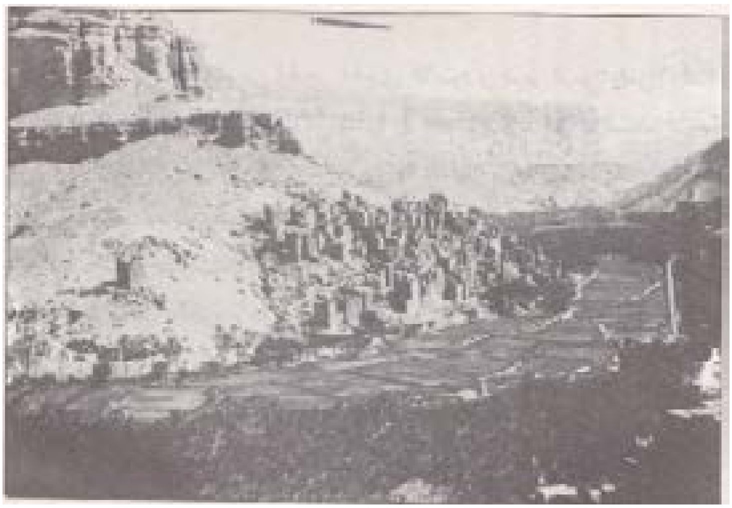
المَشْهَد

وهذه منطقة غنية بالآثار، فهناك مئات التلال تعلو إلى ٣٠ قدمًا على سفوحها أنقاض جدران، وعلى إحدى هذه التلال بئر اتساعها ٣٠ قدمًا وعمقها ٦٠، وهناك أحجار كثيرة عليها كتابات حميرية، وقد عثرت المستر فريا ستارك في هذه المنطقة على آثار قيِّمة وحفريات ثمينة، ولم أتمكن من الوقوف هناك، فقد اندفعت سيارتنا بمن فيها من الراكبين مسرعة، ومررنا أمام منزل منصب المَشْهَد الذي تركناه في المُكَلَّا.

سَدْبة

مررنا على مقربة من سَدْبِة وهي من القرى القديمة، واخترقت السيارة مجرى السيل وأحراج النخيل في طريقها إلى حَوْرَة، وقبيل الظهر وصلنا حَوْرَة، وقابلنا السيد محفوظ لَرْضي قائم المدينة فاحتفى بنا أيما احتفاء، ولم يسمح لنا بالسفر إلا بعد أن تناولنا طعام الغداء في منزله. ومما يلفت النظر كثرة مواليد جاوة، وقد عرفتهم بملامحهم، ولما كلمتهم بلغة الملايو اندفعوا نحوي فرحين مستبشرين وأمطروني بالأسئلة عن إندونيسيا ومصر، ولسوء حظهم ليس في حَوْرَة مدرسة يتعلمون فيها، فهم يقضون أوقاتهم في اللهو واللعب، ولعل أزمة المعلمين المستحكمة بحضرموت هي السبب في تردد الحكومة القعيطية في إنشاء مدرسة هناك.

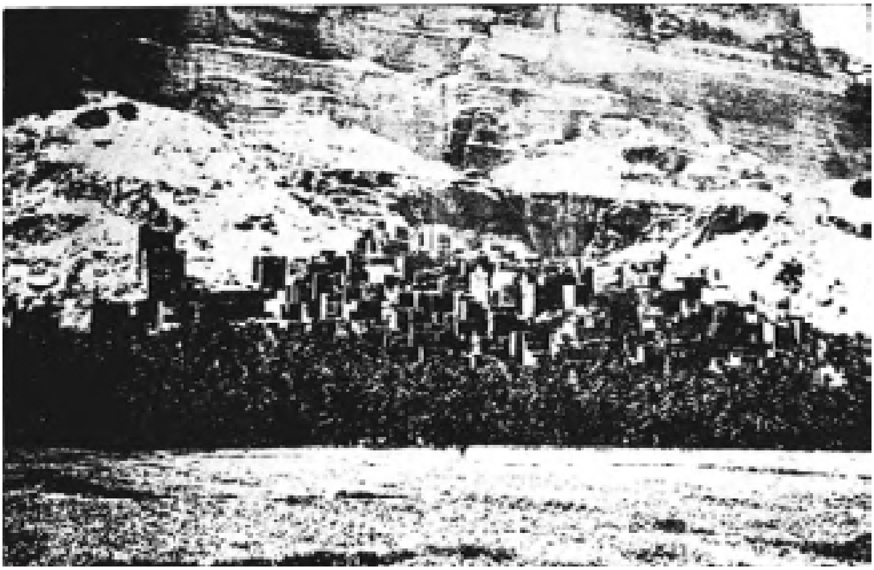
في الساعة الثالثة مساءً استأنفنا الرحيل ومررنا بالمِخَيْنِيق وهي من المدن الأثرية؛ فالمنازل هناك أصبحت أكوامًا من الثرى، وبعد أن تركنا العَجْلانيَّة بمنازلها العالية.



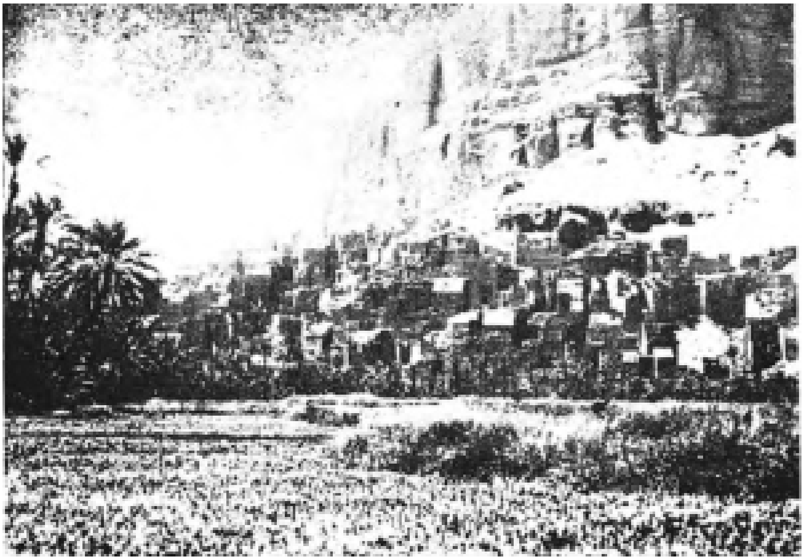
مدينة (قرن باحكيم) في دَوْعَن



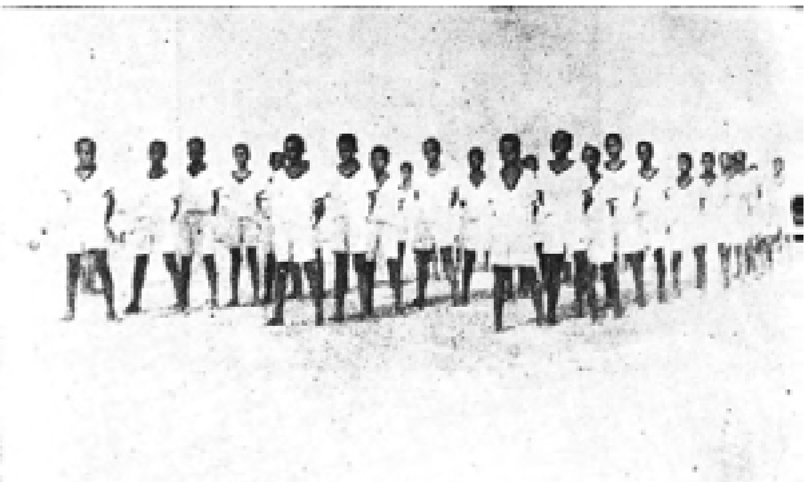
مصنعة باصرة في دَوْعَن



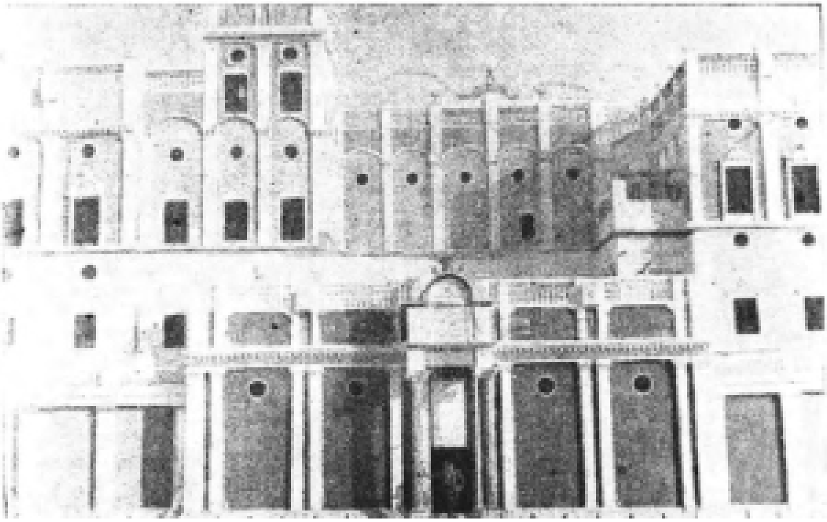
مدينة (الخُرَيْبَة) في دَوْعَن



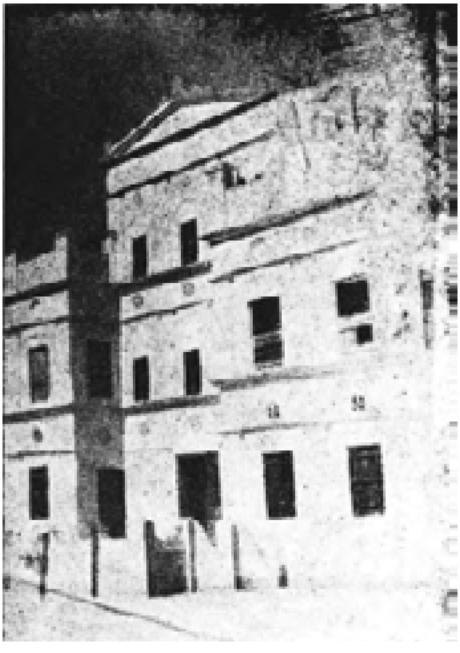
مدينة (رِبَاط باعِشِنْ) في دَوْعَن



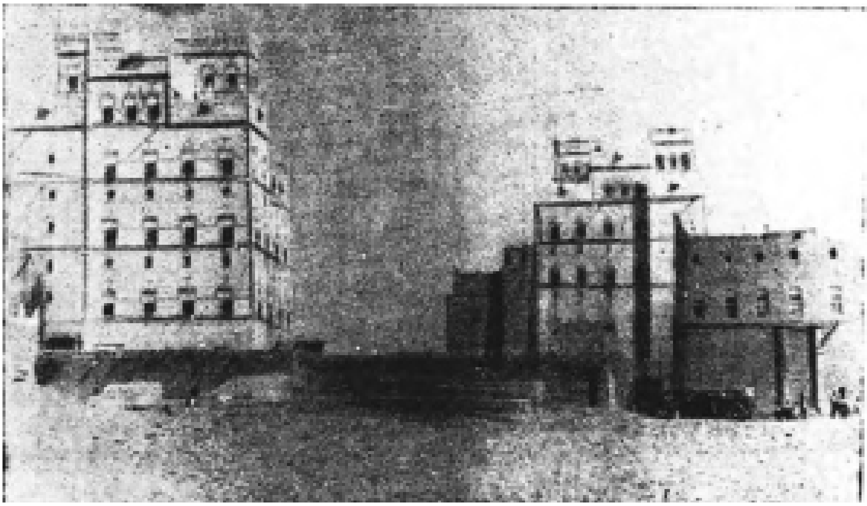
فرقة الكشافة بالمدرسة الوسطى بغيل باوزير في أثناء تمرينهم



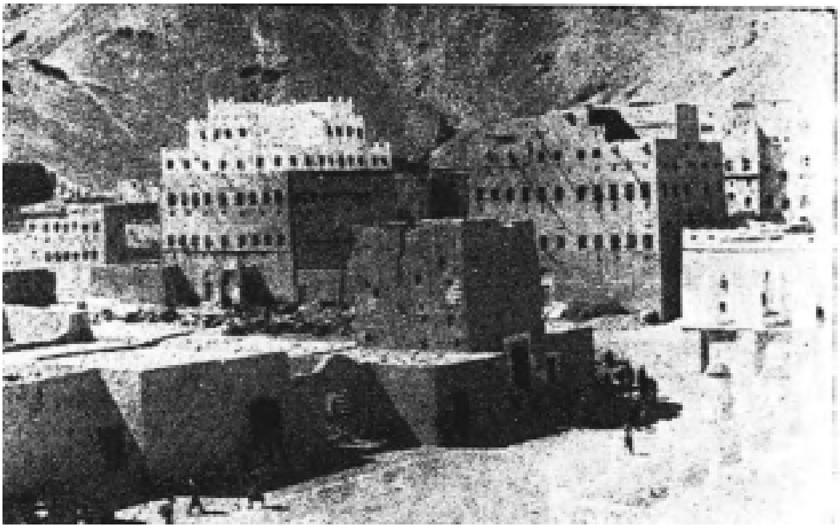
أحد قصور (قُعُوضَه) في نهد



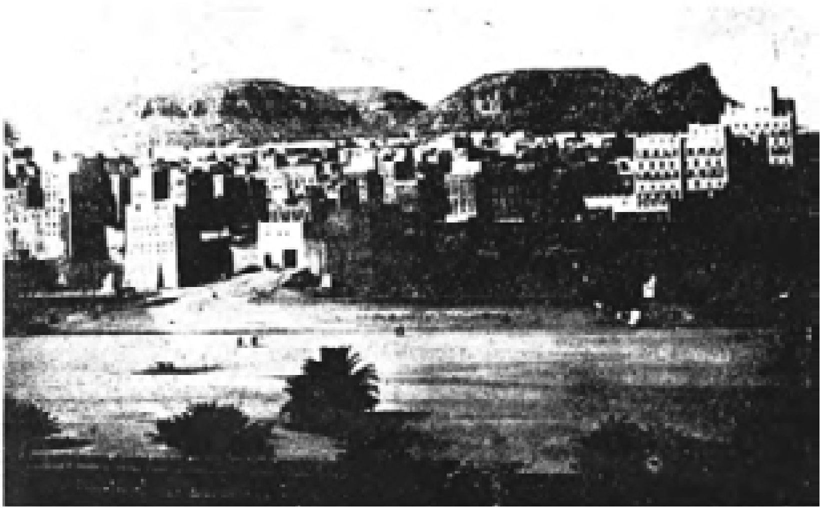
قصر (آل مرتع) في هَيْنَن



ديار (آل البقري) في نهد



جانب من مدينة الرَّيِّضَة في القَطْن



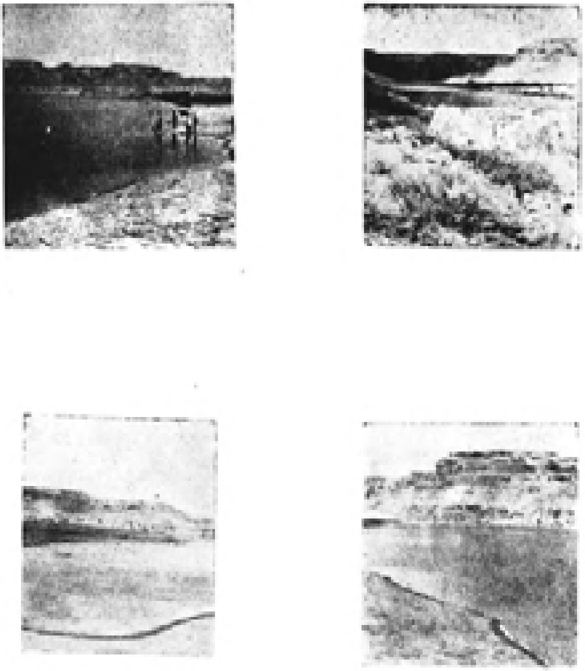
جانب من مدينة شِبَام



مدينة سَيْئون



مدينة تَرِيْم



مناظر سد النُّقْرَة

ظهرت لنا البَاطِنَة. وهنا تتسع رقعة الأرض وتتباعد السلسلتان الجبليتان عن بعضهما ثم تظهر الفُرُط، ويسكنها قبيلة بني أرض من يافع، ومن الفُرُط تبدأ حدود القَطْن، وتكثر الآبار الارتوازية حيث الماء قريب عن سطح الأرض، وتكثر أحراج النخيل وحقول الذرة، وتمتد أراضي المِسْحَرَة وهي من أخصب المناطق الزراعية بحضرموت حيث تكونت طبقاتها من الغرين الذي تجلبه إليها مياه الأمطار. وفي بابَكْر ديار بني بكر نزلت واستأنفت السيارة بمن فيها من الراكبين إلى شِبَام، وهنا شعرت أني بين أهلي وأقربائي، فقد هرع بنو بكر كبارًا وصغارًا إلى منزل السيد محمد بن محسن البكري حيث نزلت للترحيب، وكان البشر يطفح على وجوههم. وفي بابَكْر وجارتها الرَّيِّضَة قضيت عهد الصبا، وفي كل منزل من منازل آل البكري وفي كل شارع من شوارع الرَّيِّضَة لي ذكريات. وفي المساء جاءت وفود كثيرة من الرَّيِّضَة وما جاورها من القرى والحصون للترحيب بي من أعماق قلوبهم، وقضينا ليلة مع الأصحاب نتجاذب أطراف الحديث في شؤون كثيرة، وسنستعيد ذكرياتنا الحلوة التي مضى عليها ربع قرن. وفي الصباح ذهبت لزيارة الأصحاب في منازلهم، ولكن لدقائق معدودات، وأصر الجمعدار القعيطي كل الإصرار على أن أتناول طعام الغداء في منزله بالرَّيِّضَة.

وفي المساء جاء السيد حسين أبو بكر لعْجَم بسيارته ليأخذني إلى شِبَام، وكان قد تسلم خطاب توصية من عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي، وكان بصحبته الدكتور سرجنت والدكتورة عقيلته وابنهما. والدكتور سرجنت مستشرق إنجليزي أرسلته جامعة لندن لدراسة الشعر الحميني في حضرموت، وهو من أكثر الأوربيين اطلاعًا بالحياة الأدبية والثقافية بجنوب الجزيرة العربية، ولعل القراء اطلعوا على مقالاته التي نشرتها له بعض المجلات العلمية.

شِبَام

انطلقت بنا سيارة السيد حسين لعجم بين بلدان القَطْن وفي أحراج نخيلها ومزارعها الخضراء، وبعد ساعة ظهرت لنا مدينة شِبَام بمنازلها الشامخة تحيط بها غابات النخيل. وأول أوربي وقع نظره على شِبَام هو ليوهيرش Leo Hirsch الألماني سنة ١٨٩٣م، ولعلوِّ منازلها سماها بعض السياح الأوربيين نواطح السحاب، ولعل السبب في علو منازلها ضيق مساحة الأرض، وهو السبب الذي حدا بالأمريكيين لبناء نواطح السحاب في نيويورك، ثم إن الحضارم عرفوا بتمجيد القوة والعظمة وحب التفوق والتنافس، وهذه العاطفة ظهرت بوضوح في مبانيهم الشاهقة.

وشِبَام مدينة قديمة بناها قوم من شبوة بعد أن احتربت حمير ومدحج وبهم سميت شِبَام، وكان الأصل في ذلك شباه فأبدلت الهاء ميمًا.

وسكان شِبَام اليوم لا يقل عددهم عن ٢٥ ألف نسمة، وتتجلى النظافة داخل المنازل ولكن الشوارع ضيقة قذرة؛ فمياه المراحيض تسيل في قنوات مكشوفة تنبعث منها روائح كريهة، ولا يمكن للسيارات أن تجتاز هذه الشوارع. وعلى مقربة من المدينة يقع السِّحِيل وبه منازل جميلة للموسرين وهو مصيف أهل شِبَام. وموقع شِبَام مهم لا من الناحية الاستراتيجية فقط ولكن أيضًا من الناحية الاقتصادية؛ فسوقها أعظم أسواق حضرموت، وأسعار الحاجيات ترتبط إلى حد بعيد بأسعارها في سوق شِبَام، فهي أشبه بالبورصة التجارية. والشباميون مشهورون بالنشاط وحب الحركة والعمل؛ ولذا لا تجد أحدًا منهم يقبع في داره بالنهار اللهم إلا المرضى والعجائز، وهذا عكس الحال في سَيْئون وتَرِيْم.

أنزلنا السيد حسين لعجم في داره على الرحب والسعة، وبعد تناول العشاء جلسنا نتحدث في مختلف الشؤون مع الزائرين الذين أتوا للترحيب بنا.

سَيْئون

وفي الساعة العاشرة صباحًا استأنفنا الرحيل إلى سَيْئون، واجتازت بنا السيارة مدينة الغُرْفَة، وشاهدنا أنقاض الحصون خارج سور المدينة. والغُرْفَة كانت لآل باعبَّاد ثم استولى عليها السيد صالح عبيد بن عبدات الكثيري سنة ١٣٤٤هـ وضرب النقود باسمه، وقويت شوكته، واتسع نفوذه. وظل ابن عبدات يحكم الغُرْفَة إلى يوم ٧ مارس سنة ١٩٤٥م حيث سلَّم نفسه لجيش الحكومة القعيطية، وسيأتي الكلام في هذا الموضوع. وفي طريقنا إلى سَيْئون شاهدنا بابَكْر مساكن آل عبدات وديار آل العاس وغيرهم، وصلنا سَيْئون ولأول مرة أرى عاصمة الحكومة الكثيرية بمنازلها العالية وشوارعها الواسعة التي يمكن للسيارات أن تجتازها بشيء من السهولة، وسور سَيْئون أقل مما كنت أتصوره. ويقع قصر السلطان العظيم على ربوة عالية ويرى من بعيد كأنه جبل شاهق من الجليد وسط أحراج النخيل، ولا يقل سكان المدينة عن ٢٥ ألف نسمة، والماء هنا عذب نقي، ولقد صدق القائل: «سَيْئون والماء ولا سمن البقر في شِبَام».

كان عظمة السلطان جعفر الكثيري غائبًا عن عاصمة ملكه، فقد ذهب إلى المُكَلَّا لزيارة عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي.

ذهبنا إلى منزل العصامي السيد عمر أحمد باكثير، وهناك قابلت السيد ووتس نائب المستشار الإنجليزي ومساعده السيد محمد عبد القادر بامطرف، وقد أمضينا معهم فترة قصيرة تبادلنا فيها الحديث الودي في مختلف الشؤون.

والمستر ووتس يتكلم العربية بطلاقة كأي حضرمي ويعرف كل شيء عن حضرموت في الداخل، وهو مثل أعلى للتواضع والتسامح واللباقة والكرم، فلا غرو إذا أحبه جميع الحضارم على اختلاف طبقاتهم.

تَرِيْم

وفي الساعة الثالثة استأنفنا الرحيل إلى تَرِيْم، وهناك نزلنا في منزل السيد عمر بن شيخ الكاف فاحتفى بنا أيما احتفاء، وبيت السيد عمر من أشهر البيوت التي تفتح أبوابها لكل طارق سواء أكان حضرميًا أو أجنبيًا. ومعظم السائحين الأجانب شادوا بذكره في مؤلفاتهم، ولحسن الحظ وجدنا عنده السيد أبا بكر بن شيخ الكاف وكنت قابلته في مصر حينما جاءها قبل الحرب العالمية الثانية، وهو من أبرز الشخصيات بحضرموت عقلًا وسماحة وجاهًا. وقابلنا أيضًا السيد علي بن شيخ بلفقيه، وهو من الشبان الأذكياء المثقفين الذين يقومون بقسط وافر في النهوض بحضرموت إلى المستوى اللائق بها. وفي المساء ذهبنا لزيارة عميد آل الكاف السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف في منزله، وكنت أحمل له خطاب توصية من عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي، فاستقبلنا بما عرف به من البشاشة وكرم الأخلاق.

حفلة تكريم

بعد أن تناولنا العشاء في منزل السيد عمر بن شيخ الكاف ذهبنا إلى نادي غرفة المطالعة لحضور حفلة التكريم التي أقامها لنا شباب تَرِيْم الناهض، كانت الحفلة رائعة ولقد أعجبت كل الإعجاب بنشاط القائمين بشؤون الغُرْفَة وإخلاصهم في العمل لتثقيف عقول الشعب بمختلف الوسائل، كما أدهشني

ثقافة هؤلاء الشبان وذكاؤهم ونشاطهم وتلهفهم لطلب المزيد من المعرفة، وقد انهالت عليَّ الأسئلة من كل جانب حول مركز مصر الأدبي والسياسي وحول أبناء الحضارم الذين يتلقون العلم في المعاهد المصرية، وحول مركز الجامعة العربية ومستقبلها، ومن الأسئلة الطريفة التي وجهت إليَّ هي: «لماذا يشتغل بعض أبناء الحضارم بالتدريس في مصر ومدارس حضرموت في أشد الحاجة إليهم؟ أليس الواجب أن يقوموا بنشر التعليم في وطنهم؟ ألا يجب أن يضحوا بشيء في سبيل خدمة بلادهم؟» وهي أسئلة محرجة حقًا، لأني واحد من هؤلاء الذين يشتغلون بالتدريس في مصر، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على حسن نية وإخلاص وحب للوطن - وكان ردي أنني وزملائي على أتم استعداد للتضحية متى وجدنا من جانب الحكومة والشعب تضحية وتشجيعًا.

واختلف المؤرخون في تسمية مدينة تَرِيْم، قال بعضهم: إنها سميت باسم تَرِيْم أحد أولاد سبأ الأصغر. وقال آخرون: إنها سميت باسم قبيلة بحضرموت، وقد تولاها السبئيون. وفي أوائل القرن الخامس بعد الميلاد في عهد حسان بن أسعد وعهد حجر بن عمرو آكل المرار، قام بأمرها ملوك كِندة، ولما ظهر الإسلام كان ملك تَرِيْم وائل بن حجر الذي كاتبه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد دخلت كندة الإسلام وسائر قبائل حضرموت. وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليها عامله زياد بن لبيد الخزرجي الأنصاري في السنة الثامنة من الهجرة. وتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم وزياد بتَرِيْم، وبايعه الناس بالخلافة لسيدنا أبي بكر الصديق.

ولما امتنعت بعض قبائل كندة عن دفع الزكاة لزياد، سار إليهم بأهل تَرِيْم وجماعة من الصحابة جاءوا من اليمن وقاتلهم في قريتي النُّجَيْر وخُبَايِهْ حتى أخضعهم.

ولما ضعفت كندة وتلاشى سلطانها سار يحيى بن عبد الله الكندي الملقب بـ(طالب الحق) إلى مكة سنة ١٢٨هـ، وعاد بأبي حمزة الخارجي الإباضي واستولى على تَرِيْم وسائر حضرموت سنة ١٢٩هـ، ولم تعد إلى الخضوع لمروان آخر ملوك بني أمية إلا بعد أن قتل طالب الحق.

وفي عهد المنصور العباسي كان عامل حضرموت واليمن معن بن زائدة، وأناب معنًا أخاه عاملًا على حضرموت، وكان هذا فاسقًا سفاحًا فقتله أهل تَرِيْم، وما زالت تَرِيْم خاضعة للعباسيين إلى سنة ٢٠٢هـ حيث استولى عليها بنو زياد من أمراء اليمن إلى سنة ٤٠٧هـ، ثم ملكها بنو معن ملوك عدن، ثم الصليحي داعية الفاطميين سنة ٤٥٥هـ، وفي سنة ٤٨١هـ عادت تَرِيْم إلى آل راشد، وفي سنة ٦٢٢هـ تولى أمرها آل صبرات ثم آل يماني وآل راصع، وبقيت إلى أواخر القرن التاسع حيث قامت دولة آل عبد الله، ثم عادت الإمارة على تَرِيْم لآل يماني وآل راصع، ثم احتلها السلطان بدر بوطويرق الكثيري المولود سنة ٩٠٢هـ.

قبر هود عليه السلام وبئر برهوت

كنت أردت زيارة قبر هود عليه السلام وبئر برهوت قبلتي كل سائح بحضرموت، وكنت أردت مشاهدة سد النُّقْرَة العظيم الذي أنشأه الإنجليز سنة ١٩٤٤م. وكانت نفسي تتوق لمشاهدة المنطقة الأثرية التي تقع بين عَيْنات وقبر هود، ولكن لسوء الحظ لم يكن لدي متسع من الوقت إذ لا بد لي من

الرحيل إلى المُكَلَّا في اليوم التالي لإعداد ما يلزم للسفر إلى مصر بالطائرة التي كانت ستقوم في الأسبوع الأول من أكتوبر.

عَيْنات

وكانت عَيْنات من أكبر المدن، وأول ما يسرُّ المرء من منظرها أحراج النخيل، وقد اجتذبت رحبات المدينة البيضاء ومساجدها الكثيرة أنظار ألوف من الناس الذين يأتون للزيارة، وتقع المدينة عند ملتقى كل الطرق المؤدية إلى قبر النبي هود عليه السلام.

النُّقْرَة

وكل حضرمي يعرف أن السبب في تدهور عَيْنات وجود النُّقْرَة الناجمة عن نحت السيول بعد تهدم السدود، ولوقوع عَيْنات في نهاية الوادي كانت أكثر تعرضًا لفعل السيول عن غيرها من مدن حضرموت، أضف إلى ذلك أن قوة السيل قد تزايدت بمياه الأودية الجانبية ورخاوة التربة، وعندما تتعرى جذور النخل يقل محصولها وفي النهاية تسقط، وقد تلاشى جانب كبير من النخيل المحيطة بالمدينة، وقد عملت محاولات كثيرة لتحويل مجرى السيل شمالًا إلى سفح الجبال بإقامة سدود، وجمعت مبالغ طائلة لهذا الغرض، وأقيم السد فعلًا ولكنه تهدم مرارًا.

قَسَم

وقد تأثرت الأراضي الواقعة بعد عَيْنات بهذه النُّقْرَة فاختفت زراعة البلح وهاجر أكثر أهلها، وخير مثال لهذا مدينة قَسَم، وهي محاطة بسور متهدم، ويسكنها بضع مئات، وكانت قديمًا غاصة بالألوف، وخارج السور تقع

المدافن. وتحدها من الجهة الأخرى قلعة قديمة على طراز العصور الوسطى، وكذلك الأبنية المؤدية إليها، وقد تهدم جزء كبير منها ولكنها لا زالت حافظة لروائها، وعلى كل زاوية فيها يوجد برج مخروطي الشكل يتضخم في الوسط.

سد النُّقْرَة

كانت مياه أودية عِدِمْ وسَرْ تشق طريقها في محاذاة الجبال الشرقية، وكانت تروي نحوًا من عشرين ألف نخلة وميلين ونصف ميل مربع من الأراضي الزراعية، ثم شق السيل طريقًا جديدًا آخر موازيًا لمجراه الأول، وبمرور الزمن انحدرت المياه كلها في طريقها الجديد وجف مجراها الأول، وطغت عليه الرمال فاختفت الزراعة في تلك المنطقة ومات النخل. ولما اشتدت المجاعة بحضرموت في سنة ١٩٤٤م أنشأ الإنجليز مطاعم لإطعام المنكوبين في حُرَيْضَة، وهَيْنَن، والعَنِين، وقارة آل عبد العزيز، والسِّحِيل، وشِبَام، وفي حوطة آل أحمد بن زين، والغُرْفَة، وحصن العَوَانِزَة، وتَرِيْس، وسَيئُون، ومَرْيَمَة، وتَارِبَة، والغُرَف، وثِبِي، وتَرِيْم، ودَمُّوْن، وعَيْنات، واستخدموا كثيرًا من الرجال والنساء والولدان في إصلاح الطرق وتعبيدها، وبناء السدود وحفر الآبار، ولإحياء الأراضي الزراعية المندثرة.

وأعظم السدود التي أنشأها الإنجليز سد النُّقْرَة، الذي بُني على أنقاض سد صغير يقال له (مضلعة حمدون)، وواضع التصميم له صديقنا السيد علوي الكاف والمستر بكتن الذي استدعته المستشارية الإنجليزية من جزيرة قبرص. ويبلغ طول سد النُّقْرَة ٤٤٠ قدمًا، وعرض أساسه ٤٥ قدمًا، ويقل هذا العرض تدريجيًا حتى يصبح في سطح السد ٢٣ قدمًا، وأمام السد بُني رصيف قوي من الصخور والرمل والأسمنت يبلغ طوله ٤٤٠ قدمًا، وعرضه ٥٠ قدمًا، اشتغل

في بنائه ٧٠٠ عامل وعاملة، وكانت أجرة العامل في اليوم تتراوح بين ١٤ آنة و٣ ربيات، وكانت أجرة العاملة في اليوم ١٠ آنات، وأخبرنا صديقنا السيد حسن شيبة وكان أحد المشرفين على بناء السد أن جميع النفقات لإنشاء سد النُّقْرَة بلغت كالآتي:

٣٩١٤١٠ /١٢	ربية أجرة العمال والموظفين وما إلى ذلك.
٣٨٠٠٠	ربية ثمن ٤١٧ رزمة قصب لغذاء الحيوانات.
١٦٠٠٠	ربية ثمن ٢٠٩٦٠ رطلًا من الكسب (التخ).
٥٠٠٠٠	ربية أجرة المواشي.
١١٧٠٠٠	ربية ثمن الأسمنت وأجرة نقله.
١٥٠٠	ربية ثمن المواد المتفجرة.
١٦٥٦٦٥	ربية ثمن ٤٣٥٦٧٩ رطلًا من الطعام لغذاء العمال والعاملات.
١١٤٦٧٥	ربية ثمن البلح المستهلك وتكاليف نقله.
١٧٥٠	ربية ما دفع لورثة المتوفين أثناء العمل.
١٥٠٠٠	ربية مصروفات للضباط والمفتشين والمهندسين.
٩١١٠٠٠ /١٢	المجموع تسعمائة وأحد عشر ألف ربية واثنتا عشرة آنة.

وبعد الانتهاء من بناء هذا السد العظيم، وهو الأول من نوعه في حضرموت أصبح من الممكن حجز أكبر كمية من مياه الأمطار تكفي لإرواء أربعة أميال من الأراضي لزراعة الحبوب وزراعة ما لا يقل عن مائة ألف نخلة.

بعد قَسَم يستمر الوادي في الاتساع، وتتكون التربة من اللويس، ويتعرج الطريق بين شجيرات الأراك الأخضر، وهي مما تستطيبه الجمال والحمير،

وحيث ينمو الأراك لا تأكل الحيوانات غيره ولو أنه يسهلها، وكلما يوغل المسافر في السير يقحل الوادي العريض، وهناك منطقة حافلة بالآثار.

أطلال العُر

هناك في منتصف الوادي تقوم أطلال العُر على كتلة منعزلة من الصخر، وهي بقايا من الحيطان الضخمة المتهدمة، وعند السفح تقع بئر، ولا تزال آثار الطريق الذي يؤدي من البئر إلى القمة متميزة، وما زالت بقايا المباني مبعثرة حول قمة التل على ارتفاع يتراوح بين ٤٥ و ٥٠ قدمًا، وهناك ممر ضيق منحدر في المنطقة الجنوبية الشرقية من الصخرة، حيث ترى بضع درجات ما زالت باقية كانت -ولا بد- المدخلَ الرئيسي للقلعة التي تشرف على الأقاليم.

السَّوْم

وعلى مقربة من هذه المنطقة تقع قرية سَوْم الحقيرة الغارقة في لجة من السكون الرهيب تحيط بها حرجة من النخيل.

فُغْمَة

وبعد سَوْم تظهر قرية فُغْمَة وتتكون من منازل وأكواخ من الطين، وهي آخر محط قبل قبر هود عليه السلام.

أطلال مكنون

وعلى مقربة من سَوْم جهة الحائط الشمالي للوادي تقع أطلال مكنون، ولا زالت بقايا الأبنية القديمة قائمة فوق السهل، ويتصل بهذه المنطقة مكان فسيح لا بد أنه كان مقبرة ذلك الحي، وقد وضعت الأحجار على شكل دوائر.

حصن ثوبي

يطلق هذا الاسم على أطلال قلعة تقع على فتحة وادي سنحور والمنحدرات العميقة للصخور الضخمة والتي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم مغطاة بالروث وعلى القمة أثر الحائط، ولكن ليس هناك نقوش ولا كتابات؛ وقلة النقوش هنا وكثرتها في اليمن يمكن تفسيرها إذا اعتبرنا حضرموت نهاية ممالك السبئيين والمينائيين بأن أقوام حضرموت غلبت عليهم الصفات الحربية، وقد ذكر ذلك الأستاذ موردتمان الذي درس وفك رموز الكتابات التي اصطحبها معهما السيدان فان درميلن وويزمان، وعلى قوله فقد ذكر الإقليم وملوكه في النقوش السبئية القديمة.

وهناك كتلة من الصخر، وهي عبارة عن قمة عمود رسم النقاش على جوانبه صورًا للصيد بها فرسان يحاربون الأسود في وجه، وفي وجه آخر صور جميلة للوعل الذي لعب دورًا مهمًا في خرافات حضرموت، ولا زال صيد الوعل من الرياضة المحببة إلى نفوس الحضرميين.

قبر هود عليه السلام

ويبدأ الوادي في الضيق وعلى اليمين عند ملتقى السبعة الأودية تنقطع الحافة، والطريق في جملته لا بأس به. وبعد فُغْمَة تظهر قبة قبر هود عليه السلام والأبنية الملحقة به، ومجاري السيول هناك منحدرة جدًّا، وتغطي التلال التي بينها طبقة من التراب الناعم سمكها ثماني بوصات، وهناك عدد من شجيرات الأثل والعِشَر والأراك تجعل المنظر العام رائعًا. والناظر لتلك الأبنية الناصعة البياض يشعر بشيء من الرهبة، وعلى القرية بمنازلها المطلية بالجير وقبابها ومساجدها مسحة من الجمال، وقبة قبر هود قديمة أما الأبنية فمستحدثة،

ويبلغ طول القبر مائة وعشرين قدمًا، ولعل هذا رمز لعظمته لا لطول قامته، وبنيت القبة في المكان الذي انشقت فيه الصخرة على حسب زعمهم.

وتتلخص قصة هود في أنه دعا قومه إلى الإيمان بالله فأخذوا يلحقون به الأذى حتى لجأ إلى صخرة في الجبل ابتلعته وماتت ناقته في نفس المكان، ولما انتشرت الخرافات والتوسل بالأموات والأحجار والأشجار علا شأن هذا الضريح المقدس، وأخذ الناس يتوافدون عليه ويقضون حوله ثلاثة أيام وعندهم بقايا من الشعور الوثني، فكل منهم يدنو إلى ذلك القبر كطفل مليء بالثقة والأمل.

يقوم الشخص ومعه قطعة من الخشب بها خيط ملون من الصوف قد اتصلت به قطعة صغيرة من الحجر، أما القطعة الخشبية فتوضع في الحائط الخارجي للقبة أو في جوانب الأحجار البيضاء اللون، ولا يسمح بقذف الخشب في داخل القبة، أما الخيط فيجمع ويربط باللعاب ويقذف في الحائط أو السقف، ولهذا تظهر الحيطان والسقف كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان.

وحاول بعض الدّجالين الذين عجزوا عن مواجهة الحياة، وفشلوا في الحياة الاقتصادية فأرادوا الرزق من طريق القرابين والنذور، حاول هؤلاء أن يصرفوا الناس عن حج بيت الله الحرام فأقاموا بناء مستديرًا كقاعدة عمود سميك وقالوا للناس إن هذا لمكان الذي انشقت فيه الصخرة، وقد صقلت هذه الصخرة بآلاف الأيدي التي مرت عليها وآلاف الشفاه التي لثمتها، وكتبت على الحيطان الآيات القرآنية التي نزلت في هود والأحاديث الموضوعة التي تحض على الزيارة، وتشرف على المسجد قطعة من الصخر يزعمون أنها الناقة المتحجرة، والماء قليل في القرية، وهناك بئر على بعد نصف ساعة من القرية.

وعندما تدلف الشمس إلى الغروب تظهر روعة منظر هذه المنطقة المقدسة إذ تلوح المياه التي تنعكس عليها أشعة الشمس عند مغيبها كأنها خيوط من العسجد، وتتخذ الشجيرات المحيطة بتلك البقعة لونًا بنفسجيًا، وهي اللحظة الرهيبة التي تتبين فيها عظمة الصحراء وحقارة شأن الإنسان إلى جانبها، وعندما يسدل الليل ستاره على هذه البقعة تعج القرية بالصمت والهدوء، وتتراءى الشجيرات كأنها شهود عدل منذ القدم على هلاك قوم عاد بصمتها البليغ الرهيب.

بئر بَرْهوت

تنعقد الخرافات حول بئر بَرْهوت بصورة مضحكة، ومن الغريب أن أساطير كثيرة وردت في كتب لها قيمتها من الناحية التاريخية والجغرافية، ولم يعلق أولئك المؤلفون عليها بشيء، بل سجلوها في كتبهم كأنها حقائق علمية وهي بعيدة عن الحقيقة كل البعد. فمن ذلك ما ذكره الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) والمسعودي في (مروج الذهب) فقال: «يقع بركان وادي حضرموت بين اليمن وعُمان، ويسمع له صوت كالرعد على بعد أميال عديدة، ويقذف أكوامًا من الحمم يسمع لها أزيز مرعب». والقزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) فقال: يقع بئر برهوت على مقربة من حضرموت. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أرواح الكفار والمنافقين تسكن فيه»، وهو من أيام عاد، وقيل إنَّ عليًا كرم الله وجهه قال: إن أكره بقعة في الأرض عند الله هو وادي بَرْهوت، وبها بئر كريهة الرائحة وماء آسن حيث تسكن أرواح الكفار. وقال الأصمعي: حدثني رجل من حضرموت فقال: كلما شممنا رائحة خبيثة في إقليم بَرْهوت علمنا بعد ذلك أن شخصية كبيرة من الكفار قد ماتت. وورد

ذكر هذه البئر على لسان بعض الكتاب الفرنجة الذين لا تختلف أقوالهم كثيرًا عن أقوال الكتاب العرب.

يتصل بَرْهوت بالوادي الرئيسي على مقربة من قبر هود عليه السلام، وهو يتسع في مبدئه ويغطى بطبقة من الطفل ثم يأخذ الوادي في الضيق، ويخترقه ممر ضيق يتعرج بين صخور وعرة المسالك، وتتسع الأرض وتتخللها صخور شاهقة على كل جوانبها، وليس هناك أي أثر يدل على وجود براكين، فهناك طبقة من الصخر الجيري تعلوها أخرى من الحجر الرملي، والبقعة مليئة بالكهوف، ثم يأخذ الوادي في الضيق، ولا أثر لكائن حي في تلك الأصقاع المقفرة، ومن سفح الجبل تتراءى فوهة الكهف السوداء تطل من ارتفاع ٣٠٠ قدم، وهناك طريق معبد معرج في الصخر ولكن جزءًا كبيرًا منه قد تهدم بفعل المياه، وكانت الجمال تسير في هذا الطريق لجلب السماد من البئر وهو لا شك ناجم عن فضلات الخفافيش، ويبلغ طول البئر ١٢٠ قدمًا، وعرضها ٤٥، وعمقها ٦٠، وحافة الكهف منحدرة، والتراب ناعم، والظلام حالك جدًّا، والسكون مخيم لا تسمع إلا صوت الخفافيش التي نجمت منها رائحة خبيثة، والممر يتصل بجزء متسع ثم يأخذ في الضيق ثانية وينتهي إلى دهليز ضيق لا يمكن السير فيه؛ ولا يوجد طريق آخر سوى ممر ضيق على اليمين؛ وتشتد الحرارة كلما يتعمق الإنسان فيه، ويتقاطع الممر مع ممرات أخرى على الجانبين، وهناك أثر كوة نقرت في الحائط.

وأصح ما قيل عن هذا الكهف ما جاء في كتاب (Hathramaut) للسيدين فان درميلن وويزمان اللذين ذهبا إلى حضرموت سنة ١٩٣١م ودخلا بئر برهوت، وها نحن نذكر وصفهما، لذلك الكهف الذي قيل إنه مأوى أرواح

الكفار «... دخلنا وكان ويزمان ذا خبرة بكشف الكهوف، ومعنا الآلات العلمية اللازمة، وفانوس لنختبر به هواء البئر عما إذا كانت به كمية وافرة من الأكسجين، وسرنا بحذر؛ لأن حافة الكهف كانت منحدرة، والتراب ناعم بحيث لا نسمع وقع الأقدام عليه، والظلام حالك جدًّا، والسكون مخيِّم لا نسمع إلا صوت الخفافيش التي نجمت عنها رائحة خبيثة، ثم وجدنا الممر متصلًا بجزء متسع، فسألنا رفاقنا البدو الذين أخذوا بروعة المنظر: هل هذا هو مقر أرواح الكفار؟ فأجابوا: الله أكبر، الله أعلم، ثم أخذ الممرُّ يضيق ثانية، وانتهى إلى دهليز ضيق لا يمكن السير عليه، ولا يوجد طريق آخر سوى ممر ضيق على اليمين، كلما تعمقنا فيه كلما اشتدت الحرارة، ووجدنا أنفسنا مضطرين للعودة بسبب الحرارة والظلام والروائح الخانقة، وكلما تقدمنا تقاطع الممرُّ مع ممرَّات أخرى على الجانبين، ووجدنا آثارًا تدل على وجود إنسان، وأثر كوَّة نقرت في الحائط، وقطعًا من الفحم الخشبي، ولما تقدمنا قليلًا وجدنا مثل ذلك، وقد أخذ الممر يضيق وتزداد حرارته، ولما خرجنا وجدنا أنفسنا نتصبب عرقًا وقد تغطت أجسامنا بطبقة من الثرى فأصبحنا كالوقادين، وكانت بعض الدهاليز الجانبية شديدة الانحدار، وقد دخل فون ويزمان وعلوا أحدها وعلى جانبيه أكدام من الأحجار، وبعد أن سارا مسافة طويلة سمعنا صوت انهيار كدم من الأحجار ولم نر ضوء المشعل الذي معهما، ثم خيم صمت رهيب، وبعد ٢٠ دقيقة ونحن في قلق متزايد خرجا منهوكي القوى، فساعدناهما على الصعود، وكانت الحيطان مغطاة بطبقة بيضاء اللون حسبناها ملحًا، ولما تذوقناها لم نجد لها طعم الملح، وتتخللها أصداف لا عداد لها، فنزعنا بعضها وأخذناه معنا، ولما بحثنا كل الممرات عدنا أدراجنا،

وفي طريق العودة كان الجو يزداد برودة، ولسوء الحظ لم نحضر معنا ترمومترًا حتى نسجل الحرارة، ولما خرجنا وجدنا رفاقنا يغطُّون في سبات عميق، فلما أيقظناهم نظروا إلينا في شيء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا، وانتهينا بعد بحثنا إلى النتيجة الآتية: وهي أن بئر برهوت كهف جيري ليس به أثر بركاني، وأما الروائح الخبيثة فهي ليست ناجمة عن الكبريت، بل عن تحلل الصخور وبول الخفافيش، والسبب في الشعور بالحرارة ليس نتيجة عوامل بركانية، ولكن من تأثير الحرارة الخارجية» انتهى بتصرف.

العودة إلى المُكَلَّا

كانت ليلة طريفة قضيناها في مدينة تَرِيْم الغناء، وكنت أردت الذهاب إلى سد النُّقْرَة في الصباح الباكر قبل عودتي إلى القَطْن، وقد ألَحَّ عليَّ بذلك صديقنا السيد حسن شيبة الذي كان أحد المشرفين على بناء السد ولكن كان برنامج الرحلة لا يسمح لي بذلك، إذ من الضروري أن أكون في سَيْئون قبل الظهر وفي شِبَام الساعة ١٢ ظهرًا لزيارة المدارس، لذلك عدلت عن مشاهدة السدِّ والأسف ملء الفؤاد، وقد أمدني السيد حسن شيبة بمعلومات دقيقة عن بناء ذلك السد العظيم.

مدرسة سَيْئون

في الصباح الباكر ودعنا السادة آل الكاف شاكرين لهم كرم ضيافتهم لنا وحفاوتهم بنا، وفي الضحى وصلنا سَيْئون وذهبنا رأسًا إلى المدرسة لزيارتها فاستقبلنا ناظرها السيد بلفقيه، ودخلنا الفصول وشاهدنا المدرسين وهم يلقون دروسهم على التلاميذ. والمدرسة هي الوحيدة للبنين في سَيْئون وعدد

تلاميذها بضع مئات، وأهم ما يدرس فيها مبادئ العلوم الدينية واللغة العربية، والفصول صحية ولكن ليس بها مقاعد؛ فالتلاميذ يجلسون على الأرض، والمدرسة في أشد الحاجة إلى المساعدة المادية، وإلى تجديد أوضاعها ونظامها وطرق التدريس فيها، وليس الناظر والمدرسون هم فقط المسؤولون عن حالتها الراهنة ولكن أولي الأمر والأغنياء مسؤولون أيضًا، وإنها لجريمة أن يقضى على مستقبل مئات من التلاميذ النجباء.

إن التعليم الصحيح هو أساس كل شيء من مقومات الوجود الإنساني، وإنه إذا لم يصلح التعليم فلا بد أن ينهار كل شيء، إن تثقيف العقول وتقويم الأخلاق أهم من التعمير المادي، إنه أثمن رأس مال للأمة وأمضى سلاح تواجه به أحداث المستقبل، فإن الناشئ الصغير في المدرسة هو العامل غدًا في المصنع، وهو الأب في الأسرة، وهو المواطن الكبير في الأمة، فإذا عنيت الدولة بهذا الناشئ في أوليته فقد ضمنت في المستقبل الشعب كله، وأنشأت الدعامة القوية التي تستند إليها حين تلتمس أسباب الخلاص من الشدائد حين تتحرج، ومن الخطوب حين تتعقد. ومن المقرر أن التعليم الصحيح أقوى سلاح لمكافحة الفقر والمرض، وأن الفقير الجاهل أضيق حيلة، وأضعف وسيلة، وأعجز عن مقاومة البؤس من الفقير المتعلم، لقد قضينا عشرات السنين في تعلم مبادئ العلوم الدينية وقواعد اللغة العربية، والإسلام لا يريد سوى طائفة لتتثقف في الدين، أما السواد الأعظم فيجب أن يأخذ نصيبه من علوم الحياة، ونحن في عصر أصبح الإنسان فيه لا يقاس بحسبه ونسبه، ولكن بعلمه وكفاءته وخبرته بالحياة.

وبعد زيارتنا للمدرسة ذهبنا لزيارة السيد وطس نائب المستشار في منزله الذي يقع خارج سور سَيْئون فاستقبلتنا عقيلته بحفاوة بالغة، وبعد فترة من الزمن شربنا فيها الشاي استأنفنا الرحيل.

مدرسة شِبَام

ولحسن الحظ وصلنا شِبَام الساعة ١٢ وتمكنَّا من زيارة المدرسة قبيل انصراف التلاميذ منها، فاستقبلنا المدرسون بحفاوة بالغة، ولما علموا أني مسافر في نفس اليوم إلى القَطْن أقاموا في المدرسة حفلة تكريم.

والمدرسة حكومية، ولكن مستواها العلمي أقل بمراحل مما شاهدته في المدارس الحكومية بالساحل، وكان يجب أن تكون من أرقى المدارس وأكثرها حركة ونشاطًا، فهي في مدينة تعتبر أم المدن بحضرموت وأكثرها ازدحامًا بالسكان، والشباميون معروفون بالنشاط والحركة وحب العمل، اندهشت من تأخر الدراسة في المدرسة، وبها مدرسان نشيطان مخلصان في العمل وهما الأستاذان بكير وباوزير، ولكن زالت دهشتي عندما علمت أن الناظر -وقد تغيب عن المدرسة في ذلك اليوم- هو الذي يريد أن يسير التعليم في المدرسة على أوضاعه القديمة، وهو الذي يعارض في إدخال أي تجديد وإصلاح في نظام المدرسة وسير التعليم فيها، ويشجعه على ذلك معظم آباء التلاميذ، ولعلهم يرون أنه من مصلحة المدرسة أن تبقى على أوضاعها القديمة، ولكن يجب أن يعلموا أن نظم التعليم في العالم تتطور تبعًا لتطور الزمن، وإن نظام المدارس الذي أَلِفناه من عشرين سنة غير صالح قطعيًا في العصر الحاضر ولا مُجدٍ للنشأة الجديدة. ليس في استطاعة المدارس التي من هذا النوع أن تخلق لنا رجالًا أكفاء، إنه في مقدور أهل شِبَام -وفيهم الموسرون- أن ينهضوا

بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها وبمدينتهم ذات التاريخ المجيد، فلِمَ لا يفكرون كثيرًا ولا قليلًا في مستقبل أبنائهم وإعدادهم للحياة؟

الرحيل

بعد أن تناولنا الغداء في منزل مضيفنا السيد حسين أبي بكر لعْجَم استأذناه في الرحيل وشكرناه على ما أبداه نحونا من العواطف الكريمة والإحساس الرقيق، ولا غرو فباب داره مفتوح على مصراعيه لكل طارق، وتفضل صديقنا السيد وطس نائب المستشار بسَيْئون فأخذني في سيارته إلى حصن زرقانة بالقَطْن فشكرته على هذا الشعور الرقيق والإحساس النبيل، وهرع كثير من الأصدقاء إلى دار مضيفنا السيد علي محسن البكري. وفي المساء أقام أهل الرَّيِّضَة حفلة تكريم لنا في المدرسة وقد أحضروا التلاميذ واختبرتهم فوجدت مستواهم العلمي لا يقل عن مستوى مدارس الساحل.

وأهل الرَّيِّضَة وما جاورها من القرى يشعرون من أعماق قلوبهم وقرارة نفوسهم بعطف كبير نحوي، ذلك لأنهم يعلمون أني قضيت عهد الصبا في الرَّيِّضَة، وبابَكْر، فلا غرو إذا هبوا عن بكرة أبيهم مرحبين بقدومي ترحيبًا منقطع النظير.

العودة على المُكَلَّا

وفي الصباح الباكر ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧م قامت بنا السيارة وكانت مليئة بالمسافرين ولكن محركها قوي فلم يعتره خلل ولا عطب، وعندما وصلنا حَوْرَة ذهبت إلى منزل القائم السيد محفوظ لَرْضي إذ كنت على موعد معه، وبعد نصف ساعة استأنفنا الرحيل وانطلقت بنا السيارة حتى إذا وصلنا عقبة

الجحي أخذنا قسطنا من الراحة، وتناول كل منا طعامه، وقد جلست أنا والسيد علي القانص تحت شجرة نبق نأكل أجود أنواع بلح زرقانة، وكان يحكي لنا ذكرياته الطويلة في جاوة، ومرَّ أمامنا سرب من فتيات الوادي وعلى رأس كل منهن حزمة من الأعشاب.

ومرت سحابة دكناء فغامت السماء، وأسدلت نقابًا على وجهها الصبوح، وأخذت الشمس تبدو من حين إلى حين بخيوطها الذهبية الرقيقة كأنها حسناء تختلس النظرات وتنعكس خيوطها الذهبية على الأحراج والمروج والسهول الرملية، فتزيد منظر الوادي روعة وبهاء. وقبيل الظهر اجتزنا العقبة بسلام واندفعت بنا السيارة في (الجول)، وعلى مقربة من طريقنا يقع المهبط الذي يؤدي إلى وادي الأيمن (ليمن) وعند بداية الممر الذي يؤدي إلى الوادي تقوم قلعة حصينة من الصخر الصلد ومثلها عند الحافة الأخرى، وقلاع أخرى في كل منطقة لتشرف على سلامة الوادي. ومن يقف على هذا المنحدر يقع نظره على بقاع لا نهاية لها ملأى بالصخر الرمادي الداكن، وفي المناطق المنخفضة عالم من الفتنة والجمال، فتسطع الشمس بأشعتها اللامعة على الوادي الساكن العديم الحركة، وتنتشر أحراج النخيل تطاول السماء يخترقها خط أبيض هو قاع السيل، والمدن متناثرة بين كل ذلك، يا له من منظر رائع! فكأنما وادي دَوْعَن فردوس في وسط تلك الصحاري المجدبة، حقًا إنه لخير جزاء لأولئك المنكودين المنهوكين.

... ولفظ النهار أنفاسه وأقبلت كتائب الظلام متلاحقة فشملت الكون، وسرعان ما أحاطت مظاهر الوحشة (بالجول) فاحتواها سكون عميق مخيف ولكنها ساعات معدودات؛ فقد وصلنا المُكَلَّا قبيل منتصف الليل.

الساحل الغربي لحضرموت

لم أتمكن لسوء حظي من الذهاب إلى الساحل الغربي لمشاهدة وادي حَجْر الخصيب، وقد استعد أهل حَجْر لاستقبالي والترحيب بي حين بلغهم عزمي على زيارتهم كما أخبرني بذلك السيد الخلوصي نائب حَجْر السابق ونائب شِبَام اليوم.

نهر دَجْر

أبرز الظواهر الطبيعية في حضرموت نهر حَجْر الذي يصب بالقرب من رأس الكلب، ويكوِّن دلتاه إقليم مَيْفَع الخصيب، ويبلغ طوله ٢٠٠ كيلو متر، وعرضه من ٥-١٠ أمتار، وعمقه من ٥- ٢٥ سنتيمترًا، وهو يشق طريقه في ثلاث خوانق، وعلى امتداده توجد قرى بها أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية.

ووادي حَجْر أغنى منطقة بحضرموت من الناحية الجيولوجية والنباتية، فالطبقات هناك عكسية مكونة من الحجر الجيري الأسود والحجر الرملي، وتروي حقول الذرة والسمسم قنوات تستمد ماءها من ينابيع ذات ماء حار جدًّا قد يصل إلى درجة الغليان وطعمه ملح، وهناك برك ومستنقعات عليها طبقة من الملح، وتكثر أحراج النخيل والأعشاب التي تمتد على طول النهر، وعلى مقربة من الصَّدَارَة توجد ينابيع مياه حارة ويُروى بها النخيل وهي لا تؤذي جذوره.

ويستخرج بعض الأهالي عصارة أثمار النخيل ويشربونها كنوع من المشروبات المخدرة. وتكثر هناك الثعابين والعقارب ولذلك يلبس مرشدو

القوافل في وادي حَجْر نوعًا غريبًا من الأحذية يغطِّي كل القدم من أعلى وأسفل، ويحدث صوتًا عاليًا عند المسير. ويدل وجود تلك الينابيع ذات المياه الحارة على آثار بركانية. وتقع الصَّدَارَة على حافة الجبال الساحلية وهي بركانية.

وتقع مدينة مَيْفَع على مقربة من البحر؛ وهي مدخل وادي حَجْر وأخصب منطقة في جنوب الجزيرة العربية، إذ يغور في أراضيها الجزء الأكبر من ماء نهر حَجْر وغرينه، ولعدم وجود مشروعات لردم تلك المستنقعات وتجفيفها واستغلال الأراضي الخصيبة نجد الحُمّى المتقطعة منتشرة في الأهالي.

وفي الشمال الغربي لمَيْفَع يقع السور المتهدم الذي احتمى به يافع في حرب حَجْر التي انتهت باحتلال الوادي، وعلى مقربة من هذا السور قبور القتلى منهم وعليها علامات من الحجر.

حضرموت قبل الإسلام

يرى الباحثون في تاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها أن المدنية إنما نشأت واستقرت وازدهرت في المناطق الشمالية، وتشمل: العراق والشام، وفي المناطق الجنوبية وتشمل: حضرموت واليمن. وعلى هذا فالمناطق الداخلية والوسطى من شبه الجزيرة صحراوية جافة يندر بها سقوط الأمطار، وتقل فيها النباتات إلا حول العيون والآبار، وأهلها قوم رحل يشتغلون بالرعي ونقل المتاجر على ظهور الجمال.

وحضرموت هضبة عالية يتراوح متوسط ارتفاعها ١٠٠٠- ١٥٠٠ متر، وبعض جهاتها الوسطى ترتفع ٢١٨٧ مترًا عن سطح البحر. ومعظم صخور

الهضبة من المواد البركانية التي تسربت من باطن الأرض في شقوق عدة فظهرت في هيئة براكين مخروطية الشكل تكونت في الأعصر الجيولوجية، وبعضها مغطاة بطبقات من اللافا الغطائية، ويظهر هذا بشكل واضح في وادي حَجْر وفي الغيل والحامِي والدِّيْس حيث تكثر العيون الفياضة. وفي السهول الداخلية تفتت المواد البركانية بفعل العوامل الجوية والأمطار فكونت تربة صالحة للزرع والإنبات، وتشبه التربة هنا أراضي الدلتا في مصر التي تكونت من طمي النيل.

وكانت الأمطار تسقط كثيرًا في الصيف قبل القرن السادس الميلادي أو قبل أن تعتري بلاد العرب الأزمات المناخية، ولما كانت الأرض هناك صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية النبات بها حتى بعد أن ينقضي موسم المطر تكاثرت الخيرات الزراعية وأصبحت حضرموت جنة الله في أرضه. ولقد تحدث اليونان والرومان عن وفرة ماء حضرموت واخضرار مناظرها وعن بساتين الفواكه وحقول التوابل ونباتات البخور التي كانت تصدر من هناك إلى موانئ اليمن ثم إلى شمال الجزيرة وبلاد الرومان.

فحضرموت لم تكن صحراء قاحلة وأراضي ماحلة، لم تكن منطقة بدو ورعاة، وإنما كانت هضبة عالية غزيرة الأمطار الصيفية، غنية التربة، تكسوها الأعشاب والنباتات، وأهلها يفلحون الأرض وينشئون المدنيات العريقة المستقرة، ويهاجر ملاحوهم وتجارهم بعيدًا عن بلادهم ينقلون معهم ثقافتهم السامية.

لهذا لم يكن غريبًا أن تصبح حضرموت موطنًا للحضارات والمدنيات المعينية والسبئية والحميرية التي استمرت نحو ألف وخمسمائة سنة قبل ظهور الإسلام.

هجرة الحضارم إلى الخارج

في القرون السابقة لظهور الإسلام اعترت بلاد العرب أزمات مناخية تمثلت في فترات جفاف شح فيها المطر تدريجيًا منذ القرن السادس الميلادي وازدادت ندرته، فافتقرت الحياة النباتية افتقارًا شديدًا حوالي عام ٥٠٠ بعد الميلاد، ولا يزال معظم تلك الأصقاع يعاني فترة الجفاف حتى الآن.

والأدلة الأثرية توضح تغير الأحوال المناخية وحلول الجفاف التدريجي.

١- ففي حضرموت وظَفَار وشرق اليمن آبار كثيرة، بعضها محفور في سفوح التلال وهي في الوقت الحاضر جافة ويكاد يغيض منها الماء، وكانت فياضة في العصور القديمة. ولما كانت مياه الآبار إنما ترجع في الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة والتي تشربها الأرض، فإن انخفاض مستوى مياه تلك الآبار دليل قاطع على قلة الأمطار في الوقت الحاضر عنها في أيام السبئيين والحميريين.

٢- وفي اليمن وحضرموت مدائن كثيرة ترجع إلى الحضارات المعينية والسبئية والحميرية وهي الآن كلها في مناطق جافة.

٣- وهناك حقول منتشرة قاحلة وأحواض واسعة ماحلة كانت ترويها الأمطار إما بالمباشرة أو بواسطة مشروعات الري كالسدود التي بناها القدماء.

٤- وهناك صهاريج عظيمة خلفها السبئيون والحميريون كصهريج عدن الذي يسع ثلاثين مليون جالون، وهي تقع في ربوات مرتفعة منحوتة في الصخر تتلقى المياه ويستقي منها الناس طوال العام، وفي الوقت الحاضر لا يحدث أن تمتلئ تلك الصهاريج ولا يتجمع فيها غير قليل من الماء لا يلبث أن يأسن.

٥- وهناك ضرب آخر من الأدلة يستخلص مما خلفه القدماء من كتابات وقصص، تدل على أن الأمطار في العصر الجاهلي كانت أغزر وأكثر انتظامًا منها الآن، وعلى أن موارد الماء كانت خيرًا مما آل إليه الأمر قبيل الإسلام؛ فاليونان والرومان تحدثوا عن وفرة مياه حضرموت واخضرار مناظرها الطبيعية وكثرة بساتين الفواكه ونباتات البخور.

اضطر الحضارم أمام هذه الظروف الجغرافية القاسية وتغير المناخ وحلول الجفاف التدريجي إلى النزوح عن بلادهم والهجرة إلى الخارج لطلب الرزق، ولم تكن هذه الهجرة ظاهرة تاريخية بسيطة يمكن نسبتها إلى مجرد ظهور الإسلام وإنما هي قديمة فقد كوّنوا جالية كبيرة في الهند في جدروزيا الواقعة بين جبل كربيلا ومصب نهر السند، وهناك بنوا مدنًا وأنشئوا أسطولًا تجاريًا يغدو ويروح بين الهند وجنوب الجزيرة بأصناف البضائع وأنواع المتاجر. يقول المسيو Guillain في كتابه :(Afrique Oriental، Histoires Le Geographie et le Commerce de L، Documents Sur L)

«قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة في الشرق، فكانت سفنهم تجري في المحيط الهندي وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التي كان لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند هي التي سماها الهنود Arabitoe. ولما أرسل الإسكندر المقدوني نيارك Nearque قائد أسطوله لاستكشاف بحر الهند وجد بسواحل جدروزيا آثارًا دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية، وكان الربان الذي أرشدهم في ذلك البحر عربيًا».

وأهم ظاهرة لهجرة عرب جنوب الجزيرة العربية هجرة قبيلتي تنوخ وقضاعة في القرن الثالث الميلادي إلى نجد، ثم إلى ساحل الأحساء فحدود

العراق الغربية. وقد أرادت إمبراطوريتا الفرس والروم أن تؤمنا حدودهما من ناحية البدو والصحراء فشجعتا على استقرار العرب المهاجرين في دولتين:

إحداهما تحت النفوذ الفارسي وهي دولة اللخميين وأهم مدنها الحيرة (على الفرات قرب كربلاء) وترعى مصالح الفرس من ناحية البادية.

وتقع الأخرى وهي دولة الغساسنة، ومن أهم مدنها بُصرى ودمشق وتحمي مصالح الروم من ناحية البادية أيضًا.

ونشأت اتصالات بين أولئك الأعراب، وأصبحوا بالتدريج رسل التجارة والتبادل بين الإمبراطوريتين، ونشأت الطرق التي تسير عليها القوافل مشرِّقة ومغرِّبة بالسلع والمتاجر بين الفرس والروم، وبين خليج فارس وشرق البحر الأبيض المتوسط، هكذا وجدت العناصر المنتشرة من جنوب الجزيرة ملجأ فأدى ذلك إلى انفراج الأزمة التي ترتبت على طول الجفاف.

حضرموت في العصر الإسلامي

كندة:

قامت دولة كندة على أنقاض الدولة الحميرية، ولم يتجاوز سلطانهم حدود حضرموت، وكان نفوذهم قويًا من نَهْد إلى دَمُّوْن. ولما جاء الإسلام كان الملك وائل بن حجر الذي كاتبه النبي صلى الله عليه وسلم. ومن أمرائهم أبو الفضل العباس بن معن بن حوشب، وآل جعفر الذين ذكرهم ابن عقبة في قصيدته المشهورة:

وبدا الصباح فصبحت من كندة ... بقرار عرصتها سلالة جعفر
أهل المكارم والفضائل والعلا ... ومـــلاذ كـــل مـطـــرد ومـنـفـر
وملوك كندة في القديم وبعدها ... جاء البيان على لسان المنذر

ويوجد من سلالة كندة آل باجَمَّال، وآل بادجانة، وآل محفوظ، وآل دَغَّار، وآل بانجار، وآل علي بالليث، وآل محمد بالليث، وبنو نجيب، وآل مرتع، وآل مخاشن، وباكثير، وبازرعة، وباحنين، وابن حميد، وباقيس، وبابحير، وغيرهم.

امتناع كندة عن دفع الزكاة

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى زياد ابن لبيد الأنصاري يخبره بوفاة الرسول ويأمره بأخذ البيعة من أهل حضرموت، فخرج زياد بن لبيد يدعو الناس لبيعة أبي بكر الصديق فبايعه خلق كثير، وامتنع عن البيعة حارثة بن سراقة بن معدي كرب بن الحارث من عظماء كندة. وامتنع عن دفع الزكاة الأشعث بن قيس من سادات كندة وأغنيائها في كثير من أتباعه، وارتدت بنو وليعة ابن شرحبيل بن معاوية فتركهم زياد وشأنهم.

ويحدثنا التاريخ أن زياد بن لبيد خرج يومًا لأخذ الصدقة فأخذ فيما أخذ بكرة من أحد فتيان كندة، فهاج الفتى وماج وذهب إلى حارثة بن سراقة بن معدي كرب الكندي واستغاث به، فجاء حارثة إلى زياد وأمره أن يطلق للغلام بكرته فامتنع وقال: عقلتها ووسمتها بميسم السلطان فهدده حارثة وأنذره قائلًا له: أطلقها أيها الرجل طائعًا قبل أن تطلقها وأنت كاره، فأبى زياد فوثب حارثة وحل عقال البكرة وضربها فانطلقت تعدو وحارثة يقول:

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمع كما يلمع النوب

ماض على الريب إذا كان الريب

واستغاث زياد بن لبيد بأصحابه وانحاز بنو وليعة المرتدون إلى حارثة بن سراقة، وحدثت معركة بين الفريقين وكاد زياد ينهزم، وفي الليل أتاه عبد له -وكان قد انحاز إلى حارثة- وأخبره أن ملوك كندة الأربعة مخوس ومشرح وحمد وأبضعة في محجرهم قد ثملوا من الشرب فذهب إليهم زياد خلسة وذبحهم وجعل يقول:

نحن قتلنا الأملاك الأربعة حمدًاومخوسًاومشرحًاوأبضعه

واستغاث الأشعث بعظماء كندة وأخذ يحشد منهم جموعًا لمقاتلة زياد، وكتب زياد إلى أبي بكر الصديق؛ فأرسل الصديق إلى المهاجر بن أمية والي صنعاء يأمره بإنجاد زياد، وجاء المهاجر بجيشه ولقوا الأشعث وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. ولما جن الليل لجأ الأشعث وبعض رجاله إلى حصن النُّجَيْر فحاصروهم ومنعوا عنهم الماء والطعام فطلب الأشعث له ولبعض رجاله، فقام إليه معدان بن الأسود بن معدي كرب وقال: اجعلني من العدة فأدخله فيهم وأخرج نفسه ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر فقبضا عليه، وبعثا به إلى أبي بكر الصديق أسيرًا في سنة ١٢ هجرية. ولما حضر بين يدي أبي بكر قال له: فعلت وفعلت، فقال الأشعث: استبقني لحربك فوالله ما كفرت بعد إسلامي ولكني شححت على مالي، فأطلقني وزوجني أختك أم فروة فإني قد تبت مما صنعت، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته، وقد كان تزوجها حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرها إلى أن يرجع، وذهب الأشعث لشدة فرحه إلى سوق الإبل وجعل يعرقب بسيفه كل إبل السوق فبهت الناس وصاحوا: ارتد الأشعث؛ فقال الأشعث: لا والله ولكن خليفة رسول الله زوجني بأخته، وهذه وليمتي فانحروا وكلوا ولو كنا ببلادنا لكانت أضعاف هذه، ثم دفع

للناس أثمان إبلهم. وأقام في المدينة وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون في الدولة الأموية، وسار إلى العراق غازيًا، وتوفي في الكوفة وصلى عليه الحسن بعد صلح معاوية وفيه يقول عمرو بن معدي كرب:

يمنعها شيخ بخديه الشيب ... ملمع كما يلمع النوب
والأشعث الكندي حين سما لنا ... من حضرموت مجنب الذكران
قاد الجياد على وجاها نزبا ... قب البطون نواحل الأبدان

كندة تطالب بالخلافة

كان ذلك سنة ١٢٩ للهجرة حين نهض عبد الله بن يحيى الكندي مطالبًا بالخلافة، كان حاد الذكاء تقيًا ورعًا شجاعًا مقدامًا، ذهب إلى اليمن فرأى المظالم ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها فنقم على الخليفة مروان بن محمد. عاد عبد الله بن يحيى إلى حضرموت وجمع عظماء كندة وحثهم على الرحيل إلى اليمن لإزالة الظلم والمنكر ولنشر العدل والأمن والصلاح. اجتمعت كندة وبايعت زعيمها عبد الله بن يحيى ما عدا ملكهم إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي في دَمُّوْن الذي اضطر أخيرًا لمغادرة حضرموت إلى اليمن، وكتب عبد الله إلى حمزة المختار بن عوف الأزدي البصري الخارجي وأبي عبيدة ومسلمة بن أبي كريمة مولى بني تميم وبلج بن عقبة بالبصرة يشاورهم في الخروج فكتبوا إليه: إن استطعت أن لا تقيم يومًا واحدًا فافعل فإن المبادرة بالعمل الصالح فضل، ولست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه ويخص بالشهادة منهم من يشاء. أخذ طالب الحق -وهو لقب عبد الله- ألفين من خيرة رجاله، وسار بهم إلى

صنعاء بعد أن استخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمي، فقابله القاسم بن عمر عامل مروان على صنعاء في بضعة آلاف من جيشه، وحدثت معركة بين الفريقين في بلج انهزم فيها القاسم، واستولى عبد الله الكندي على صنعاء وخرج إلى الجامع وخطب الناس فقال: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالًا، لا نبغي به بديلًا، ولا نشتري به ثمنًا قليلًا، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وإلى الله المشتكى وعليه المعول...إلخ»[1].

أقام عبد الله بن يحيى أشهرًا في صنعاء نشر في خلالها العدل والأمن، وأعاد للناس حقوقهم المهضومة وأموالهم المسلوبة. وفي شهر ذي القعدة سنة ١٢٩ للهجرة أرسل سبعمائة رجل من خيرة جيشه إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار وبلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح، ولم يستطع عبد الواحد بن سليمان -وهو يومئذٍ الوالي على مكة والمدينة- الصمود أمام جيش الكندي فانسحب إلى المدينة، فدخل أبو حمزة المختار مكة بدون قتال.

وكتب مروان إلى عامله على المدينة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بإرسال جيش إلى مكة لاستردادها؛ فجهز عبد العزيز ثمانية آلاف ولكن أبا حمزة استطاع أن يهزمهم شر هزيمة فقد قتل منهم ٢٢٣٠ نفسًا، واستولى على المدينة سنة ١٣٠ للهجرة، وخرج أبو حمزة إلى الجامع وخطب الناس فقال: «تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا، ولا بطرًا، ولا عبثًا، ولا لهوًا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه؛ ولا ثأر قديم نيل منا،

---

(١) الجزء الأول من (تاريخ حضرموت السياسي)، صفحة ٨١.

ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعُنِّف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض...إلخ»(١).

وغضب مروان بن محمد لهزيمة عامله فأرسل ٤٠٠٠ جندي بقيادة عبد الملك بن عطية، وأعطى كلًا منهم فرسًا ومائة دينار، والتقى الجيشان في وادي القرى في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ، وانهزم جيش أبي حمزة وكان عدده ستمائة جندي وقتل قائده بلج بن عقبة، وزحف ابن عطية واحتل المدينة بعد قتال عنيف، ثم سار إلى مكة فلقيه أبو حمزة وقتل وقتلت امرأته مريم، وأسر ابن عطية ٤٠٠ رجل من جيشه ثم قتلهم جميعًا، وذهب عبد الله بن يحيى الكندي إليه في ألف فارس، ولكن جيش ابن عطية أحاط به من كل جانب؛ فانهزم الكندي وحز ابن عطية رأسه وبعثه مع ابنه يزيد إلى مروان.

واستمر ابن عطية في زحفه إلى صنعاء واحتلها، وهرب فلول جيش الكندي إلى حضرموت واستنجدوا بعبد الله بن معبد الحضرمي، فحشد عبد الله خلقًا كثيرًا من قبائل كندة ونهد وتميم. سار ابن عطية بجيشه إلى حضرموت فلقيه الحضارم في الكَسْر، ولكنهم انهزموا واحتل ابن عطية مدينة شِبَام وأثخن في القتل ونهب الأموال، وجمع ابن عطية أهالي شِبَام عندما جاءه أمر مروان بالعودة وصالحهم على أن يرد إليهم ما عرفوا من أموالهم ويولي عليهم من يختارون فأجابوه إلى ذلك، ثم سار متعجلًا في أربعين من قومه، ولما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الإباضية وقتلوه ومن معه، وبعثوا برأسه إلى شِبَام.

(١) (تاريخ حضرموت السياسي)، الجزء الأول، صفحة ٨٤.

وبلغ الخبر ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن عطية وهو بصنعاء فأرسل شعيبًا البارقي في جيش فقتلوا الرجال، والنساء، والصبيان ونهبوا الأموال، وأخربوا دور هَيْنَن، وقُعُوضَة، وحَوْرَة، وبعض بيوت شِبَام، ثم عادوا إلى اليمن حاملين الأموال والحلي الثمينة.

وكان زحف شعيب البارقي بجيشه الهمج إلى حضرموت ضربة قاضية على الدولة الكندية، وقد أخذ نفوذها يتضاءل حتى تلاشى سنة ٢١٣هـ.

دخول حضرموت في طاعة العباسيين

ففي سنة ٢١٣ للهجرة أرسل والي اليمن محمد بن زياد بن عبد الله بن أبي سفيان إلى ولاة حضرموت يطلب دخولهم في طاعة العباسيين فأجابوه إلى ذلك.

معن بن زائدة

وفي عهد المنصور العباسي عُيِّن معن بن زائدة واليًا على اليمن فأرسل أخاه عاملًا على حضرموت وأقام بتَرِيْم، وكان فاسقًا ظالمًا سفاكًا فقتله أهل تَرِيْم، وانفضّت حضرموت عن معن فغزاهم وأثخن في القتل حيث بلغ عدد القتلى خمسة عشر ألفًا، وسد العيون بالرصاص، وأجبر الناس على لبس السواد وهو شعار العباسيين، ثم عاد إلى صنعاء وأبقى ولده زائدة بن معن واليًا على حضرموت، واستدعى المنصور معن بن زائدة لقتال الخوارج في خراسان فتبعه رجلان من حضرموت واغتالاه أخذًا بثأر أبيهما وعادا إلى حضرموت.

واستمر العباسيون يحكمون حضرموت واستمرت حضرموت في طاعة العباسيين حينًا من الدهر، وحين بدأ الضعف يحل بهم أمسى الولاة لا يفكرون

إلا في مصالحهم الخاصة يجمعون الأموال لأنفسهم بمختلف الوسائل، فانتشر الفقر والجهل والمرض. تحسنت الحالة في عهد الحسن بن سلامة مولى إسحاق بن إبراهيم الملقب بأبي الجيش، فقد عرف بالنزاهة والعدل وحب الخير، حفر آبارًا كثيرة بين حضرموت ومكة، وهو الذي بنى جامعي شِبَام وتَرِيْم، وبعد موته استولى بنو معن وهم الزريعيون على حضرموت.

الصليحيون

وجاء بعد بني سعد علي بن محمد بن علي الصليحي وامتلك حضرموت سنة ٤٥٣هـ، وقيل إنه كان داعية للإسماعيلية، وقيل للمستنصر العبيدي.

آل زريع

وضعف الصليحيون فباعوا ملكهم سنة ٥٤٦هـ لمحمد بن سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بمائة ألف دينار.

بنو المهدي: وفي سنة ٥٦٢هـ انتهى أمر آل زريع على يد عبد النبي بن المهدي، وحكم حضرموت خمسة عشر سنة.

الأيوبيون

وجاء السلطان شمس الدين أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي، واستولى على اليمن وقتل عبد النبي وصلبه في زبيد لظلمه وجوره. ويقول ابن خلدون إن عبد النبي هذا من كبار الخوارج وكانوا يؤمنون بعصمته ويضعون أموالهم تحت يده، وبانتهاء أمر بني المهدي انتهى ملك العرب لليمن وحضرموت.

دولة الغز

وهؤلاء جماعة من الأتراك سطع نجمهم في اليمن ثم أفل، ومن أقواهم شخصية وأسبقهم إلى الظهور في ميدان الحرب والسياسة عثمان بن علي الزنجبيلي، جاء مع توران شاه بن أيوب من مصر إلى اليمن وتولى إمارة عدن من قِبل توران شاه.

ولما مات توران شاه سنة ٥٧٦هـ في الإسكندرية، اشتد الخلاف بين ولاة اليمن الأيوبيين وضرب كل منهم النقود باسمه وانتشرت الفوضى، وكسدت التجارة، وعمت المجاعة، انتهز عثمان الزنجبيلي الفرصة وأعلن استقلاله بعدن وسار إلى حضرموت واحتلها بعد أن قتل كثيرًا من أهلها، وعاد إلى عدن بعد أن أناب عنه عمر بن مهدي على حضرموت.

آل راشد

وآل راشد بطن من حمير كانت لهم في قلوب الناس منزلة دونها منزلة الولاة، واشتهروا بالذكاء، والكرم، والصلاح، وحب الخير، وكان الولاة يستعينون بهم ويتخذونهم بطانة. أعلن آل راشد استقلالهم بحضرموت، وخلعوا طاعة الزنجبيلي فأرسل إليهم جيشًا وأخضعهم وقتل كثيرًا من علماء تَرِيْم الذين حرضوا آل راشد على خلع طاعته، وقبض على السلطان راشد وابنه شجعنة وسجنهما في عدن، ولما قدم طغتكين بن أيوب من مصر إلى تعز وزبيد قبض على العمال المستبدين؛ فخاف الزنجبيلي على نفسه وهرب من عدن في عدة سفن مشحونة بالأموال والنفائس، ولكنها وقعت في يد طغتكين ما عدا السفينة التي بها الزنجبيلي، وسار الزنجبيلي إلى دمشق ومات بها سنة ٥٨٣هـ.

واستطاع راشد وابنه أن يهرب من عدن إلى حضرموت، وقام آل راشد بالأمر في حضرموت نحو ثلاثين عامًا. كان عصرهم من أحسن العصور الإسلامية بحضرموت، وأبرزهم ذكرًا وأبعدهم صيتًا العالم الجليل السلطان عبد الله بن راشد بن قحطان الحميري. ولد في تَرِيْم سنة ٥٥٣هـ، وتربى تربية دينية؛ تفقه في الدين على العلماء أمثال الشيخ محمد بن أحمد بن أبي النعمان الهجراني، والشيخ يحيى بن سالم بافضل، والشيخ أبي بكر بن أحمد بن أبي ماجد، والشيخ فضل بن إبراهيم بن أبي جواس.

كتب العلامة محمد بن أبي الحب إلى السلطان عبد الله بن راشد فقال:

يا عالم الأفضال والجود والكرم ... وعلامة الآداب والعلم والحكم

ويا عصمة الله التي الناس ترتجي ... به دولة يرعى بها الذئب والغنم

وفي أواخر أيامه اعتزل الحكم والسياسة، ولما سئل محمد عن ذلك قال: «ما وجدنا أهل حضرموت يوالوننا على الحق». وفي ليلة الثلاثاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ٦١٢هـ خرج من تَرِيْم ليصلح بين قبيلتين، فقتله ابن مدارة تحت طاحس، ودفن قريبًا من مَرْيَمَة، وبقتله تداعت أركان إمارة آل راشد وآلت للسقوط.

ابن مهدي

سار عمر بن مهدي اليماني بالغز إلى الشِّحْر واحتلها سنة ٦١٢هـ، وطرد منها عبد الباقي بن فارس، وولوا عبد الرحمن بن راشد بن إقبال بن فارس بن محفوظ بن محرم بن فارس.

وسار إلى عَرَف والغيل واحتلهما، ودخل تَرِيْم في ٢٣ جمادى الأولى سنة ٦١٦هـ وأبعد آل راشد، وسار إلى شِبَام واحتلها عنوة من بني حارثة، ثم سار

إلى دَوْعَن فقاتل الدوعنيين قتالًا عنيفًا حتى أخضعهم، وأخرب مدينة قَيْدُون وأخذ الأموال والمواشي والأغنام، ولعل قتل السلطان عبد الله بن راشد كان بإيعاز من ابن مهدي؛ فقد خرج من تَرِيْم في الليلة التي دخلها ابن مهدي. وعلى الرغم من شدة أعمال ابن مهدي وقسوة أحكامه وصرامة أوامره، فإن حضرموت لم تصف كلها له؛ فقد استمرت المشاغبات والاضطرابات تقلق راحته وتزعزع مركزه، وقد انتفضت عليه حَجْر وهو في اليمن فاستأذن المسعود بن كامل الرسولي، وذهب إلى حَجْر وفتك بكثير من أهلها ونهب الأموال وسبى الرجال.

واستمر ابن راشد يؤدي الخراج لملوك الغز. ولما استولى نور الدين الرسولي على الشِّحْر وحضرموت عزله وجعل على الشِّحْر رجلًا من الغز ونقيبًا، فثار الخلاف بينهما بعد سنتين وقتل النقيب الأمير وندم نور الدين لما صار من النقيب، واستدعى عبد الرحمن بن راشد وولَّاه الشِّحْر فضبطها له وحكم بالعدل ونشر الأمن فأحبه الناس.

ولما استولى الملك المظفر قدم له هدايا فاخرة فأبقاه الملك المظفر على الشِّحْر، وظل ابن راشد حاكمًا على الشِّحْر حتى مات سنة ٦٦٤هـ ودفن بالشِّحْر.

وقام بالأمر بعد راشد بن شجعنة بن ناجي بن راشد ابن أقبال، ولم تطل مدته إذ تغير عليه المظفر وسجنه في زبيد.

نَهْد

وثارت نهد على عمر بن مهدي وهو في شُحُوح وقتلته في كثير من خيرة أصحابه، واندفعت نحو شِبَام واحتلتها واحتلت تَرِيْم وضواحيها، وأطلقت

سراح أولاد السلطان عبد الله بن راشد الذين سجنهم ابن مهدي وأقاموا في الشِّحْر.

آل مسعود

واستطاع مسعود بن يماني التميمي أن يركز السلطة في يده ويقوم بأمر تَرِيْم، وكان مولعًا باللهو مندفعًا نحو اللذات والشهوات، ولكن استطاع شيخه علي بن محمد الخطيب أن يصرفه عن ذلك ويقيم اعوجاجه ويوجهه التوجيه الحسن إلى أن مات، ودفن بمقبرة الفريط بتَرِيْم إلى جانب شيخه. وقام بالأمر بعده ابنه يماني، وكان كثير الحروب محبًا للمشاغبات. وفي سنة ٦٥٣هـ اشتد الخلاف بينه وبين أحمد بن لبيد وثارت الفتنة بينهما، ولم تستقر الحالة ويستتب الأمن في تَرِيْم وضواحيها إلا في عهد ابنه السلطان عبد الله بن يماني بن عمر بن مسعود التميمي المتوفى سنة ٧٣٥هـ.

الحبوظي

وفي سنة ٦٧٢هـ خرج سالم بن إدريس الحبوظي من ظَفَار إلى حضرموت بأموال طائلة، واشترى مدينة شِبَام، وذهب إلى نَهْد وجنَّد كثيرًا منهم، وسار بهم إلى تَرِيْم وحاصر ابن مسعود ثلاثة أشهر حتى اضطر إلى التسليم، وسار إلى دَمُّوْن وسَيْئون واحتلهما، واضطر الحبوظي أن ينسحب من تَرِيْم تحت ضغط ابن شماخ، وعاد سالم بن إدريس الحبوظي إلى ظَفَار بعد أن ترك ابنه موسى واليًا على شِبَام، وبعضًا من آل كثير على القرى.

عاد الحبوظي إلى ظَفَار بعد أن أقام في تَرِيْم تسعة أشهر لم تقم فيها جمعة؛ لجلاء السكان عنها مما نزل بهم من الخراب والدمار.

وحلت بحضرموت مجاعة مات بسببها خلق كثير، فسافر وفد من الحضارم إلى ظَفَار وطلبوا من سالم ابن إدريس الحبوظي ما يدفعون به تلك المجاعة على أن يسلموا له مصانع حضرموت (مصانع النسيج واستخراج الزيت من السمسم) وقلاعها فأجابهم إلى ذلك، وقيل إنه سار معهم إلى حضرموت وسلم إليهم المال، ولما عاد إلى ظَفَار مال الحضارم على حصونهم حيلة وأخذوها من نوابه طوعًا وكرهًا.

وحدث أن الملك المظفر أرسل هدايا فاخرة إلى ملوك الفرس على سفن شراعية فألقتها الريح إلى ساحل ظَفَار، وقبضها سالم بن إدريس ليجني ما فات عليه مع الحضارم، فأرسل إليه الملك المظفر يستعطفه ولكن من غير فائدة.

وكان حاكم الشِّحْر راشد بن ناجي بن راشد يحمل الخراج في كل سنة للملك المظفر، فلم يزل به سالم بن إدريس الحبوظي حتى ضمه إليه وتمالأ معه على حرب المظفر طمعًا في ملك الشِّحْر، وبلغ ذلك المظفر فأمر نائبه بعدن، وهو الأمير شهاب الدين غازي المعمار أن يغزو ظَفَار فغزاها بحرًا ولكنه فشل، فسار المظفر بنفسه إلى عدن وجهز خمسمائة فارس وسبعة آلاف راجل وغزا ظَفَار من ثلاث نواح:

الأولى: من البحر بقيادة سيف الدين سنقر نقيب المماليك البحرية.

الثانية: من طريق الساحل بقيادة حسام الدين لؤلؤ.

الثالثة: من طريق حضرموت بقيادة ابن شماخ النهدي.

والتحم القتال بين الفريقين في يوم السبت ٢٧ رجب سنة ٦٧٨هـ، وقُتل الحبوظي وانهزم جيشه شر هزيمة، واحتل المظفر مدينة ظَفَار وخُطب له في المساجد.

وفي رمضان من السنة المذكورة تسلمت عساكر المظفر مدينة شِبَام وغيرها من مدن حضرموت، وأناب عنه الأمير محمد بن محمد بن ناجي. ومات المظفر سنة ٦٩٤هـ فخلفه ابنه عمر. وكان أخوه المؤيد بالشِّحْر حين مات المظفر فدعا إلى نفسه، ولكن أخاه عمر سار إليه واعتقله ومات مسمومًا من جارية سنة ٦٩٦هـ.

وتقلص نفوذ آل مظهر في حضرموت وانهار جاههم، فعادت الدولة إلى آل يماني وآل راصع، وظلت قائمة إلى أوائل القرن التاسع حيث ظهرت إمارة آل عبد الله على سَيْئون وتَرِيْم ولكن الأمر لم يلبث إلا قليلًا، فقد استعاد آل يماني وآل راصع إمارتهم على تَرِيْم وسَيْئون، واستمرت نَهْد قائمة بأمر المدينتين وضواحيهما إلى أن جاء بدر بوطويرق الكثيري سنة ٩٢٦هـ فأنشأ الدولة الكثيرية.

الدولة الكثيرية

في سنة ٨٢٢هـ اشتد النزاع والخلاف بين آل راصع، فقد ثار محمد بن راصع النهدي على عمه دويس بن راصع في تَرِيْم، واستولى على كثير من بلاد حضرموت وترك لعمه دَمُّوْن، وانتهز الفرصة عبد الله بن علي بن عمر الكثيري صاحب ظَفَار، وهجم على تَرِيْم بمائة فارس وألف وخمسمائة راجل، فقابلهم دويس بن راصع وهزمهم وقتل جماعة؛ من أشهرهم: علي بن بدر الكثيري، ومحمد بن عبد الله بن طوق.

قال الجندي: «وولاية حضرموت في عصرنا وما قبله لقبيلة بني راصع من نهد، منهم في عصرنا دويس بن راصع النهدي. وأما ظَفَار في عصرنا وما قبله فلبني كثير محمد وعبد الله، وقد خرجوا على صاحب تَرِيْم دويس بن راصع ونهبوا وقطعوا نخلًا وهموا بنهب المدينة فمنع الله من ذلك».

وحاول بدر بن عبد الله بن علي بن عمر الكثيري احتلال تَرِيْم سنة ٨٦٥هـ فلم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

وفي أواخر سنة ٨٦٥هـ مات سلطان بن دويس بن راصع، فخسرت حضرموت بموته حاكمًا عادلًا حازمًا، وخلفه ابنه أحمد. واستمرت الفتن بين آل كثير ونهد، وكان الظلفان ألد خصوم آل جعفر بن بدر الكثيري، وأعنف المعارك بين الفريقين كانت سنة ٩٠٩هـ.

ذكر سنبل أن مجلب بن عقيل الأظلفي تسوَّر مصنعة مَرْيَمَة ليلة النصف من صفر سنة ٩١٣هـ، وقتل محمد بن جعفر بن عبد الله الكثيري وهو راقد بجانب زوجته بنت محمد بن جميل الحارثي، فغضب آل كثير وانطلق جماعة منهم ومن سكان بُور للأخذ بالثأر وأدركوا جماعة من آل بَلْعَلا وقتلوا ثلاثة منهم.

ولعل احتلال آل كثير لبُور سنة ٧٢٣هـ أول مظهر لسلطانهم في حضرموت، وكانت بُور لآل بانجار. ويقول ابن حميد: إن آل كثير حين هجموا على بُور قتلوا جماعة من آل بانجار منهم أربعة ولدوا في يوم واحد واختتنوا في يوم واحد، وختموا القرآن في يوم واحد، وشرعوا يصلون في يوم واحد.

ولكن نفوذ آل كثير لم يظهر إلا في سنة ٨٩٤هـ و١٤٨٩م وذلك بعد أن استولى بدر بن محمد بن عبد الله بن علي بن عمر الكثيري على تَرِيْم بمساعدة آل عامر يوم الأربعاء ٢٢ جمادى الأولى سنة ٨٨٩هـ، وقتل جماعة أشهرهم: علي بن عبد الله المنقوش، وعلي بن يماني، وأربعة من آل دبيح، ولكنه اضطر تحت ضغط آل راصع أن يسلم مدينة تَرِيْم لعبد الله بن راصع سنة ٨٩٦هـ.

وحاول آل كثير والصبرات سنة ٩١٠هـ احتلال تَرِيْم، وفيها يومئذ بنو جسار وبنو حارثة فانهزموا. وأخيرًا في سنة ٩١٤هـ أغار عليها بدر بن محمد بن عبد

الله الكثيري بآل محمد وآل جعفر، ولكن محاولته كان نصيبها الفشل، فقد أقصاهم عنها السلطان محمد بن أحمد بن سلطان بن دويس بن راصع النهدي.

وهكذا حاول آل كثير مرارًا احتلال تَرِيْم، وظلوا يتلهفون للاستيلاء عليها، إلى أن جاء بدر بوطويرق الكثيري وأغار عليها بجيش واحتلها سنة ٩٢٦هـ، واستطاع بسياسته، وكياسته، وحزمه، وشجاعته، أن يوطد دعائم سلطانه فيها، ونال آل كثير شهرة واسعة تحت قيادته.

نشأة بدر بوطويرق

ولد السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن علي بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن عمر الكثيري سنة ٩٠٢هـ، اشتهر بالذكاء والدهاء والشجاعة والكرم والنشاط وحب العمل، كان طموحًا إلى العلا شغوفًا بالزعامة والرئاسة، استطاع بقوة شخصيته أن يجمع السلطة في يده وينفرد بها بين شخصيات أكبر منه سنًا وأكثر خبرة وأقوى عصبية، استطاع أن يقضي على نفوذ آل صبرات وآل أحمد وغيرهم، ويهزمهم في ميدان السياسة والحرب.

جاء جده جعفر من ظَفَار سنة ٩٠١هـ ومعه ابنه عبد الله والد السلطان بدر واحتل الشِّحْر عنوة وطرد منها سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي.

وفي سنة ٩٢٥هـ استبد بالأمر آل محمد وهم من عشيرة السلطان بدر في شِبَام وغيرها وخرجوا عن طاعته، فأنذرهم السلطان بدر فلم يذعنوا لأمره ولم يبالوا بوعيده، بل زاد تمردهم وأخذوا يؤلبون القبائل ضده، فخافهم السلطان بدر وسافر إلى اليمن في شهر ذي الحجة سنة ٩٢٥هـ وطلب إلى الإمام أن يمده بجيش لاسترداد سلطته وتوطيد مركزه بحضرموت، وعاد السلطان بدر إلى حضرموت على رأس خمسة آلاف مقاتل، واحتشدت قبائل نهد في بحران

لتصد السلطان بدر، فالتقى الفريقان وكان النصر لبدر واحتل بحران، ثم سار إلى شِبَام واحتلها في رجب سنة ٩٢٦هـ وشتت شمل آل محمد وحصنها، ثم استأنف زحفه ليقضي على فلول آل محمد، واحتل تَرِيْم في محرم سنة ٩٢٧هـ وأقصى عنها محمد بن أحمد بن جردان، وسار إلى هَيْنَن واستولى عليها وجعل عليها عبد الله بن علي بن عمر المرهون.

وفي سنة ٩٣٤هـ أصدر أمره بضرب النقود باسمه. وعندما احتل حُرَيْضَة سنة ٩٣٤هـ من آل علي بن فارس النهدي غضبت نهد، وحشد محمد بن علي فخائذ نهد، ولكن السلطان بدر هزمهم وأسر زعيمهم محمد بن علي، فشق ذلك على نهد واشتد غضبهم ودامت المناوشات وقتًا غير طويل إلى أن أطلق بدر سراح محمد بن علي بن فارس. وحاول ثابت بن علي النهدي أن يقضي على سلطة بدر، فهجم بقومه على القِرَين واحتلها سنة ٩٤٠هـ، فسار إليه بدر بجميع عسكره وقضى على جميع محاولاتهم وأزالهم من الكَسْر كله، ولم يعودوا إليها إلا بشفاعة بعض ولاة اليمن.

وفي سنة ٩٤٨هـ انتفضت عليه عَمْد والهَجْرَين فسار وقضى على المشاغبات واحتل وادي عَمْد وألقى القبض على حاكمها فارس بن عبد الله ابن علي النهدي.

غَيْل بن يُمَيْن

وكانت نقطة ارتكاز قبائل الحُمُوم يشنون منها غاراتهم على القوافل، سار إليهم السلطان بدر بوطويرق سنة ٩٣٦هـ واحتلها عنوة ونهب أموال سكانها؛ الأمر الذي أغضب أخاه محمد بن عبد الله. وأراد الحُمُوم الانتقام من السلطان بدر فأظهروا الخلاف والتمرد عليه ونهبوا الناس وقطعوا الطرق،

فاضطر السلطان بدر أن يظهر الطاعة لأخيه محمد وأن يمنحه غَيْل بن يُمَيْن، وقيل: إن محمد بن عبد الله رد الأموال المنهوبة إلى أصحابها.

السلطان بدر والبرتغاليون

في أيام بدر كانت شواطئ حضرموت مسرحًا لهجوم عصابة من القرصان البرتغاليين، ففي سنة ٩٣٨هـ هجموا من البحر، فخاف الأهالي واستطاع بعض التجار أن يفروا ببضائعهم إلى تَبَالة، ولم تحدث خسائر تذكر في الأموال، ولكن سليمان أبو بكر باهبري وهو من أتباع العمودي شيخ دَوْعَن انتهز الفرصة وهجم بمائة وخمسين رجلًا من البادية على تَبَالة في ليلة الأحد ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٩٣٨هـ ونهب كل البضائع المخزونة وعاد إلى دَوْعَن.

وفي ذي القعدة سنة ٩٤٢هـ نزل الفرنجة في ميناء الشِّحْر وأسروا عددًا من النساء والأطفال، ولكن السلطان بدر صالحهم بعد أن استرد الأسرى بعدد كبير من البقر والغنم وأهدى لقبطانهم حصانًا جميلًا وفرسين لبعض أتباعه، وطمع القرصان فعادوا في السنة المذكورة وهجموا على الشِّحْر فصدهم السلطان بدر وردهم على أعقابهم تاركين وراءهم ثلاثين قتيلًا وأربعين أسيرًا وعلى رأسهم القبطان، واستولى على أموالهم وبعض سفنهم.

دخوله في طاعة العثمانيين

ولما اشتد ضغط البرتغاليين على الشِّحْر اضطر السلطان بدر إلى قبول سيادة الدولة العثمانية عليه، وصدر فرمان بذلك من السلطان سليم الأول سنة ٩٤٤هـ.

آل العمودي

وهم من سلالة العالم الورع الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وينسبه الأكثرون إلى الصديق رضي الله عنه؛ وقيل إن نسبه يرجع إلى حمير. ويقول السيد عبد الرحمن بن عبيد الله: إنه اطلع على مصحف موجود بجامع رحاب فوجد فيه ما نصه: «كتب هذا المصحف مالكه بل مملوكه عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن أحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن محمد ابن الشيخ سعيد بن عيسى العمودي بن محمد بن سعيد بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن أبي بكر بن طلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق» ومثل هذا مكتوب في رسالة بمكتبة عبد الله باعفيف بمدينة كَنِيْنَة.

اشتهر الشيخ سعيد العمودي بالذكاء الخارق وقوة الذاكرة وسرعة الفهم والإدراك، وكان أميًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، تقيًا صالحًا، جوادًا شجاعًا، ولما شعر الشيخ أبو مدين بقرب أجله في مكة أوصى إلى الشيخ عبد الله المغربي بأن يؤدي خرقة التصوف إلى الشيخ سعيد بن عيسى العمودي فلبسها؛ وعلى هذا فهو أول من تصوف بحضرموت.

وفي سنة ٦٧١هـ انتقل إلى الدار الآخرة، وخلفه ولده الشيخ محمد بن سعيد، وعرف بحب الإصلاح بين الناس وحب الخير فأحبه الناس، وكان لا يرد له أمر ولا يرفض له طلب، وفي عهد أحفاده تطور ذلك المنصب الديني إلى مركز سياسي، فقد صارت كلمته هي العليا ونفوذه دونه كل نفوذ في الواديين: الأيمن والأيسر.

ولسوء الحظ لم يكن الشيخ سعيد ولا ابنه عثمان ولا حفيده عبد الله سياسيًا حازمًا؛ فلو أنهم حافظوا على كيان دولتهم وأحاطوها بالعدل لاستطاعوا أن

يملكوا حضرموت ويمدوا سلطانهم على كل البلاد، أجل لم يحسنوا سياستها ولم يحفظوها بالشكر فدب إلى دولتهم التلاشي والانحلال.

وعندما جهز البرتغاليون على المشقاص بأربع عشرة سفينة سنة ٩٣٤هـ استنجد الأهالي بالشيخ عمر بن أحمد العمودي فسار إليهم في جماعة من أولاده وأقاربه وفقهاء قَيْدُون فصرف الله البرتغاليين عن الشِّحْر والمشقاص، وكان الشيخ عمر من كبار العلماء ومن أقطاب المتصوفين، وقد تقيد في أحكامه بالنصوص الشرعية، وكان عادلًا لا يحابي أحدًا؛ الأمر الذي دفع بعض الناس إلى كراهته وتدبير مؤامرة لقتله وتولية أخيه عثمان، ولما بلغه ذلك عزل نفسه من الحكم حقنًا للدماء، وذهب إلى الحجاز وتوفي بالقنفذة سنة ٩٤٧هـ.

بين العمودي والسلطان بدر

ولما سطع نجم بدر بوطويرق واتسع نفوذه خاف العمودي فتعاهد مع نَهْد وكوَّن جبهة ضد الكثيري، ولكن السلطان بدرًا هاجم وادي دَوْعَن في رمضان سنة ٩٤٨هـ قبل أن يتم استعداد العمودي ونهد، واحتل قَيْدُون وفتك بأهلها وفعل عسكره بها فعلًا قبيحًا، فلجأ النساء والأطفال إلى الجامع. وكان الشيخ عثمان بن أحمد العمودي في بُضَة وأخواه عبد الله ومحمد في حصن قَيْدُون فأخرجتهما منه سَيْبَان وآل باهبري. ولما أراد إمام الجامع وهو العلامة عبد الله بن عمر بابشير أن يحرم بصلاة الفجر صاح بعضهم في وجهه فانزعج وشهق شهقة طويلة خر بعدها ميتًا. وضرب السلطان بدر مدينة قَيْدُون ونقل أهلها إلى صِيْف ولم يبق بها إلا ستة بيوت، واستمر بدر يحارب العمودي، ثم عرض عليه الصلح بعد أن عقد صلحًا منفردًا مع نهد آل عامر، ولكن العمودي رفض الصلح فعاد بدر من الخُرَيْبَة إلى بُضَة وهدم ساقيتها وبنى عليها ثلاثة حصون.

وفي سنة ٩٤٩هـ حط الشيخ عبد الله بن أحمد العمودي على فُوَّة وبمعيته جماعة من آل باهبري وسَيْبَان وأتلفوا نخلًا كثيرًا ثم صالحهم أهلها بعد ثلاثة أيام على مال دفعوه لهم، وأخيرًا تم الصلح بين العمودي والكثيري سنة ٩٥١هـ، وفي رواية سنة ٩٥٥هـ، ولكن العمودي ظل مشغول البال مضطرب الفكر من استعدادات السلطان الكثيري.

وفي ١١ محرم سنة ٩٦٥هـ توفي الفقيه الشيخ أحمد بن عثمان بن أحمد العمودي. وفي ٢٩ رجب سنة ٩٦٧هـ توفي الشيخ عبد الرحمن بن عمر ابن أحمد العمودي.

نهاية السلطان بدر

استطاع السلطان بدر بوطويرق بسياسته وقوة جيشه أن يقضي على تعدد السلطات في حضرموت ويركزها في يده، واستطاع أن يمد نفوذه على معظم حضرموت وظَفَار، وجعل ولاية العهد لابنه عبد الله، ولكن ابنه هذا خرج عليه وهجم عليه وهو في حصن سَيْئون في ليلة الجمعة ٢٣ ربيع الثاني سنة ٩٧٦هـ، وألقى القبض عليه وسجنه أيامًا ثم نقله إلى حصن مَرْيَمَة، ومكث السلطان بدر مسجونًا فيه أكثر من سنة، ولما مرض واشتد به الألم أعاده إلى حصن سَيْئون حيث أدركته الوفاة في رمضان سنة ٩٧٧هـ، فحزنت عليه الأمة أشد الحزن.

ابن مطهَّر العمودي

واستطاع الشيخ محمد بن مطهَّر العمودي أن يقوِّي مركزه ويوطِّد سلطته، وفي سنة ١١١٥هـ هجم على القِزة وضرب مجرى الجابية وأتلف نخلًا كثيرًا

ومكث بها خمسة أيام. وفي محرم من السنة المذكورة أرسل السلطان عيسى الكثيري ابنه جعفرًا على رأس قوم إلى دَوْعَن، فلقيهم أصحاب العمودي، وتقدم عليهم جيش جعفر وهم ينهزمون، وقد دبر العمودي لهم مكيدة بكمين وضعه لهم فثار عليهم من خلفهم وفتك بعدد كبير من جيش جعفر، ولم يثبت في المعركة سوى جماعة من يافع، وحين اشتد بهم العطش ذهبوا إلى جبل به عين ماء أرشدهم إليه عبد الله الحميدي، ولما وصلوا إلى العين قابلهم جماعة من أصحاب العمودي وفتكوا بهم، وعاد جعفر بفلول جيشه إلى الهَجْرَين، وكتب إلى أبيه بالخبر فأعد السلطان عيسى جيشًا، ولكن الشيخ سعيد بن عبد الله باوزير توسط لعقد صلح بين الكثيري والعمودي فتم ذلك على يده لمدة أربعة أشهر. وفي رمضان سنة ١١٢٣هـ أغار الشيخ حسن بن مطهر العمودي على الهَجْرَين بقوم ونهبوا الأموال والمواشي، وسار إليهم عمر بن جعفر الكثيري ومعه أبناء السلطان عيسى بن بدر وأكثر من مائتي مقاتل من يافع فقابلهم العمودي بقوم من آل باهبري وسَيْبَان بقرب شرج باصقر ولكنه انهزم، وأراد عمر بن جعفر أن يتعقبهم إلى دَوْعَن غير أن الشيخ علي بن سعيد باوزير عقد صلحًا بين الفريقين.

السلطان عبد الله بن بدر الكثيري

بعد أن سجن عبد الله أباه احتل الحصون وأخذ الهَجْرَين، ورَخْيَة، وهَيْنَن، وجزءًا كبيرًا من عَمْد ودَوْعَن، وأرسل إليه إمام اليمن المؤيد بالله محمد بن المنصور القاسم بن محمد بن علي يتودد إليه ويدعوه لطاعته. ومات السلطان عبد الله في ٢٤ ربيع الأول سنة ٩٨٥هـ فقام بالأمر بعده ابنه جعفر، وكان هذا ضعيف الرأي سريع الغضب، اشتبك مع نَهْد في عدة وقائع حتى قتلوه

سنة ٩٩٠هـ، وخلفه ابنه عبد الله بن جعفر، ولم تطل أيامه؛ فقد عاجلته المنية وهو في ريعان شبابه. وقام بالأمر بعده عمر بن بدر وكان عادلًا عالمًا أديبًا لينًا متسامحًا، قيل إنه حفظ البخاري من كثرة قراءته له، مدحه الأديب الشيخ عبد الصمد باكثير بعدة قصائد، وأطنب في مدحه والثناء عليه صاحب (النور السافر)، وفي آخر أيامه تأثر بالتصوف والمتصوفين فكان يقضي معظم أوقاته في دراسة الكتب الدينية، ومات سنة ١٠٢١هـ.

قام بالأمر بعده ابنه عبد الله وكان عادلًا كريمًا كثير التصوف والزهد، مدحه الأديب الشيخ عبد الصمد باكثير بقصائد من روائع شعره.

ولم يفكر السلطان عبد الله بن عمر الكثيري في الدخول في طاعة إمام اليمن، ولم يظهر شيئًا من الولاء له والتقرب إليه، ولم يبادله الهدايا الفاخرة التي كان يرسلها له بل تأفف برسله الذين حملوا إليه الهدايا وتهكم بهم، ولعل هذا هو الذي دفع بالمطهر بن محمد الهادي الجرموزي للتحامل عليه واتهامه له بكراهية آل البيت؛ على أن أخاه الأمير بدر بن عمر كان على العكس من ذلك، فقد كان يظهر التودد للإمام والتقرب إليه، ولما حج السلطان عبد الله بن عمر سنة ١٠٤٠هـ واستخلف أخاه بدرًا تبادل مع الإمام الرسائل والمكاتبات، ولعل هذا التقرب أو التملق من بدر للإمام هو الذي أثار حفيظة ابن أخيه بدر بن عبد الله ضده ودفعه للتظاهر بالكره والعداء له وللإمام، وكانت تلك الرسائل التي كان يبعثها بدر مليئة بالوشايات ضد ابن أخيه بدر بن عبد الله الكثيري.

سافر السلطان عبد الله بن عمر إلى الحجاز سنة ١٠٤٠هـ، وفي رواية أنه تنازل قبيل سفره عن الملك لأخيه بدر؛ ليتفرغ للعبادة ويزهد في الدنيا، ومات بمكة سنة ١٠٤٥هـ. واستمر السلطان بدر بن عمر يوطد علاقاته بالمتوكل

إسماعيل إمام اليمن ويرسل إليه الهدايا والأموال التي كان يجمعها من الشعب بالقوة، ولقد تمادى في غيِّه كما قال باعباد وسرعان ما كرهه الشعب وضاقوا به ذرعًا، بينما استطاع بدر بن عبد الله بن عمر أن يحبب الناس فيه ويستميل قلوبهم إليه لا بتظاهره بكراهيته للإمام فحسب؛ بل بحسن سياسته ولباقته، ومن أبرز الناس الملتفين حوله قبيلة آل كثير الذين مالوا إليه كل الميل في الوقت الذي انفضوا فيه من حول بدر بن عمر وإخوته وأبنائه ونفروا منهم كل النفور.

اعتقال السلطان بدر بن عمر

وجد بدر بن عبد الله الفرصة سانحة لتولي الحكم، وقد شجعه على ذلك التفاف آل كثير حوله وحبهم له وكرههم للسلطان بدر بن عمر، فوثب هو وإخوته على عمهم السلطان بدر بن عمر واعتقلوه وأولاده وصادروا أملاكهم، وتولى الحكم، فأقام العدل ونشر الأمن، فأحبه الناس ووثقوا به وكان موضع آمالهم وقبلة أنظارهم، قال الجرموزي: «وكان هوى آل كثير وميلهم مع أولاد السلطان عبد الله بن عمر؛ فاحتال هؤلاء على عمهم وقبضوا عليه وعلى أولاده وجميع ما يملكه وجعلوه في حصن لهم، وحلف آل كثير للسلطان بدر بن عبد الله بن عمر فساس البلاد وأطاعه أهلها، وكانت له ملابسة السياسة ومراعاة أسباب الرئاسة فكان أكمل من عمه وأنهض، فأحبه أهل تلك الجهات، ولكونه لم يوال الإمام».

علاقة السلطان بدر بالإمام

وعلى الرغم من كره السلطان بدر بن عبد الله لإمام اليمن المتوكل إسماعيل وعدم الاعتراف بالطاعة له فإن المكاتبات لم تنقطع بينه وبين الإمام،

وقد أظهر السلطان شيئًا كثيرًا من الدهاء والمرونة فقد جاء في إحدى رسائله:

«... إذ الآل سفينة النجاة، المرء مع من أحب، وقد خامر حبكم منا الأرواح ومازج الأشباح». وفي رسالة أخرى: «... ونحن إن شاء الله على قدم الطاعة لم نبرح قائمين لكم ما ترضونه منا ولم ننفك عن لزوم محبتكم... فمن انفك عن ربقة طاعتكم فقد غمر في أعمق بحار الخطر، وعدم في الدنيا والأخرى النجح والظفر، ولسنا نجهل أن مصير من بغض آل البيت المحمدي إلى سقر، إن حبكم الوسيلة العظمى إلى رضا الله الواحد الأكبر».

ولما بلغ الإمام نبأ اعتقال السلطان بدر بن عمر ثار غضبه وعد ذلك إهانة موجهة إليه لأنه يرى السلطان إنما أخذ ظلمًا بجريرة موالاته له، هاج وماج وأرسل للسلطان بدر بن عبد الله رسالة في رمضان سنة ١٠٦٥هـ يأمره بإطلاق سراح عمه، واسترداد ظَفَار من يد أخيه جعفر والقبض عليه.

وأطلق السلطان بدر سراح عمه وابن عمه وأخيه علي وابن أخيه بدر بن جعفر، وكتب بذلك للإمام في رمضان من السنة المذكورة. أما ظَفَار فلم يحاول استردادها لأن آل كثير لم يوافقوا على ذلك خوفًا من أن تخلفهم جنود الإمام في حضرموت، وقد ملأ رسالته بعبارات التودد والإخلاص، وإظهار الولاء والطاعة؛ الأمر الذي دفع الجرموزي إلى أن يصفها بالتلون والمداجاة.

ومن الأسباب التي قدمها السلطان للإمام في اعتقال عمه أنه أساء معاملتهم وضيق الخناق عليهم حين كان حاكمًا بالنيابة عن السلطان، وفي ذلك يقول: «... فحل بنا من ضيق المعاش ما يهون مقاساة الموت دون مقاساته، وصبرنا على ذلك حتى عيل بنا الصبر، ولما خشينا على أنفسنا الهلاك قدمنا على العم بدر وأولاده وما ظننا أن نسلم من قبل ذلك الأمر، ولما ضممنا قمنا بهم

وبمكالفهم، وممن يلوذ بهم، وقمنا لهم بالواجب من النفقات وغيرها، وما كان سبب طلوعنا على العم بدر إلا خوفًا على أنفسنا، وربما رفعوا إليكم أعداؤنا وحسادنا أن لا سبب لثأرنا على العم إلا قيامه بطاعتكم، فلا والله العظيم إنما السبب ما أوضحناه لكم في هذا المكتوب».

واستمر السلطان يتودد إلى الإمام، ويتظاهر بالولاء والإخلاص له، لا خوفًا منه ولا حبًا في الدخول في طاعته ولكن كسبًا للوقت. وحدث في أواخر عام ١٠٦٥هـ أن اشتد الخلاف بين السلطان بدر والشيخ العمودي، فكتب إليه الإمام يأمره بالصلح مع العمودي، فأجابه السلطان برسالة في محرم سنة ١٠٦٦هـ جاء فيها ما يأتي: «... ما الباعث على ذلك هو إعلامكم أن النقيب الأريب حسن بن هادي قد وجهناه راجعًا إلى محلكم السامي بجواب مراسيمكم الكريمة، وشرحنا لكم فيها إجابتنا على انعقاد الصلح بيننا وبين الشيخ العمودي سنة كاملة، بعد أن أبدى علينا في ذلك شرائط لا نعهدها في سائر الإصلاح، فأجبناه عليها رعيًا لجبركم وطاعتكم، وإيثارًا للصلاح، ثم بعد أن وجه إليكم النقيب حسن بن هادي أبدى الشيخ العمودي علينا شرائط غير السابقة تشق علينا غاية المشقة؛ لأنها غير معهودة ولا موافقة، أجبناه إلى ما اشترطه علينا بعد عزم النقيب حسن ابتغاء جبر خواطركم، وقصده بتلك الشرائط أن نشذ عن شيء منها، وأن نتعاظمها لفحشها وننكل عنها، وقصده أيضًا بذلك أن نصير عصاة لأمركم المطاع، وأن نتباعد عنكم بعد أن كنا لكم من الأتباع» ورد عليه الإمام شاكرًا له ما أظهره من لباقة وكياسة.

وظن الإمام أن السلطان بدر يرغب في الدخول في طاعته، وأنه من السهولة أن تصبح حضرموت ولاية خاضعة له، منقادة لأمره؛ فأرسل القاضي العلامة

شرف الدين الحسن بن أحمد بن صالح الحيمي مزودًا برسالة للسلطان الكثيري يخبره فيها أنه إنما أرسل القاضي شرف الدين لأخذ البيعة والعهد منه، وليساعده في الإصلاح ونصب النواب والحكام، وإحياء السنة، ومحو آثار البدع والتذكير بحق الله ورسوله، وحق أهل بيته المطهرين، والالتجاء إلى أهل البيت في الأحكام الشرعية والعقائد، وأخذ ما أمر الله بأخذه من نحو الصدقات والأخماس والمظالم، وصرف القدر الذي أمرنا بصرفه في مواضعه، وإيصال ما أمرنا الله بإيصاله إلينا، لنضعه حيث أمر الله؛ إلى آخر ما هناك من الألفاظ البراقة، وقد وصل القاضي شرف الدين إلى هَيْنَن يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٠٦٧هـ فلقي السلطان هناك وسلم إليه الرسالة والعهد. ومن هَيْنَن أرسل القاضي كتابًا إلى الإمام بتاريخ ١٠ جمادى الآخرة أخبره فيه بتسليم الرسالة والعهد للسلطان، ويقول له إنه اتصل ببعض الفقهاء والعلماء فسر منهم كثيرًا، وأخبره أنه عقد صلحًا بين السلطان والشيخ العمودي لمدة خمس سنين.

اشتداد الخلاف بين السلطان والإمام

كان الأمير جعفر بن عبد الله الكثيري -وهو أخو السلطان بدر- يظهر الولاء والإخلاص لعمه السلطان بدر بن عمر صاحب ظَفَار، فأرسل إليه كتابًا أخبره فيه بعزمه على السفر إلى الهند عن طريق ظَفَار، وعين له الطريق الذي سيسلكه، فخرج السلطان بدر بن عمر للقائه والترحيب به، ولكن الأمير جعفرًا حشد كثيرًا من الرجال المسلحين ودخل بهم إلى ظَفَار من طريق آخر واحتل الحصن وقتل ابن عمه.

ويقول الجرموزي إن ذلك كان باتفاق مع السلطان بدر بن عبد الله، وأنهما احتالا في الاستيلاء على ظَفَار، وأبحر السلطان بدر بن عمر إلى عدن ومنها إلى ذمار، وبعث الإمام ولديه لاستقباله ومنحه حلة فاخرة وحصانًا ومبلغًا من المال، ومن ذمار سار إلى الحصين في طريقه إلى الإمام، فأكرمه الإمام المتوكل إسماعيل، وتألم من أعمال الأمير جعفر، واتهم السلطان بدر بن عبد الله بتدبير تلك المكيدة ضد السلطان بدر بن عمر، وكتب إليه بهذا الشأن، فنفى السلطان التهمة عن نفسه وتبرأ من أخيه جعفر، وتبودلت الرسائل بين السلطان والإمام، ولكن من غير جدوى.

هذا كتابي وبعده ركابي وسيفي

وفي رمضان سنة ١٠٦٩هـ أرسل السلطان بدر الشيخ محمد بن شيبان بكتاب للصفي أحمد بن الحسن ابن أمير المؤمنين وكان في مدينة الفراس من أعمال ذي مرمر، وبعد أن قرأ الصفي رسالة السلطان قال: «قد غششنا الإمام بانتظارنا بهذه المكاتبة الكاذبة التي هي خديعة لا محالة»، ثم التفت إلى الشيخ محمد وسلَّمه الرد قائلًا: «قل للسلطان هذا كتابي وبعده ركابي وسيفي هذا».

الإمام يغزو حضرموت

أصدر الإمام المتوكل إسماعيل أمرًا بالتعبئة العامة، ودعا القبائل للتطوع لمحاربة سلطان حضرموت، وفي يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٠٦٩هـ زحف الصفي أحمد بن الحسن ابن أمير المؤمنين المؤيد بالله إلى مدينة الأنبا، حيث انضم إليه صنوه الحسين برجاله وسار إلى الشرفة فإلى مساح، فأكرمهم الشيخ عبد الله الجمرة وزودهم بسبعين رأسًا من الأغنام، ومقدار كبير من

القمح والشعير والزبيب وعلف الدواب، ثم سار إلى المربك فإلى العبرين فإلى أسفل مشور، ثم اتجه إلى إقحون من بلاد الأعروش، وظل يتنقل بجيشه من بلد إلى آخر حتى وصل إلى مرخة، فأكرمهم السلطان صالح الرصاص، وأهداهم تسعمائة رأس من الغنم ومقدارًا كبيرًا من الطعام، ثم سار الصفي إلى بلاد العوالق.

وفي الوقت الذي كان جيش الإمام يزحف إلى حضرموت كانت رسل الإمام تفاوض السلطان بدر بن عبد الله ليقوم بجيش إلى ظَفَار للقبض على أخيه جعفر وضم البلاد إلى ملكه، ولكن السلطان اعتذر خوفًا من أن تزحف جيوش الصفي وتحتل حضرموت؛ على أن السلطان اشترط على الإمام لقبول طلبه وتنفيذ رغبته إيقاف الزحف وعودة الصفي إلى اليمن. وهكذا فشلت المفاوضات وعاد الرسل إلى الإمام خائبين، وبعد أن انقطعت المفاوضات أرسل الإمام ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله، ومحمد بن أحمد المنصور بالله في ثلاثة آلاف مقاتل مددًا للصفي أحمد، سار هذا المدد من مدينة الحصين في شهر ربيع الثاني إلى ذمار فإلى رواع فإلى البيضاء، وهناك انضم إليهم الفقيه محمد بن علي بن جميل السيرافي في نحو خمسمائة فارس من أتباعه، وانضم إليه بعض سكان المخاليف المجاورة ما عدا السلطانين محمد الهيثمي وأحمد الفضلي، فقد امتنعا عن الانضمام إليهم بالرغم من إلحاح الإمام عليهما، وأمر الإمام السيد عز الدين بن دريب بن مطهر السليماني التهامي، والقاضي الحسن بن أحمد الحيمي، والقاضي الهادي بن عبد الله بن علي الحارث أن يسير وبمعيته السلطان بدر بن عمر الكثيري وأولاده ويلحقوا بالصفي أحمد.

ظل الإمام يرسل الإمداد إلى الصفي؛ فقد أرسل إليه من رواع خمسين فارسًا وأربعمائة جندي، ومن رجال عز الإسلام محمد بن الحسين زهاء ألف جندي، ومن الأمير علي المؤيد بالله أربعة وعشرون فارسًا، ومن كوكبان بضع مئات، وأسل من الخيمة أكثر من ألف جندي مسلحين بالبنادق.

وكان المشرفون على تعبئة هذه الإمدادات وإرسالها إلى الصفي الأمير محمد ابن الإمام المتوكل على الله، والعلامة أحمد بن هادي بن هارون بن الحسن الهادي، وشرف الدين بن مطهر، والفقيه المجاهد علي بن صلاح الحملولي وغيرهم.

كانت هذه الإمدادات تذهب أفواجًا إلى الصفي، وقام الصفي بجيوشه من واسط إلى نصاب فإلى بير حليمة من بلاد العوالق، وهناك وصلته رسالة من السلطان منصر العولقي يقول فيها: إن ابنًا صغيرًا له أحب أن يركب مع الأمير علي ابن الصفي أحمد، فأرسل إليه حصانًا بحليته وسيفًا ورمحًا؛ ويقول الجرموزي: إن هذا الإحسان لم يؤثر في السلطان منصر لسوء اعتقاده في أهل البيت، وقد أخبر بعض الجند أنهم أمروا المؤذن بمسجد المدينة التي يقيم فيها العولقي أن يؤذن بالأذان النبوي (حي على خير العمل) فمنعه السلطان منصر من ذلك وهدده بالعقاب إن فعل، ولما بلغ الأمر إلى الصفي أحمد أمر المؤذن أن يؤذن بأيهما شاء قائلًا: إن الدين كله محمدي والدعوة جامعة للشافعي والزيدي.

واصل الصفي زحفه إلى البير العوري فإلى حبان، ثم إلى وادي عاطر فقرية الفقيه علي فعزان فميفعة، وأقام بها شهرًا.

عامل حضرمي يشاغب الصفي

كان في أحور -وتقع على الساحل وبها سوق لقبائل ذيبب وآل باكازم- عامل كثيري من قِبل السلطان بدر بن عبد الله الكثيري، فبعد أن وصل الصفي إلى مَيْفَعة من بلاد الواحدي بلغه أن بأحور بيت مال للسلطان الكثيري، فأرسل إليه الفقيه يحيى بن أحمد بن قاسم السباعي الخولاني في جماعة من الخيالة، فحملوا مقدارًا كبيرًا من الطعام وعادوا إلى مَيْفَعة، ثم أرسل قافلة محملة بالطعام، واستطمع الصفي فأرسل أحد كبار رجاله في ثلاثة عشر فارسًا وعشرة جنود مسلحين بالبنادق، وسار خمسة من الفرسان إلى آل ذيبب وآل باكازم وآل علي وطلبوا إبلهم لحمل الطعام، وحصلت مشادة عنيفة فوثبوا على الفرسان وقتلوهم، وعلم قائدهم محمد بن قاسم فأسرع إليهم في جماعة من عسكره للأخذ بالثأر، ولكنهم قتلوه وقتلوا فارسًا آخر وعقروا خيلهم.

وكان السلطان منصر العولقي وأخوه عز الدين مواليين للسلطان الكثيري، ويقول الجرموزي إنهما تسلما أموالًا طائلة من السلطان لإثارة القبائل في أحور وما جاورها ضد جيش الإمام. ولقد اجتمعت القبائل وحاصرت جماعة من جيش الإمام في أحد الدور، ويقول الجرموزي: إن رجلًا من يافع على رأس ثلاثين من عسكر السلطان لم يشترك في تلك المشاغبات.

وأرسل الصفي مائتين وخمسين من جنوده المسلحين بقيادة عز الدين بن علي بفك الحصار المضروب على عسكره في أحور، واستطاع عز الدين وجنوده أن يفك الحصار ويقيم أسبوعين على حساب الأهالي، ولكن القبائل اعتدت عليهم في المسجد وجرحوا كثيرًا منهم، ودافع عسكر الإمام عن أنفسهم، وقتلوا ستة من أهالي أحور، وفي الليل عادت المعركة قتل فيها ثلاثة

من القبائل، وأسر اثنا عشر، وانتهت المعركة بانتصار عسكر الإمام، ثم طلبت القبائل دخول سوق أحور لبيع سلعهم ومواشيهم فرفض عز الدين طلبهم، ولكنه اضطر أخيرًا لأن يسمح لآل ذييب بدخول أحور لحاجته إليهم في إيصال قافلة تحت حراستهم إلى الصفي، فسار فيها بعض من آل ذييب. وفي اليوم الثالث شعر من في القافلة من عسكر الإمام بنية آل ذييب على الغدر بهم فأسرعوا في السير حتى وصلوا إلى الجون، واجتمعوا بالشيخ محمود بن عبد المانع، وكان للبدو فيه اعتقاد، فأبقاهم عنده حتى عاد الصفي أحمد ظافرًا من حضرموت.

استأنف الصفي زحفه حتى إذا وصل إلى جبل السوط نفد الزاد ومات كثير من الإبل، وأخذ الجوع ينقصهم من أطرافهم، حتى اضطروا لأكل الميتة، وكادوا يموتون جوعًا لولا الشيخ محمد العمودي، فقد استقبلهم في وادي السوط وشاهد ما حل بهم من الجوع فأحضر لهم ثمانمائة جمل محملة بالطعام والماء وعددًا كبيرًا من المواشي والأغنام، وسار الصفي بجيشه إلى وادي يِبْعِث وأقام به ثلاثة أيام، ثم استأنف زحفه إلى الرَّيْدَة فإلى الدرب ثم إلى القفر فإلى الهجلا، وأرسل أربعة من جنوده من بني الخياط لطلب الماء فوجدوا عليه أربعة من أصحاب السلطان وقتلوا اثنين منهم.

وفي رجب سنة ١٠٧٠هـ عسكر الصفي بالقرب من الهَجْرَين. ويقول الجرموزي: إن السلطان بدر بن عبد الله كان يرابط أسفل الوادي في خمسة عشر ألفًا من جيشه ومعهم من الخيل ما ينيف على الألف.

بدء القتال

دخل جماعة من جيش الإمام منطقة الهَجْرَين للبحث عن علف فأطلق عليهم حماة المدينة الرصاص وكانوا سبعين رجلًا، فقابلهم جنود الإمام بالمثل واشتدت المعركة، وهجم المعتدون على الهَجْرَين واحتلوها عنوة وقتلوا معظم حاميتها، وكان ذلك يوم الجمعة سلخ رجب سنة ١٠٧٠هـ.

المعركة الفاصلة

وكان السلطان بدر قد حشد جنوده في سَدْبِة وركز قوته فيها حيث أتته إمدادات من قبائل وادي عَمْد ومن الشِّحْر. أما الصفي فقد زحف بجيشه صوب سَدْبِة في يوم الأربعاء في شعبان سنة ١٠٧٠هـ، وفي يوم الخميس بدأت المعركة بين الجيشين، وكان صراعًا عنيفًا جدًّا استعمل فيها السلاح الأبيض فتكدست الجثث والجرحى، ولقد أثخن الصفي في القتل، واستطاع بقوة سلاحه الحديث وكثرة جيشه أن يهزم الحضارمة ويأسر كثيرًا منهم، وانسحب السلطان بدر مع بعض رجاله من آل كثير إلى هَيْنَن واستمر الصفي في زحفه إلى المِخَيْنِيق، وهناك جاءه الشيخ محمد بن شيبان بكتاب من السلطان بدر يطلب فيه الصلح فلم يجبه الصفي إلى ذلك، وأرسل جنودًا بقيادة صلاح بن محمد والفقيه علي بن صلاح الجملولي لمحاصرة السلطان بدر في قلعة هَيْنَن، ولكن السلطان غادرها إلى وادي جِعَيْمَة. ولما وصل الصفي إلى حذية طلب أهالي شِبَام الأمان، فأجابهم إلى ذلك ودخل مدينة شِبَام بالطبول يوم السبت ٧ شعبان سنة ١٠٧٠هـ وأقام فيها ثمانية أيام جاءته في أثنائها وفود من تَرِيْم، وسَيْئون، وعَيْنات، ومَرْيَمَة، وتَرِيْس، والغُرْفَة، ومعظمهم من آل كثير وعلى رأسهم النقيب علي بن راشد الديباني للترحيب به. وفي يوم الاثنين سار

الصفي إلى سَيْئون عاصمة الدولة الكثيرية فاستقبله وفد من لدن السلطان بطلب الأمان للسلطان ولأهل بيته وأولاده وجميع حاشيته وبطانته فأجابه إلى ذلك، وقدم السلطان على الصفي يوم الجمعة أول رمضان فاستقبله الصفي بما يليق به من التقدير والاحترام، وطلب السلطان من الصفي السماح له بالسفر إلى اليمن لمقابلة الإمام فأجابه إلى طلبه وزوده بأحسن زاد وبعث بصحبته الأمير علي بن الحسين بن الشريع والقاضي عامر بن أحمد الذماري في نحو سبعين جنديًا وعشرين فارسًا.

واستقبل الإمام السلطان بدر بن عبد الله بمنتهى الحفاوة وأنزله في قصره وأغدق عليه نعمه وآلاءه وجمعه بأخيه الأمير علي بن عبد الله الكثيري، وكان أظهر براءته منه حين علم بعزم الإمام لمحاربته وقدم إليه أخًا آخر له هو الأمير طالب وكان عاملًا على الشِّحْر من قِبل أخيه. ويقول الجرموزي: إن الأمير طالبًا فر بنفسه من ساحل حضرموت قاصدًا جدة فجنحت به السفينة في ميناء عدن واضطر للنزول في المدينة وأظهر لعاملها أنه ساخط على أخيه وأنه إنما فر بنفسه إلى الإمام فأرسله عامل عدن إلى الإمام فكان عنده حتى جاء أخوه بدر.

تسليم الشِّحْر

انتهت الحرب بهزيمة السلطان بدر وانتصار الصفي، ودخلت حضرموت في طاعة الإمام، وعين الصفي العمال على المدن والمقاطعات، ونصب القضاء ونظم جمع الزكاة، وقرب إليه الأمراء والعلماء والأعيان، وحرم الملاهي وكل ما لا يقره مذهب الزيدية.

هدأت البلاد من الاضطرابات وعاد إلى الأسواق نشاطها وحركتها. أما الشِّحْر فقد أرسل الصفي للاستيلاء عليها بدر الدين محمد بن علي بن جميل

السيراني في نحو ستمائة جندي وعلى رأسهم الأمير علي بن السلطان بدر بن عمر الكثيري، وجعل إليه ولاية الشِّحْر، واحتل جيش الإمام الشِّحْر دون أن يلاقي مقاومة، وكان بها -حين احتلها جيش الإمام- أكبر سوق تجاري في حضرموت؛ فقد كان بها نحو ثلاثمائة تاجر من البانيان البراهمة، وكان في الميناء أكثر من خمسمائة مركب للصيد.

أقام بدر الدين في الشِّحْر شهرًا وسبعة أيام ثم غادرها إلى اليمن بعد أن قام بالأمر فيها الأمير علي بن بدر الكثيري وترك بها حامية للمحافظة على الأمن وللقضاء على مشاغبات الحُمُوم.

السلطان بدر يستعيد سلطته

بعد أن هدأت الحالة واستتب الأمن لم يبق ما يدعو لإقامة الصفي، وليس في مقدور حضرموت الفقيرة أن تمون الجيش اليمني، لذلك أصدر الإمام أمره إلى الصفي أن يترك البلاد للسلاطين ويغادرها بعد أن يأخذ منهم عهدًا بالخضوع والطاعة لأئمة اليمن. سلم الصفي أمر حضرموت للسلطان بدر بن عمر الكثيري واعتقل كل من أظهر العداء والأذى للسلطان بدر بن عمر. أما الشيخ العمودي فقد أبقاه واليًا على دَوْعَن جزاء ما قدمه لجيش الإمام من المساعدات العظيمة إبان زحفه على حضرموت.

عاد الصفي بجيشه من سَيْئون، ولما وصل إلى هَيْنَن في طريقه إلى اليمن قسم الجيش إلى ثلاث فرق: الأولى وعليها علي بن صلاح الحملولي سلكت طريق جبل السوط والنعمان، والثانية وعلى رأسها الأمير أحمد بن الحسن بن عبد الرب سلكت طريقًا آخر، والثالثة وعلى رأسها الصفي اتخذت طريق شبوة.

ظَفَار

ولم يتمكن الصفي أحمد من الذهاب إلى ظَفَار لطرد السلطان جعفر بن عبد الله الكثيري واحتلالها؛ لبعد المسافة وصعوبة وسائل النقل، ولكن صاحب النعمان أرسل أربعمائة مقاتل إلى ظَفَار بقيادة عامر بن أحمد وهزموا السلطان جعفرًا واحتلوا البلاد وكتبوا بذلك إلى الصفي بالطاعة للإمام.

معتقدات الحضارم

لم يكن لاحتلال اليمن لحضرموت أي أثر في معتقدات الحضارم، ولم يجبر الصفي ولا العلماء الذين أحضرهم معه الناس على اعتناق مذهب الزيدية، فهم تركوا الحضارم أحرارًا في معتقداتهم.

وذكر المطهر بن محمد الهادي الجرموزي في كتابه (تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار)[١] نبذةً قصيرةً عن معتقدات الحضارم في القرن الحادي عشر.

يقول: إن معظم الحضارم جبرية وحلولية وأنه يوجد بين الفقهاء ورجال الدين أشعرية، ويقول عن بلاد يافع وحضرموت إنهم يخضعون لسلطة رجل من آل أبي بكر بن سالم آل باعلوي، فيلهجون بذكره ويدَّعون له الخوارق المؤثرة في العالم، وأنهم يحلون الطرب وجميع الملاهي ويعتبرونها عبادة.

واستدل الجرموزي على شيوع مذهب الجبرية بين الحضارم وإفتاء علمائهم به وإقرارهم العامة على ما يأتون من المنكرات بما رواه له غوث الدين

(١) كتاب ضخم مخطوط في تاريخ اليمن، توجد منه نسخة في مكتبة المرحوم الأمير علي بن صلاح القعيطي بمدينة الرَّيِّضَة، وقد أمدنا صديقنا الوفي السيد سعيد باوزير بملخص واف للكتاب.

ابن محمد؛ ذلك أنه وجد رجلًا من مغارب ذمار في سنة ١٠٣٨هـ عليه لباس أهل حضرموت وخرقة التصوف، واستخلص من حديثه معه أنه كان متصلًا بأبي بكر بن سالم ثم بابنه الحسين وأنه دخل معهم في طريقتهم، واتفق أن وجد رجلًا من الوجهاء مع امرأة لها فيهم قدر رفيع، فقال من حضروا قصتهم منكرًا عليهم: أتأتون المنكرات وتفعلون الحرام؟ فقال: «وماذا لنا من فعل وإنما ذلك حكم القضاء والقدر». ثم قال راوي هذه القصة لغوث الدين بن محمد: «ولما رأيت ذلك منهم عرفت خطئي في الدخول معهم، وهربت بنفسي إلى هذه البلاد تائبًا نازعًا من المقام بين أظهرهم».

ويقول الجرموزي: إن السلطان عبد الله بن عمر الكثيري كان ناصبيًا، وكان هو وبطانته يكرهون آل البيت ويسَيْئون الاعتقاد في آل محمد، وحكى ما رواه له الشيخ صلاح بن مقنع الأسعدي من أن الحسن والحسين من آل بيت الإمام أرسلاه مع رسول آخر إلى السلطان عبد الله بن عمر الكثيري برسالة وخلع ثمينة، وكان هذا الرسول قد عاد من صنعاء بجوائز من الباشا حيدر وللسلطان الكثيري، وأن السلطان لبس الكسوة المرسولة من الباشا حين قدمت عليه وأظهرها ولم يأذن بإظهار كسوة آل الإمام، وقال السلطان للرسل: «ما يريدون الزيدية بالكتاب إلينا»، وتأفف وتهكم برسلهم، فقال الرسل: «إنما أرادوا إعلامكم أن أهل البيع والشراء والتجار من أهل بلادكم يختلفون إلى اليمن على عاداتهم الأولى». ويقول الجرموزي عن الكسوة المرسلة من آل بيت الإمام نقلًا عن الرسل: «فما راعنا إلا وهي مع حاشا السامع من النساء والمطربات وأهل اللعب، وهم وهن في لهوهم ولعبهم يحفون بمكانه (أي بمكان الحسين بن أبي بكر بن سالم) رجالًا ونساء، وبعد مضي أيام

أجاب بما لا نعرف ما أودع في ذلك الكتاب ولم نسمع منه ولا من أصحابه غير كراهية أهل البيت ومذهبهم».

والظاهر أن الجرموزي إنما يقصد بآل البيت وآل محمد أئمة اليمن وأتباعهم من الزيود؛ لأنه في الوقت الذي يقول فيه عن السلطان عبد الله إنه يسيء الاعتقاد في آل محمد؛ يقول إن السلطان نفسه يتبرك بالحسين بن أبي بكر بن سالم المقيم في عَيْنات ولا يقطع أمرًا بدون استشارته والرجوع إليه. وهذا ملخص ما قاله: «أخبرني الشيخ الأسدي -وكان رجلًا باديًا صدوقًا من حذاق القوم في عام ١٠٤١هـ- أن أمير المؤمنين المؤيد بالله أرسله إلى سلطان حضرموت عبد الله بن عمر الكثيري بكتاب وهو في سَيْئون، قال: وقال لي بعد الإقامة عنده نحوًا من ثمانية أيام: لا يكون الجواب على الإمام إلا بعد تعريف الحبيب (يعني الحسين بن أبي بكر بن سالم) وأخذ رأيه الكريم. وأمر كاتبه بالمسير إلى عَيْنات وأرسل معه كتاب الإمام، فقلت للسلطان: وأنا أحب زيارة الحبيب ومرادي معرفة حاله لأخبر الإمام بها، فأركبوني معهم ووصلنا محله على بقية من الليل وتركوني في منزل وصاحب السلطان في آخر، وكلنا بالقرب من قبة والده الشيخ أبي بكر بن سالم والقناديل فيها مسرجة والأفراش فيها والقبر عار كذلك، وفيها وحولها نحو من أربعمائة نفر أكثرهم من يافع يهللون ويصيحون بالأصوات المرتفعة: يا حبيب يا حبيب، وهم مع ذلك يضربون الدفوف والطارات، قال: فسألت من وكل بضيافتنا عنهم؟ فقال: ومنهم من يقيم الشهر ومنهم الشهرين وأقل وأكثر لا يرون الحبيب، وقد يتجلى بعضهم فيظهر عليه ويخبره عن نفسه واسم زوجته وبلده، فعرفت أنه يتركهم على ذلك حتى يعرف كثيرًا من أخبارهم، ويتصل به أخبار خواصهم في بلادهم، فينتشرون في الأرض ويشهدون له بعلم الغيب، قال: وكنا لم يؤذن لنا.

«... ولما كان ثاني يوم أو ثالثه أذن لي فدخلت عليه فوجدته في منزل كبير مملوء من حفدته، وآلة الملاهي على أنواعها تتخذ عنده شيئًا فشيئًا، ورأيته فإذا هو رجل ضخم كثير الشعر لا يحلق رأسه ولا يقص شاربه ولا يقرض أظفاره، وعلى رأسه امرأتان تسرحان شعره، عليهما فاخر الثياب والحلي، وسألت عنهما؟ فقالوا: من اللقايين الذين يسمونهم الشحذ، وعادتهم الطرب ويلعب نساؤهم عند الفساق؛ وبينما كنا كذلك إذ ظهر من باب آخر أسفل الديوان شاب يقل الشعر في وجهه ووضع له كرسي فقعد عليه ومعه امرأتان كذلك تمشطان له شعره، فسألت عنه فقيل: هذا ولد الحسين المسمى أحمد».

«... قال: وكنا كذلك فنادى المؤذن لصلاة الظهر، فقال من حضر: ذهب الحبيب ذهب الحبيب، قال: وإذا به ساكن لا يتحرك حتى كأنه ميت وهم يتلاكؤون بأنه ذهب مكة، قال: قال فانتظروه وقتًا طويلًا وإذا به قد تحرك وتكلم فقاموا للسلام عليه».

وينتقل الجرموزي من هذا الحديث ويقول: «أخبرني غير واحد مما أفاد خبره الاستفاضة لمطابقته الأخبار الكثيرة أنه وجد قبة على بعض جهلتهم وحولها مسجد كبير مأهول للصلاة والجماعة في كل وقت، ويأتي النسوان لكل صلاة باللباس الحسن والستر المشروع فراقني ذلك كثيرًا وقلت: هؤلاء أهل السنة وحضرت معهم مجلس القراءة، فإذا هي حكايات بهتية وأكاليم كفرية وفي الطرب كغيرهم، فمما قالوا في ذلك الكتاب في ذكر مناقب الشيوخ: أما الشيخ فلان فتجلى له الرب العظيم، وأما الشيخ فلان فعرضت عليه النبوة مرارًا وهو يأباها إجلالًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من الخزعبلات».

اتهم الجرموزي الحضارم بالجبرية والإباحية وربما يكون لذلك نصيب من الصحة، ولكنه كان عند أفراد قليلين جدًّا ولا نجد لذلك أثرًا اليوم، ورماهم أيضًا بالدجل والخرافات، والحقيقة أنهم لم يكونوا كلهم دجالين وخرافين؛ فالخرافات والدجل وما إلى ذلك إنما قام به ودعا إليه أفراد عجزوا عن النضال والكفاح في الحياة فلجئوا إلى النصب والاحتيال واستغلال الجهلة باسم الدين، ومثل هذا موجود في سائر البلدان الإسلامية بين الطبقات الجاهلة، ولا شك أنه متى تثقفت العقول وتنورت الأفكار وانتشر العلم بين الناس سينكشف أمر أولئك الخرافيين وتبور بضاعتهم وتندثر سلطتهم الروحية، بل سوف يلاقون من المثقفين ألوانًا من السخرية والازدراء، ويومئذ يختفي كل شيء اسمه دجل ونصب وتميمة ورقية وتوسل بالأحجار والأشجار والتراب واللعاب.

وفاة السلطان بدر

بعد أن أدى السلطان بدر بن عمر الكثيري فريضة الحج ذهب إلى المدينة لزيارة قبر الرسول، وبها أدركته المنية سنة ١٠٧٣هـ.

خلفه محمد المردوف بن بدر بن عمر الذي توفي سنة ١٠٨٠هـ، وقيل إن الذي تولى بعده أخوه عيسى بن بدر، ثم الحاج عيسى بأمر الإمام المتوكل إسماعيل، ثم قام بالأمر بعده السيد مهدي سنة ١٠٨١هـ، وخلفه السلطان علي بن بدر بن عبد الله بن جعفر بن بدر بوطويرق الكثيري.

تقلص نفوذ الإمام في حضرموت

في شوال سنة ١٠٩٣هـ أرسل إمام اليمن السلطان حسن بن عبد الله ابن عمر بن بدر بوطويرق الكثيري واليًا على الشِّحْر، فغضب السلطان علي

ابن بدر وسار بجيش إلى الشِّحْر وأخرجه منها في ذي القعدة سنة ١٠٩٣هـ، ولم يستطع الإمام إرسال جيش لإخضاع السلطان علي بن بدر واسترجاع سلطة حسن بن عبدالله بن عمر. ومن هنا بدأ نفوذ الإمام ينكمش ويتلاشى.

وفي سنة ١١٠٧هـ توفي السلطان علي بن بدر، وقام بالأمر بعده عيسى بن علي بن عبد الله بن عمر الكثيري.

ظهور سلطة يافع

لم يكن بدر بن محمد المردوف الكثيري بالحاكم الحازم الذي يستعمل الشدة في مواطن الشدة واللين في مواضع اللين، وليس في شخصيته ما يدفع الناس إلى احترامه وتقديره، وليس هو بالرجل الطموح الذي يضحي بكل شيء لتقوية سلطته وتوسيع نفوذه، فهو رجل بسيط ينظر إلى الحكم كوسيلة لجمع حطام الدنيا، وكان معظم مقاليد الأمور في أيدي يافع وكانوا مهابين من الناس، واستطاع يافع أن يقووا مركزهم ويوطدوا سلطتهم حتى أصبحوا القوة المحركة، وأمسى السلطان بدر بن محمد حاكمًا صوريًا إلى أن وافاه الأجل سنة ١١١٩هـ، وجاء بعده السلطان عمر بن جعفر بن علي، وكان طموحًا إلى المجد، ولكنه لم يستطع أن يشق له طريقًا إلى ذلك؛ لأن الأمر كله في أيدي يافع.

وفي سنة ١١٢٠هـ سار إلى نَهْد ودَوْعَن وعَمْد ليجمع القبائل ضد يافع، ولكن الظروف لم تساعده لقلة المال، ودب اليأس إليه وتحطمت آماله فترك حضرموت ومات في عُمان وهو في طريقه إلى الهند.

خلفه أخوه علي بن جعفر ولم تطل أيامه، وقام بالأمر بعده ابن أخيه جعفر بن عمر وكان التنافس على الحكم شديدًا بين السلطان جعفر بن عمر

الكثيري وبين جعفر بن عيسى بن بدر بن علي الكثيري، واشتد الخلاف حين اعتدى جعفر بن عيسى على أموال يافع في شِبَام، وحالف يافع بعض قبائل آل كثير في ذي أَصبح سنة ١١٤٥هـ، وخاف السلطان جعفر بن عمر عاقبة هذا التحالف فسار بقوم من نهد أو الشحابلة وآل رباع والجعدة وأفراد من يافع، وتقابل الفريقان بموضع يقال له الغطيل، وكانت المعركة هائلة انتهت بانهزام جعفر بن عيسى وارتداده إلى شِبَام، ولم يقم بها سوى ليلة واحدة ثم غادرها إلى العَجْلانيَّة وظل بها إلى أن مات، وبموته انكمشت الدولة الكثيرية، وتألق نجم يافع في حضرموت، فقد آل أمر المُكَلَّا إلى بني ناخب، وأصبح أمر غيل باوزير لِلَبْعُوس، وريدة المعَارَّة لِكَلَد، وغَيْل بن يُمَيْن للشناظير، وتَرِيْم لِلَبْعُوس، وسَيْئون لآل الضُّبَي، وتَرِيْس وحُوْرَه للنقيب، وجِفْل للرباكي، وشِبَام للمُوسَطَة، ومَرْيَمَة لآل البكري، ولَحْرُوم لعبد الله بن عوض بن عبد الله القعيطي، وسَدْبِة للجهوري، والهَجْرَين لآل يزيد، والقِزة لآل البطاطي.

محاولة جعفر لإحياء الدولة الكثيرية

جاء في كتاب (ابن حميد) أن جعفر بن علي بن عمر بن جعفر الكثيري وصل حضرموت من برودة، وسار إلى غيل باوزير سنة ١٢١٩هـ، وكان يحمل أموالًا كثيرة، وذهب إلى هَيْنَن وحشد كثيرًا من القبائل، ثم زحف بهم على شِبَام واحتل معظمها وأخرج كثيرًا من يافع منها، ثم سار إلى سَيْئون ودخلها سنة ١٢٢١هـ واحتل الجانب الشرقي منها، واستمرت الحرب بينه وبين يافع سَيْئون سنة، وأرسل جزءًا من جيشه إلى تَرِيْم واستولى على بعض دورها سنة ١٢٢٢هـ، وعاد إلى شِبَام وبها مات، وفي رواية: قُتل وأخفوا نبأ موته في شِبَام ودفن بتَرِيْم، ولما بلغ جيشه نبأ وفاته انسحب من سَيْئون وتَرِيْم فعادت سلطة يافع فيهما كما كانت من قبل.

وجاء ابنه عمر مسرعًا من الهند ليأخذ بثأر أبيه من المُوسَطَة، وقصد مدينة خَشَامِر عند أخواله آل علي جابر، وأحضر معه أربعين صندوقًا مليئة بالحديد ليوهم الناس أنه إنما أتى بأموال طائلة، وقد انخدع الناس بهذه الفكرة، وتوسط آل علي جابر بينه وبين المُوسَطَة بشِبَام على ألا يطالب بثأر أبيه مقابل ترشيحه في منصب أبيه فيحكم نصف شِبَام ويحكم يافع النصف الآخر.

الوهابيون في حضرموت

جاء الوهابيون إلى حضرموت سنة ١٢٢٤هـ بقيادة علي بن قملا، فراعهم ما رأوه هناك من الخرافات والخزعبلات، وما شاهدوه من استعباد بعض رجال الدين للناس؛ وجدوا الحضارم يقدسون القبور، ويقدمون لبعض الموتى القرابين والنذور، ويطوفون بقبورهم كما يطوف المسلمون بالكعبة، ورأوا بعض أصحاب السلطة الروحية يبيعون التمائم والأحجبة للجهلة والمغفلين، فهدموا القباب وحطموا التوابيت ومنعوا الرواتب واعتقلوا المناصب. وخاف أهل تَرِيْم فطلب عبد الله بن أحمد بن يماني وعبد الله عوض غرامة إلى الوهابيين ألَّا يتدخلوا في شؤون تَرِيْم؛ على أن يقوما بنشر مبدئهم ومحاربة الخرافات فأجابوهم إلى ذلك، وعاد الوهابيون بعد أن مكثوا أربعين يومًا، ولكن قبائل المناهيل والمهرة اعترضتهم وسلبوا أموالهم وقتلوا كثيرًا منهم، فعاد بعضهم إلى حَوْرَة وأقاموا فيها. وقيل: إن الوهابيين جاءوا للمرة الثانية سنة ١٢٢٦هـ ولكنهم هُزموا. وتضاربت الأقوال في سبب قدومهم إلى حضرموت، فقيل: حصلت ظلامة على السيد أحمد الكاف، ولما لم ينصره أحد سافر إلى نجد واستنجد بالوهابيين. وقيل: إن الذي استنجد بهم هو منصب الحداد لينتقم من الحضارم حين عارضوا في وضع التابوت على قبر جده.

تصرفات السلطان عمر بن جعفر الكثيري

كان معظم السلطة في شِبَام ليافع المُوسَطَة، وكان نفوذ السلطان عمر بن جعفر بن علي الكثيري محدودًا في نطاق ضيق لا يتجاوز حاشيته والمقربين إليه من عشيرته أو قبيلته آل كثير، وكان في استطاعة يافع أن يجمعوا كل السلطة في أيديهم وينفردوا بها لولا اشتداد الخلاف والتنافس فيما بينهم على الحكم.

حاول السلطان عمر بن جعفر تقوية مركزه وتوطيد سلطته، فأحضر كثيرًا من فخائذ آل كثير، وكانت حاجته إلى المال شديدة حتى أمسى عاجزًا عن دفع تكاليف حاشيته وبطانته ومن استقدمهم من الشنافر وآل عبد العزيز، فأخذ يرهق التجار وأرباب المال بكثرة طلباته، وبالضرائب التي كان يفرضها عليهم في غير رحمة، واضطر بعض التجار للاستعانة بيافع لحراسة متاجرهم التي تعرضت للنهب والسلب، وقد ألقى السلطان عمر بن جعفر القبض على أحمد بن علي الجنيد باعلوي حين اعتذر عن دفع ما طلبه منه. وهاج الشعب وانتشر الرعب في قلوبهم وفر بعض التجار بأموالهم خوفًا من الاعتداء عليها، والتجؤوا إلى آل العيدروس في الحَزْم، وآل أحمد بن زين في خَلْع راشد. أما زعماء يافع في شِبَام فقد التزموا الحياد فلم يتدخلوا بين السلطان والشعب، ولم يحاولوا إسداء النصائح للسلطان عمر للعدول عن سياسة البطش والشدة، ولم يستعن السلطان بهم؛ لأنه لا يثق بهم، بل ربما ذهب إلى أكثر من ذلك فاتهمهم بتحريض الأهالي ضده، ولم يكن ذلك الحياد من يافع نكاية بالشعب أو حبًا في نزول الأذى به، ولكن ليضعفوا مركز السلطان ويصبح مكروهًا من الشعب، وهي سياسة سار على مثلها محمد علي باشا حين أحضر خورشيد باشا والي مصر من قبل الدولة العثمانية جيشًا من تركيا أخذ ينهب الأهالي

بالقوة في شوارع القاهرة فتركهم محمد علي وشأنهم ولم يحاول بجيشه الألبانيين الأقوياء أن يمنع الأذى عن الناس حتى إذا اشتد الضرر من جيش خورشيد لجأ الشعب إلى محمد علي واستنجدوا به ونادوا به واليًا على مصر.

سادت الحالة في شِبَام وأقفرت أسواقها من التجار ورجال الأعمال، وحدث أن دخل كثيري إلى شِبَام وأساء الأدب فقتله الأهالي، فاغتاظ آل كثير واعتبروا الحادثة إهانة موجهة إلى الدولة الكثيرية، فسار منهم جماعة من زعمائهم إلى العقاد واستنجدوا بالثري عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيري الذي جاء من جاوة سنة ١٢٣٠هـ ووعدوه بتولية حكم شِبَام متى هجم عليها واحتلها وطرد منها آل علي جابر وغيرهم من يافع إذ لم يعد السلطان عمر بن جعفر إلا آلة في يدهم فلم يكن من ابن عيسى بن بدر الذي ارتضاه الشنافر سلطانًا عليهم إلا أن هجم بقوم منهم ومن يافع الضبي على شِبَام واحتل معظمها، وعجز السلطان عمر بن جعفر عن الدفاع والمقاومة فسلم المدينة لهم سنة ١٢٣٤هـ. وقام بالأمر عمر بن جعفر بن عيسى خير قيام وعاد التجار الفارون إلى ديارهم فعاد إلى المدينة نشاطها وحركتها.

وفي سنة ١٢٤٣هـ مات السلطان عمر بن جعفر فقام بالأمر عمه عبد الله بن جعفر الكثيري؛ إذ كان الأمير منصور بن عمر في السنة الخامسة من عمره، ولم يستطع السلطان عبد الله معالجة الموقف وحل الأزمة المالية المستحكمة، فاضطر لبيع نصف شِبَام ليافع وهكذا عادت السلطة ليافع. وقيل: إنه لم يبع شيئًا من شِبَام وإنما استعان بيافع في حكم المدينة حتى تغلبوا عليه، وقيل: إن المُوسَطَة هجموا على شِبَام سنة ١٢٤٩هـ واحتلوا معظمها، واستمرت المناوشات بين الفريقين إلى أن انتهى الأمر بالصلح على المناصفة لآل

عيسى بن بدر النصف والنصف الآخر من المدينة ليافع، وعلى أن يدفع هؤلاء لآل عيسى بن بدر أربعمائة ريال.

مذبحة المساجد

سافر الأمير منصور بن عمر بن جعفر الكثيري إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وعند عودته إلى شِبَام عزل عمه الأمير عبد الله بن جعفر وتولى حكم شِبَام، وكانت مطامحه واسعة، وفي الوقت نفسه كان قلبه مليئًا بالحنق على يافع، إذ يرى أنهم اغتصبوا ملك أجداده فأراد أن ينفرد بالسلطة كل الانفراد وألَّا ينافسه في ذلك إنسان، ولكنه يعتقد كل الاعتقاد أنه لا يستطيع بلوغ تلك الأمنية ما دام في حضرموت قوم من يافع، وبعبارة أخرى ما دام في شِبَام جماعة من اليافعيين، لذلك أخذ يترقب الفرص للقضاء عليهم ويتآمر لذلك مع آل كثير، ونجح إلى حد بعيد في إلقاء بذور الشقاق بين رجالات المُوسَطَة في شِبَام حتى إذا بلغ التنافس بينهم على الرئاسة إلى أقصى حدوده وأخذ كل من ناصر جابر النقيب اليافعي وعلي بن عبد الكريم الجهوري اليافعي يكيل الشتائم والسباب والتهم للآخر؛ دخل بينهما متظاهرًا بالصلح فيتصل بالنقيب مظهرًا له استعداده لمساعدته ضد خصمه، ثم يذهب إلى الجهوري ويتظاهر له بما تظاهر به للنقيب، وأدخل السلطان منصور جماعة من آل كثير سرًا إلى شِبَام، وفي ليلة عيد الفطر سنة ١٢٦٠هـ وقد خرج معظم يافع من شِبَام إلى أهاليهم في القَطْن أمر عبيده أن يكمنوا في المساجد وقت الإفطار، وكانت يافع محافظة على صلاة المغرب، فلما حضروا فتك بهم العبيد، وبلغ عدد القتلى منهم خمسًا وثلاثين نفسًا.

لقد قتل السلطان منصور عشرات من يافع في أقدس الأماكن وأطهر البقاع، قتلهم وهم عزل من السلاح؛ لأنهم كانوا في المسجد يصلون، يا لهول هذا

الغدر، ولكن المطامع الجشعة طغت على عقله وجردته من الإيمان فلم يخش الله تعالى ولم يقم وزنًا ليوم الحساب. ومن غرائب الدنيا أن بعض أدعياء الصلاح والتقوى برروا فعلة منصور التي فعلها أو الجريمة الشنيعة التي اقترفها، فقد أرسل عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوي كتابًا مؤرخًا ١٠ شوال سنة ١٢٦٠هـ إلى السلطان منصور مظهرًا له استحسانه لتلك المذبحة، ولقد استنكر ذلك العمل السيد عبد الرحمن بن عبيد الله في كتاب (بضائع التابوت)، وقال كلمته الصريحة وهي: «... إن الإشكال عندي في تبرير منصور في غدره بيافع وهم قارُّون في المساجد لا يتحمل على الجمال بل الجبال».

ولم يكتف منصور بذلك فقد جهز ليلة عيد الحجة سنة ١٢٦٠هـ على حصن من حصون آل الخلاقي يقال له حصن معمر فأحرقه بالبارود فسقط على من فيه من الرجال والنساء والأطفال، ومن النساء خالة عمر بن عوض القعيطي. وحاصر مدينة خَشَامِر مقر أخواله آل علي جابر الذين نشأ بينهم، وأنشأ منصور حصونًا (القاهرة، وسهالة، والسوم، وغرفة بشير)، واستولى عنوة على حصن السَّعَيْدِيَّة وطرد منها حاميتها من آل عبد العزيز، وقوى مركز العقاد، وجهز جيشًا من العوامر وآل باجري وآل كثير، وأخذ يضايق فخائذ يافع في مضاجعهم ويقلق راحتهم ويتحرش بهم ويتحين الفرص للتنكيل بهم والقضاء عليهم.

هياج يافع

وليس من شك أن مذبحة المساجد أثارت غضب يافع وأثارت الألم في كل من في قلبه مثال ذرة من الرحمة من غير يافع، وليس من شك أن محاصرة منصور لخَشَامِر وتحصينه العقاد وبناء الحصون وتهديده ليافع، كل ذلك نذير لهم بالقضاء والفناء.

التجاء يافع إلى القعيطي

عندما ساءت حالة يافع وتفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم وبدأت الدولة الكثيرية بالغُرَف تنهض وتتوطد دعائمها، اجتمعت فخائذ يافع بالقَطْن وتبادلوا الآراء فيما بينهم لاسترداد سلطانهم ودفع ما يحيط بهم من الأخطار والرزايا، ولكن الذخائر كانت قليلة ولا طاقة لهم بنفقات الحرب ضد آل كثير؛ لذلك قرَّ رأيهم على الالتجاء إلى الثري الكبير الجمعدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي المقيم في حيدر أباد الدكن، للاستعانة به لتنفيذ خططهم وتحقيق غاياتهم على أن يولُّوه شؤونهم بحضرموت.

أرسل يافع وفدًا إليه سنة ١٢٥٨هـ تحت رئاسة حسين بن علي الحاج وحسين بن صالح المصلي، وعرضوا عليه ما حل بيافع من المصائب والنكبات، وطلبوا إليه جمع شملهم واسترداد سلطانهم على أن يولوه أمرهم ويتعهدوا له بالطاعة.

ولقد تأثر القعيطي مما حل بقومه يافع إلى أقصى حدود التأثر، فأرسل عامر بن عوض القعيطي بأموال إلى حضرموت واشترى مدينة الحوطة من آل العيدروس، وسميت بعد ذلك حوطة القعيطي، وتسمى الآن (الرَّيِّضَة) تحيط بها غابات كثيفة من النخيل، ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة.

ابتاع القعيطي الحوطة لتكون نواة لدولة يافعية بحضرموت؛ ولما اقترف السلطان منصور ما اقترف من الجرائم الشنيعة ضد يافع، ولما بلغت أنباء مذبحة المساجد ودك حصن معمر بمن فيه من يافع إلى الجمعدار عمر، تألم أشد الألم وتحمس أيما تحمس؛ فجمع أصحاب الفكر من يافع وشاورهم في الأمر، وقيل إن الشاعر الشعبي سعيد باعطوة أرسل قصيدة للجمعدار

عمر القعيطي يستثير حفيظته وكان ذلك عن رأي من يافع فتأثر بها أيما تأثر، وجمع رجالات يافع بالهند وقرأ عليهم قصيدة باعطوة فقرَّ رأيهم على أن يولوه أمرهم.

وفي رواية أن الشاعر الشعبي ناصر باعطوة، دخل على الجمعدار عمر في جمع من يافع في مكتبه بحيدر أباد، وكان باعطوة متلثمًا بطرف ردائه، فقال له الجمعدار: «ماذا دهاك يا عطوان؟» فقال: «لا شيء يا سيدي سوى أنني أشتم رائحة جلود محروقة بالبارود»، ويقصد بذلك دك منصور لحصن معمر بمن فيه يافع، فتأثر الجمعدار عمر أشد التأثر وأرسل عبديه الماس عمر وعنبرًا تحت رئاسة ابنه محمد وزودهم بأموال طائلة، وعند وصولهم إلى القَطْن سنة ١٢٦٠هـ اشتروا حصون الكروس من سعيد بن حسين بن علي الحاج، ثم أرسل الجمعدار عمر ابنه الثاني عبد الله في سنة ١٢٦١هـ، ثم ألحقه بعلي وعوض بطلي التاريخ الحضرمي وبصحبتهما بقية أفراد الأسرة، وتكوَّن للقعيطي جيش بلغ تعداده ٦٠٠ جندي من يافع كما في رواية باعباد.

وفي سنة ١٢٦٤هـ اشتدت المناوشات بين يافع وآل كثير واستطاع يافع رفع الحصار عن خَشَامِر بعد معركة عنيفة، واندفع جيش منصور إلى ضواحي شِبَام بعد سقوط حصون القاهرة وسهالة وغرفة بشير في يد يافع.

سحيل آل مهري

بعد أن استولى يافع على بعض مراكز الشَّنَافِر هجموا على سِحِيل آل مَهْري في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٦٤هـ ولكنهم فشلوا لقوة دفاع آل كثير، ثم حملوا على أحد الحصون المنيعة على مقربة من السِّحِيل، وكان فيه جماعة من آل كثير وعلى رأسهم ريس بن عبود، وقد أصيب برصاصة في إحدى عينيه، وبعد

مقاومة عنيفة اضطر ريس بن عبود الكثيري لمفاوضة يافع في التسليم على أن يعطوه ورجاله حرية العودة إلى شِبَام فأجابهم يافع إلى ذلك.

وهكذا احتل يافع هذا الحصن المنيع ولكن بعد أن دفعوا الثمن غاليًا، فقد كان من بين القتلى شخصيات بارزة أمثال: عبد الله بن عبد الحبيب بن قاسم بن علي جابر، وصالح عمر بن علي الحاج.

وبسقوط هذا الحصن في يد يافع أصبح سِحِيل آل مَهْري مهددًا بالسقوط، وابتاع يافع حصن سعيد بن بدر بن مهري وكان مركز قيادة جيش القعيطي في النَّقْر، ثم استمرت غارات يافع على المناطق الكثيرية وكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وهكذا تحول موقف يافع من الدفاع إلى الهجوم.

عبود بن سالم يقود جيشًا

شعر آل كثير بالخطر يدنو إليهم ويحدق بهم وينقصهم من أطرافهم، واستطاع أقطابهم وفي مقدمتهم البطل الأمير عبود بن سالم الكثيري أن يوحدوا صفوف قبائلهم ويجمعوا شملهم ويقربوا بين وجهتي نظر آل عبد الله وآل عيسى بن بدر.

لقد حشد عبود بن سالم فخائذ آل كثير ومماليكهم وسار بهم لمقاتلة يافع، وفي ذي أَصبح سمعوا صوت الصائح بمغار القوم، فاتجهوا نحوها فعرفهم القوم وكروا عليهم بخيلهم وبمطاياهم وقُتل أحد العبيد، وكاد القوم يحيطون بالأمير عبود لولا أن نجا بالهرب إلى شِبَام.

وقيل إنه اتفق مع السلطان منصور بواسطة آل يماني على أن يعطيهم ناصفة شِبَام بثمن، على أن يقوم بنصف تكاليف الحرب ضد يافع، وعلى منصور

النصف الآخر يخصم من ثمن ما أعطاهم، وأن تكون المصروفات وإيراد السدة والبلد على يد آل عبد الله والحكم لمنصور ولحاشيته سبعة ريالات كل يوم.

وعاد الأمير عبود إلى سَيْئون بعد أن حصَّن مدينة شِبَام والسِّحِيل والعقاد، ومن سَيْئون ذهب إلى تَارْبِة وتَرِيْم، وهناك جهز جيشًا من العوامر وآل باجري والشَّنَافِر، وسار بهم ليلة الخميس آخر القعدة سنة ١٢٦٤هـ إلى الغُرْفَة في طريقهم إلى شِبَام، فأضافهم منصب باعباد. وفي ذي أَصبح أضافهم حسن بن صالح باعلوي ودعا لهم بالنصر في صلاة الجمعة، وعلى مقربة من النَّقْر مركز قيادة يافع قسم جيشه ثلاث فرق على كل منها قائد كثيري، ثم هجموا على يافع، وجاء السلطان بجيشه من الشرق، وبلغت المعركة أقصى حدود العنف، وتحت نيران حامية انسحب يافع وأحرق آل كثير أكواخهم بمن فيها من المرضى والجرحى، وتحصن جماعة من يافع في مسجد النَّقْر وباتوا فيه فكرَّ عليهم آل كثير وأخرجوهم منه، وكان فيه من رؤساء يافع عبد الحبيب بن بوبك بن نقيب، واحتفظ يافع بالحصن الذي اشتروه من سعيد بن بدر بن مهري، وبالحصن الذي بنوه على مقربة منه على الرغم من حصار آل كثير لهما، وذات ليلة أراد يافع إمدادهم بالذخيرة والغذاء والماء فصدهم آل كثير، وأخيرًا هجموا على أحد الحصنين وأسروا حماته وكانوا أربعة من المماليك وساروا بهم إلى شِبَام بالطبول والأناشيد، ثم أحاط آل كثير بالحصن الآخر وكان فيه تسعة من يافع وحاصروهم ومنعوا عنهم الماء والغذاء، فاضطروا للتسليم على الأمان في وجه سالمين بن عبد الله بن طالب. وهكذا استطاع آل كثير رفع الحصار عن شِبَام بقوة السلاح. وقيل إن آل كثير أغروا قطيان الكربي

قائد قوم القبلة الذين انضموا في صف يافع لينصرف بقومه إلى بلادهم مقابل مبلغ كبير من المال.

جلاء يافع عن تَرِيْس

كان أمر مدينة تَرِيْس في يد النقيب اليافعي، ولوقوعها وسط المناطق الكثيرية أصبحت من أخطر الجيوب عليهم، ولذلك فكروا في إجلاء يافع عنها واحتلالها، فأخذوا يشددون الحصار عليهم، واستطاع أبو بكر بن عبد الحبيب النقيب وعبد الله بن صالح بن ناصر الوصول إلى القَطْن لطلب النجدة من يافع في جمادى الأولى سنة ١٢٦٤هـ، وعلم آل كثير أن نجدة قادمة في طريقها إلى تَرِيْس فكمنوا لهم على مقربة من تَرِيْس، ولحسن الحظ ترك يافع معظم ذخائر النجدة ومؤنها في خَشَامِر عند آل علي جابر خوفًا من وقوعها في يد آل كثير، وعلى مقربة من حصون العَوَانِزَة وكان الظلام حالكًا انقض عليهم آل كثير، فانهزم يافع لقلة عددهم ونفاد ذخيرتهم وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، ونجا بأعجوبة عبد الله بن صالح ودخل مدينة تَرِيْس، أما أبو بكر عبد الحبيب فقد لجأ إلى حصن بئر بُوْبَك وكان فيه مملوك لآل النقيب.

وفي أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٢٦٤هـ حشد آل كثير جنودًا كثيرة من الشَّنَافِر والعَوَامِر وجماعة من قبائل القبلة يرأسها الشريف أحمد بن مبارك من أهل بيحان وهجموا على تَرِيْس واستولوا على جزء منها، واستمر الهجوم أمام مقاومة عنيفة من يافع وعبيدهم الذين تحصنوا في بعض المنازل، وحاول آل كثير وضع أكياس من البارود تحتها لهدمها بمن فيها من يافع ولكنهم فشلوا، وأخيرًا ضربوا نطاقًا من الحصار حولهم ومنعوا عنهم المؤن والذخائر والماء سبعين يومًا، وكاد يافع يموتون جوعًا وعطشًا فسلموا المدينة لسالمين

ابن عبد الله بن جعفر بن طالب قائد آل كثير على شرط سلامة أرواحهم وعودتهم بأموالهم إلى القَطْن، وقام سالمين بن عبد الله وعلي بن مبارك بن عانوز بتنفيذ شروط التسليم.

استنجاد يافع بالقعيطي

بعد أن فشل يافع في محاصرة شِبَام، وبعد أن تكبدوا خسائر في الأرواح والأموال؛ أرسلوا إلى الجمعدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي بحيدر أباد الدكن. وقيل إن وفدًا منهم وعلى رأسه حسين بن علي الحاج وحسين بن صالح المصلي ذهبوا إليه وأحرق أحدهم عمامة من الحرير المقصب بين يدي الجمعدار، فثارت حميته وأرسل أمين أمواله محمد بَشْهَر إلى بلاد يافع وجهز ألفي مقاتل وعلى رأسهم صائل بن ناجي، وعلي بن حسين الضباعي، والحريبي، والبكري، ومحمد بن سالم ابن الشيخ أبي بكر. وقبل وصولهم اقترح عبد الله بن عمر بن يحيى على السلطان منصور أن يغتنم الفرصة فيهجم على يافع بالقَطْن قبل أن يصلهم المدد، وأرسل بعض كبار العلويين للفَضْلِي أمير الشُّقْرَا ليمنع اليافعيين من المرور في أرضه، فأجابهم إلى ذلك ولكن محمد بَشْهَر رشاه بمبلغ كبير من المال فسمح لهم بالمرور في أقاصي بلاده ليوهم العلويين وآل كثير أنهم إنما مروا من غير أن يعلم بهم.

وصل يافع إلى المُكَلَّا في محرم سنة ١٢٦٥هـ فاستقبلهم النقيب صلاح الكسادي اليافعي وأكرمهم إكرامًا عظيمًا وأرسلهم إلى القَطْن بعد أن أمدهم بالمؤن والذخائر.

سقوط العقاد

تقع مدينة العقاد على مقربة من شِبَام، وموقعها الاستراتيجي هام جدًّا لشِبَام ولذلك حصَّنها آل كثير تحصينًا قويًا حتى أصبحت أهم خطوطهم الدفاعية، وكانت تقيم فيه أسر من آل عيسى بن بدر، ويافع يعلمون كل العلم أنه لا سبيل لاحتلال شِبَام إلا بعد دك حصون العقاد أو احتلالها، لذا حملوا عليها بمدافعهم الثقيلة وأصلوها نارًا حامية، وأحدثوا بها أضرارًا جسيمة، وقتلوا عددًا كبيرًا من حماتها، وجرحوا كثيرين، واضطر آل كثير إلى التسليم من غير قيد ولا شرط، ودخل يافع المدينة فرحين بما أحرزوه من النصر، وكان ذلك في صفر سنة ١٢٦٥هـ، وهكذا تحطم أهم خط دفاعي كان يعتمد عليه السلطان منصور كل الاعتماد. وقيل إنه كان في بعض الدور أولاد عيسى بن جعفر وبعض الشَّنَافِر طلبوا الأمان من يافع على أن يسلموا لهم الدور بما فيها من الذخائر فأجابوهم إلى ذلك، ولكن عندما خرجوا ألقي عليهم القبض وأرسلوا إلى حوطة القعيطي وكانوا أحد عشر شخصًا.

وظهرت بوادر النشاط في آل كثير في خَمُور فقد قامت دورياتهم تهدد مواصلات يافع، فسار إليهم جماعة من يافع وقضوا على جيوب المقاومة وأوكار العصابات التي تقع بالقرب من خَمُور.

حِذْية وجلاء آل كثير منها

وبلدة حِذْيِة غنية بالآثار لا سيما في منطقة عَقْرَان، ولا يبعد أن تكون هناك آثار مطمورة في قمة تل العِدْفِة، ولا تزال الأطلال قائمة هناك إلى اليوم، وكان آل الحداد من يافع يقيمون في قسم منها، ويقيم في القسم الآخر آل الهاجري وآل سعد من فخائذ آل كثير، وكان الوئام يسود الفريقين ولكن بعد سقوط

خَمُور والعقاد وما جاورهما من الديار الكثيرية ظهرت بوادر نشاط آل كثير سكان حِذْيِة، فقد صاروا يتجسسون لقومهم ضد يافع، وليس من شك أن بقاءهم أصبح خطرًا على يافع، لذلك أصدر الأمير عوض بن عمر القعيطي أمره إلى آل سعد وآل الهاجري بالجلاء عن حِذْيِة، ولقد أذعنوا للأمر وانسحبوا إلى شِبَام.

معاهدة بين يافع وآل كثير

تقع قارة آل عبد الله في الشمال الغربي لشِبَام، ويقع سِحِيل آل مَهْري على مقربة منها والبلدتان -ويقيم فيهما آل عبد العزيز وآل بَلَّظْرَاف الكثيريون- من أهم المراكز الدفاعية لشِبَام، وكانوا يحملون في قلوبهم الكره للسلطان منصور لجوره ولشدته؛ وقد اغتنم الأمير عوض بن عمر القعيطي اليافعي هذه الفرصة فتحالف معهم سنة ١٢٦٥هـ تمهيدًا لاحتلال شِبَام.

محاصرة شِبَام

والآن وقد سقطت في يد يافع العقاد وخَمُور وحِذْيِة وما جاور هذه البلدان من مساكن آل كثير، أخذ يافع سنة ١٢٦٦هـ يشددون الحصار على شِبَام ويقطعون مواصلاتها بنهد والقِبْلة، ولقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد.

يافع في تَرِيْم

حين انهارت الدولة الكثيرية وزال سلطانها من تَرِيْم سنة ١٢٥٠هـ؛ آل أمر تَرِيْم إلى آل لَبْعُوس من يافع. ولقد استطاع الأمير عبد الله عوض غرامة اليافعي بحزمه وسياسته أن يقوم بالأمر وينشر فيها العدل والأمن، ولكن لسوء الحظ لم تستمر هذه الحالة، فقد قام آل عبد القادر ينافسون آل غرامة في حكم

تَرِيْم ويعملون في الخفاء لإضعاف قوتهم، واشتد الخلاف بين الأمير عبد الله غرامة وأنصاره من سكان حصن الرناد وبين آل عبد القادر وأشياعهم سكان النُّوَيْدَرة، وتطور النزاع إلى مناوشات بين الطرفين، وتدخل في الأمر الأمير غالب بن محسن الكثيري، وقيل عبد الله بن محسن واتصل بآل عبد القادر لما بينه وبينهم من الصداقة القوية، وبدلًا من أن يصلح ذات البين أعادها جذعة، وقام بأكبر قسط في إشعالها بعض العلويين من سكان سَيْئون وتَرِيْم؛ لكراهيتهم وبغضهم لابن غرامة لاعتناقه مبدأ الوهابيين الذين يحرمون البدع والخرافات، ويعتبرون التوسل بالأموات شركًا. ولسوء الحظ مات الأمير عبد الله بن غرامة فجأة فخسرت يافع رجلًا سياسيًا حازمًا عادلًا حرًا كريمًا، وخلفه ابنه عبد القوي وكان ضعيف السياسة قصير النظر ساذجًا يحسن النية في كل شيء، سريع التأثر بأصحاب السلطة الروحية من العلويين وغيرهم، حتى أصبح آلة صماء في يدهم، ونجح أصحاب السلطة الروحية في عقد محالفة عسكرية سنة ١٢٥٠هـ بين آل عبد الله الكثيري وبين آل عبد القادر أعداء آل غرامة، وجاء آل عبد الله بقوات إلى تَرِيْم يوم ٥ رمضان سنة ١٢٦٢هـ بحجة مساعدة آل عبد القادر، ونشط جماعة من آل كثير ومن أصحاب السلطة الروحية في بث الخوف في قلوب آل غرامة وأنصارهم، وأخيرًا أغروا الأمير عبد القوي غرامة على التنازل عن حصته من تَرِيْم للأمير غالب بن محسن الكثيري مقابل أربعة آلاف ريال، وأجابهم عبد القوي إلى طلبهم، وهاجر هو وحاشيته وأنصاره إلى القَوْز مساكن آل مرساف من آل تميم سنة ١٢٦٢هـ وطالب غالب بن محسن الكثيري ما تعهد به له من المال ولكن من غير جدوى، وهكذا انخدع عبد القوي نتيجة سياسته الخرقاء ودبرت له المكيدة فوقع في حبالها، وحاول

استرداد حقوقه السياسية ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح، وليس من شك أن سبب ضياع سلطان يافع على تَرِيْم إنما هو التنافس فيما بينهم على السلطة والتنازع على الحكم.

يافع في سَيْئون

عاصرت سَيْئون إمارات مختلفة المبادئ والأوضاع حتى إذا جاءت سنة ١٢٤٠هـ بدأت سلطة يافع تظهر ويتسع نطاق نفوذهم السياسي. وفي سنة ١٢٦٤هـ أصبح الأمر كله في يدهم، ولم يبق لآل كثير سوى أسماء جوفاء لا تحمل معنى، ولكن سرعان ما أخذت سلطة يافع تتصدع وتنهار لتنافسهم على الزعامة والرئاسة، ففريق منهم يريد أن يكون أمر سَيْئون لعلي بن حسين ابن الشيخ علي، وفريق آخر يريد سالم حسين بوطلعة الشرفي، واشتد الخلاف والتنافر والشقاق، وأخيرًا ثارت بينهم المناوشات تبودل فيها إطلاق النار من الجانبين.

واغتنم بعض الشخصيات في سَيْئون ضعف يافع وتخاذلهم وتنافسهم على الرئاسة؛ فأخذوا يعملون سرًا لإقصائهم عن سَيْئون واسترداد سلطة آل كثير، وقد نجحوا في ذلك إلى حدٍّ بعيد، فقد انسحب من ديارهم فرارًا من الضغط والجور ما عدا آل الشيخ علي فقد فضلوا البقاء لمصاهرتهم آل طالب.

غزو سَيْئون

ليس من شك أن سقوط سَيْئون من أيدي يافع ترك في نفوسهم أثرًا سيئًا أليمًا، وليس من شك أن أهم آمالهم استرداد سلطتهم عليها، ولقد ظهر نشاطهم في خَشَامِر حيث تركزت قواتهم بشكل واضح، وتحمسوا لاسترداد

ما اغتصب منهم من البلدان وقد استردوا العقاد وخَمُور وحِذْيِة وما جاورها من الديار وحاصروا مدينة شِبَام حصارًا شديدًا.

وفي ليلة الاثنين ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٢٦٥هـ سار من يافع ٨٠٠ مقاتل لغزو سَيْئون، وقابلهم على مقربة من سَيْئون عبد من عبيد عبد الحبيب بن صالح بن محمد سعيد الجحْوَشي، وكان خبيرًا بشوارع سَيْئون وحصونها ومنافذها، فرسم لهم خطة الهجوم، ولما علم آل كثير بذلك قام الأمير عبود بن سالم الكثيري يحشد قبائل آل كثير والعوامر وآل باجري للدفاع عن سَيْئون وإقصاء يافع عنها، وخرجت القوات الكثيرية من سَيْئون بقيادة الأمير عبد الله بن صالح بن محمد الكثيري إلى مِسْيَال سَرْ حيث لا طريق ليافع إلا منه وكان البرد شديدًا، وقبيل مطلع الفجر انصرفوا إلى القِرَيْن من أعمال تَرِيْس، ولكن القوات اليافعية مرت بعد ذلك في المِسْيَال، ووصلوا إلى سَيْئون والناس يؤدون صلاة الصبح، وهناك دخل فريق منهم إلى الحوطة واستولوا عليها، وفريق دخل الوسطة على مقربة من حصن الدويل، وفريق ثالث دخل السِّحِيْل واحتله، ودخل فريق آخر دار خلع أحمد والدجن ومسجد جوهر.

وفي اليوم الثاني وصلت إلى سَيْئون قوات كثيرة من آل عبدات وآل فَلْهُوم والعَوَانْزة لنجدة دولة آل عبد الله، واستمرت الحرب سجالًا بين الفريقين أيامًا وهجم أربعون من عبيد آل كثير وعلى رأسهم فرج غالب على مسجد جوهر، وكان فيه سبعة من عبيد يافع هرب ثلاثة منهم واحتمى أربعة بالمئذنة واحتل المهاجمون المسجد، وأقبل جماعة من يافع لاسترداد المسجد ولكنهم فشلوا.

وفي الليل تسلل العبيد من المسجد واحدًا بعد واحد خوفًا من هجوم يافع عليهم.

وكادت ذخائر يافع تنفد فأرسلوا إلى القَطْن يطلبون المدد ولكن من غير جدوى؛ لأن آل كثير وأعوانهم من القبائل محاصرون سَيْئون من جميع الجهات، وحاولوا فتح ثغرة فهجم جماعة منهم على القَرْن واحتلوا جانبًا منه، ولكن الأمير عبد الله بن أحمد وعبيده قاوموهم بكل قوة.

واستطاع أربعمائة مقاتل من يافع التسلل من سَيْئون في طريقهم إلى القَطْن لجلب مؤن وذخائر، ومروا ليلة الاثنين ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٦٥هـ على مقربة من مخافر آل كثير فتركوهم يمرون حتى لم يبق منهم سوى ثمانين أطلقوا عليهم النار، وجاء إلى جبل المحْتِرْقَة آل الفاس وآل العاس والعوانزة وقتلوا منهم ثلاثين وأسروا أحد عشر نفرًا جاءوا بهم إلى تَرِيْس ثم أرسلوهم إلى تَرِيْم، وجرح كثيرون من الفريقين، وقد تركت هذه الهزيمة التي لحقت بيافع أثرًا سيئًا في نفسية قومهم بسَيْئون.

وأخيرًا اجتمع محسن بن علوي وآل الضباعي بدار علي بن جعفر السقاف بيِثْمِة للمفاوضة في الصلح بين الفريقين، ولكن آل الضباعي وهم من لَبْعوس لم يحضروا في الميعاد المحدد؛ لأنهم علموا أن مددا كبيرًا قادمًا ليافع من الأمير محمد بن عمر القعيطي، ولما تأخر وصول المدد وكادت الذخيرة تنفد اجتمع زعماء الفريقين في دار علي بن جعفر السقاف، وكان الأمير علي ابن أحمد الكثيري وجماعة من آل باجري نائبين عن آل كثير، وكان علي بن حسين الضباعي اليافعي نائبًا عن يافع، واتفق الفريقان على أن ينسحب يافع (الغرباء) وهم الذين أتى بهم محمد بَشْهَر من بلاد يافع، ولكن الضباعي عاد إلى محسن ابن علوي وطلب إليه أن يكون الصلح ليافع جميعهم التُّلُد والغرباء، فرفع محسن الأمر إلى الأمير علي بن أحمد واجتمع الطرفان في دار عبد الله بن سالم

الحبشي ثم في دار سالم عبود بَحْرق، وحضر عن يافع (التُّلُد) عبد الحبيب بن بوبك بن نقيب، وصالح بن سالم بن يحيى عمر، وسعيد عوض المرفدي، وبعد مفاوضات انسحب يافع (الغرباء) من سَيْئون ليلة الجمعة ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥هـ تحت حراسة جنود من آل كثير.

وصعب البقاء على يافع (التُّلُد)، وكان عددهم لا يتجاوز ١٥٠، فانسحبوا من ديارهم واجتمعوا بالسِّحِيل، واقترح عليهم عبد الحبيب بن بوبك أن يخرجوا أفرادًا وجماعات، واندس عشرون منهم في يافع (الغرباء) أثناء انسحاب هؤلاء، ولجأ جماعة منهم إلى حصن الحد؛ ليدافعوا إلى آخر رمق في حياتهم، واستمر عبد الحبيب يحثهم على الانسحاب فلم يجيبوه فتركهم وشأنهم، وخرج هو وولداه حسين وسالم وعمر بن سالم بن حسين بن يحيى عمر وولده، ثم لحقهم جابر بن صالح بن ناصر بن نقيب واثنان من العبيد، فقابلهم جماعة مسلحة من العوامر بالجبل وقتلوا جابر بن صالح وعبدًا وأسروا العبد الثاني ودخلوا به إلى سَيْئون، واستمرت البقية من يافع (التُّلُد) في حصن الحد يدافعون بأقصى ما لديهم من بطولة وقوة، وأشار عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوي بحرق الحصن بمن فيه من يافع ولكن آل كثير رفضوا، ولما نفدت ذخائرهم وكادوا يموتون جوعًا وعطشًا عرض قائد الحامية وهو البطل صالح علي بُوبَك بن علي الحاج على الأمير علي بن أحمد الكثيري التسليم على أن يكون لهم حق الإقامة في سَيْئون أو العودة إلى القَطْن. وأخيرًا اتفق الفريقان على أن يبقى جماعة من يافع رهائن لدى السلطان عبد الله ابن محسن الكثيري بتَرِيْم، وخرج الرهائن من سَيْئون وفيهم سعيد عوض المَرْفَدِي، وسالم سعيد المصلي، وعبد الحبيب بن أحمد صالح،

وصالح بن سالم بن حسين، وعبد الله بن محسن بن غالب بن يحيى عمر وغيرهم في يوم السبت ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥هـ وباتوا في منزل آل عبد الغفار باكثير في السِّحِيل، وانسحب الباقون صباح يوم الأحد ما عدا عبيد آل غرامة فقد أسروا، وأرادت الدولة الكثيرية أن تعتقل آل محمد سعيد الجحوشي وتصادر أموالهم ولكن المصلحين توسطوا في الأمر على أن تجليهم الدولة الكثيرية من سَيْئون ويأخذوا معهم ما يستطيعون حمله من ممتلكاتهم، وهكذا جلا يافع عن سَيْئون بعد أن حكموها نحو سبعين يومًا، ولم يبق بها أحد منهم سوى علي بن أحمد هَرْهَرَة.

إطلاق سراح بعض يافع

كان لقبول يافع (الغرباء) الانسحاب من سَيْئون ليلة الجمعة ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٦٥هـ وقعٌ حسنٌ في نفوس آل كثير؛ ولذلك أطلق السلطان عبد الله بن محسن الكثيري سراح من أسر منهم في وقعة المحْتِرْقَة وأبقى في الأسر يافع (التُّلُد) لأنهم رفضوا الانسحاب.

وأمر السلطان بقتل عبيد آل غرامة الذين كانوا في حصن الحد وعبيد القعيطي وآل عبد الهادي البالغ عددهم واحدًا وعشرين نفسًا.

ويقول ابن حميد: إن أربعة من يافع تمكنوا من الفرار من السجن بعد أن حطموا القيود، وهم: بُوبَك بن عبد الحبيب سلك طريق يثْمِة، ولكن بعض آل كثير أدركوه في وادي شُحُوح وقتلوه وجزوا رأسه ودخلوا بها إلى سَيْئون، والثاني غالب بن سعيد بن عبد الهادي، والثالث من بني أرض، وقد نجاهما الله من الأسر والموت، والرابع وهو الرباكي ولكن ألقي عليه القبض وقُتل.

أما كيف استطاعوا تحطيم قيودهم؛ فقد قيل إن بعض محبيهم أدخل بضعة مبارد إلى السجن داخل أقراص من الخبز قطعوا بها قيودهم وقتلوا الحارسين وهما من عبيد آل كثير وخرجوا من السجن ونجوا إلا واحدًا أدركه الناس في يثْمِة وأحضروه إلى الأمير عبود بن سالم الكثيري الذي أعجب بصراحته وبسالته حين سأله عن قاتلي الحارسين، فقد حقن الأمير دمه حين اعترف بأنه واحد منهم.

بين آل كثير وآل تميم

لقد كان لوقوع بلاد آل تميم على حدود الدولة الكثيرية سبب لإثارة الخلاف والنزاع بين آل تميم وآل كثير، وقام بعضهم باعتداءات متتالية على أراضي تميم، ولما شعروا بالضغط الشديد عليهم أرسلوا وفدًا منهم وعلى رأسه محمد بن سعيد بن شملان إلى الشِّحْر والمُكَلَّا لطلب النجدة من ابن بريك والكسادي اليافعي، وخاف آل كثير من وصول النجدة، وخافوا من التطويق من الغرب والشمال الشرقي وأن يقعوا بين طرفي الكماشة، ولم يجهل الأمير عبود بن سالم الكثيري هذا الخطر وهو المعروف ببعد النظر وقوة الإدراك وصواب الرأي.

لذلك حشد في سَيْئون كثيرًا من فخائذه ومن العوامر وآل باجري، وفي محرم سنة ١٢٦٧هـ سار عبود بن سالم بقواته واخترق المعجاز في طريقه إلى تَرِيْم وهاجم آل تميم على غرة واستولى على كثير من ديارهم وأموالهم وقتل عددًا كبيرًا منهم.

ولما علم يافع أن آل كثير هزموا آل تميم أرسلوا حملة من يافع والعبيد وصلت السَّهْلَة وباعلال في اليوم السادس من صفر سنة ١٢٦٧هـ واشتبك

الفريقان في معركة عنيفة، وعلى الرغم من قلة عدد يافع فقد ثبتوا في مراكزهم وأبلوا بلاء حسنًا في القتال والنضال حتى أرغموا آل كثير على الارتداد إلى مسيلة آل الشيخ، وأخذ يافع وآل تميم يطاردونهم حتى دخلوا ديار آل طاهر واحتلوا حصون الوَهَد وابن صَبْرَة وغيرها، واستولوا على ما فيها من المؤن والذخائر، واستمر الفريقان في مناوشات إلى أن عقد الصلح سنة ١٢٧٤هـ لمدة أربع سنوات وقَّع عليه السلطان غالب بن محسن الكثيري والمقدم أحمد بن عبد الله بن يماني التميمي.

معاهدة صداقة بين القعيطي وآل عبد العزيز

بعد أن احتلت القوات القعيطية حصون سهالة والقاهرة وغرفة بَشِير وهي أشبه بجيوب خطرة في طريق من يريد احتلال شِبَام، عقد القعيطي مع آل عبد العزيز معاهدة صداقة وولاء سنة ١٢٦٥هـ، وآل عبد العزيز من العشائر الكثيرية يسكنون القارة على مقربة من شِبَام.

ولعل الذي حملهم وحمل آل بَلَّظْرَاف سكان السِّحِيل على معاهدة يافع؛ جور السلطان منصور بن عمر الكثيري والي شِبَام، وسوء معاملته لهم وإلا فبماذا تعلل انضمام عشيرتين من آل كثير إلى يافع لمحاربة آل كثير؟

عقد القعيطي هذه المعاهدة لغرضين: محاصرة شِبَام، والهجوم عليها، ولئن دلت على شيء فإنما تدل على دهاء الأمير عوض بن عمر القعيطي، وسرعة انتهازه للفرص، وحسن تصرفه في المواقف الجديدة، ولقد أظهر يافع نحوهم من الصداقة والحب شيئًا كثيرًا، وأصبح القعيطي يعاملهم كما يعامل يافع ويثق بهم إلى حد بعيد، فقد سلمهم قيادة القوات التي هاجمت سَيْئون، وكانت هذه القوات مكوَّنة من يافع وآل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف وقبيلتي ذي

محمد وذي حسين من قبائل القِبْلَة، وكادت تنجح في الاستيلاء على سَيْئون لولا تدخل أصحاب النفوذ من آل كثير وغيرهم لضم قبائل القِبْلَة إليهم بالعطايا السخية التي أثقلت كاهل دولة آل عبد الله.

نكث آل عبد العزيز للمعاهدة

لم يقف عبود بن سالم وعبد الله بن محسن وغيرهما من قادة آل كثير مكتوفي الأيدي أمام معاهدة يافع مع آل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف، وليس انسلاخ القارة والسِّحِيل من المنطقة الكثيرية إلا خطوة للوثب على شِبَام، فهما من أقوى المعاقل التي تقف في طريق الغزاة، فلا غرو إذا هبَّ قادة آل كثير يبذلون أقصى جهودهم لنقض المعاهدة وضم آل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف إليه مستعينين في ذلك بالمال ونفوذ بعض ذوي السلطة الروحية، ولقد نجحوا كل النجاح، فقد انضم آل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف إلى قبيلتهم آل كثير وأعلنوا الحرب على يافع، وقادوا جيش آل عبد الله واشتبكوا مع يافع في معارك عنيفة انتهت باندحار قوات يافع ومقتل قائدها صالح عمر عبد الله بن علي الحاج.

رفع الحصار عن شِبَام

وليس من شك أن استرداد آل كثير للسِّحِيل والقارة قوَّى مركز شِبَام وجعل حصارها أمرًا مستحيلًا لوقوع المنطقتين حائلًا دون وصول المؤن والذخائر إلى المحاصرين الذين أصبحوا مهددين بالفناء، لذلك انسحب المحاصرون إلى العقاد.

مساعي بعض ذوي السلطة الروحية ضد يافع

ومن هؤلاء إسحاق بن يحيى، ومحسن بن علوي السقاف، وصالح بن علي الحامد، وحسن بن صالح البحر، وعبد الله بن حسين بن طاهر، وعلوي

ابن سقاف بن محمد الجفري وغيرهم، فقد بذلوا أقصى جهودهم لحشد القبائل وضمها إلى آل كثير ضد يافع مستغلين في ذلك نفوذهم الروحي. ومع أن معظم مساعيهم كانت تذهب جفاء؛ فإن اليأس لم يتطرق إلى نفوسهم ولم يقلل من نشاطهم البتة، وعلى رأس هؤلاء إسحاق بن يحيى الذي له القدح المعلى في هذه المساعي، ويليه حسين بن صالح البحر الذي كان يجمع الشخصيات الكبيرة في سَيْئون لتدبير المؤامرات ضد اليافعيين. ومما تجب الإشارة إليه أن معظم آل الشيخ أبي بكر رفضوا دعوة حسن البحر وامتنعوا عن القيام بأي عمل ضد يافع، وهذا الفضل يجب أن يسجله التاريخ لهم.

ذهب إسحاق بن يحيى إلى الحجاز سنة ١٢٦٩هـ وقيل سنة ١٢٦٥هـ واستطاع بقوة شخصيته وبما لديه من الأموال التي جمعها من آل كثير أن يجهز ٧٠٠ مقاتل من الأتراك والحجازيين، وأن يسافر بهم في ثلاث مراكب لغزو المُكَلَّا والشِّحْر وطرد يافع وآل بريك، وقبيل قيامه كتب لآل كثير ليحاصروا الشِّحْر برًا، واستطاع عبود بن سالم أن يحشد كثيرًا من قبائل آل كثير والعوامر والمغارة وآل باجري وسار بهم نحو الشِّحْر ورابط في مُرَيْر استعدادًا لمهاجمة الشِّحْر من البر حين يأتي إسحاق بجنوده من البحر.

لماذا قام ذوو السلطة الروحية ضد يافع؟

قال بعضهم: إن جماعة من يافع استغلوا سلطتهم في سَيْئون وتَرِيْم فظلموا وجاروا وطغوا وبغوا، فإذا كان هذا صحيحًا فإنه أمر طبيعي يحدث في كل بلاد العالم حين تتعدد السلطات، وتتضارب الرغبات، ويزداد التنافس على الحكم والسلطان.

ولعل ذوي السلطة الروحية إنما قاموا بتلك المؤامرات لا حبًا في آل كثير وقد انهارت سلطتهم، ولا كراهية ليافع لأنهم يافع ولكنهم إنما يريدون إزالة ما قد حدث من الظلم من بعض اليافعيين في سَيْئون وتَرِيْم، فإذا كان هذا صحيحًا فهم معذورون بل هم مشكورون على ذلك. وقد جاء في الحديث الشريف: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ولكن لماذا سكتوا سكوتًا عميقًا حين جار السلطان عمر بن جعفر الكثيري في شِبَام وفرض الضرائب الفادحة وألقى القبض على أحمد بن الجنيد باعلوي وسجنه لا لجرم اقترفه ولكن لأنه لم يجب السلطان لطلباته المرهقة لعجزه وفقره؟ لماذا التزموا الصمت الطويل حين قام السلطان منصور الكثيري بمذبحة المساجد وهدم حصن معمر على النساء والأطفال؟ لماذا لم يحاربوا الظلم والطغيان فيوقفوا السلطان منصور عند حده أو يرشدوه إلى الحق والعدل؟

بل وجدنا بعضهم كعبد الله بن عمر بن يحيى أرسل للسلطان منصور خطابًا بتاريخ ١٠ شوال سنة ١٢٦٠هـ استحسن فيه ما فعله في يافع.

أما إسحاق بن يحيى فلا شك أنه إنما بذل أقصى مجهوده للوصول إلى الحكم ولسوء حظه كانت الظروف تعاكسه، ولذا كان نصيبه الفشل على الدوام.

نشاط يافع

وعلم اليافعيون بزحف الجيش الكثيري وتكتله في مُرَيْر لمحاصرة الشِّحْر، فأرسلوا إلى أمير المُكَلَّا النقيب صلاح بن محمد الكسادي وأمير الشِّحْر علي ابن ناجي بن بريك ليقاوما كل غزو ويثبتا في مراكزهما مهما كلفهم ذلك من

تضحيات، وأمدوهما بأربعمائة مقاتل من يافع تحت قيادة سعيد بن حسين بن علي الحاج اليافعي، وانضم إليهم جماعة من آل تميم وعلى رأسهم محمد بن سعيد بن شملان.

محاولة يافع احتلال شِبَام

لم يضعف نشاط يافع حول احتلال شِبَام، ولم يدب اليأس إلى قلوبهم حين فشلوا في الاستيلاء عليها لخيانة آل عبد العزيز، فقد استمرت أنظارهم متجهة إليها وآمالهم منصبة نحوها لجعلها قاعدة لدولتهم الجديدة ومركزًا لقيادتهم وأعمالهم، وهي بلا شك أحسن موقع لتوجيه الضربات لآل كثير، وتمهيدًا لذلك عقد القعيطي معاهدة صداقة بينه وبين آل هُضِيل سكان الظَّاهِرَة التي تقع على مقربة من شِبَام وذلك يوم ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٠هـ. وآل هضيل فخذ من آل كثير عاهدوا القعيطي على أن يبقوا على الحياد ويسمحوا ليافع بالمرور لمحاصرة شِبَام والهجوم عليها لاحتلالها، وقبل ذلك أي في شعبان سنة ١٢٧٠هـ عقد القعيطي مع ابن يماني التميمي معاهدة عسكرية.

أرسل القعيطي حملة من يافع وهجموا على شِبَام ودخلوها من الشمال واحتلوا الشويرع، وهناك دارت بين يافع وآل كثير معارك بالبنادق والسلاح الأبيض، ولما علم العوامر وآل باجري نبأ تلك المعارك جاءوا لنجدة السلطان منصور بن عمر الكثيري، واستطاع السلطان منصور أن يؤثر في آل هضيل حلفاء يافع ويشتري ضمائرهم بالمال؛ فقد نقضوا العهد وانضموا إلى منصور وحاربوا وطعنوا يافع من الوراء، واستمر القتال والمناوشات بين الفريقين نحو ثمانية شهور، توقفت في خلالها حركة التجارة في شِبَام ودبت الفوضى فيها وانتشر التذمر بين التجار الأمر الذي دفع بعضهم لمساعدة

منصور بالمال لتحريض آل هضيل على تمزيق المحالفة بينهم وبين يافع، ولم يكن ذلك حبًا من الشباميين في آل كثير أو كرهًا ليافع، ولكن توقف مصالحهم التجارية وانقطاع مواصلاتهم بالخارج وتعرض أموالهم وممتلكاتهم للخسائر والأضرار؛ كل ذلك دفع بعضهم لمساعدة منصور حين رأوا رجحان كفته.

استسلام حامية الظَّاهِرَة

عندما نقض آل هُضِيل عهدهم غادر معظمهم الظَّاهِرَة وانضموا إلى جيش منصور، ولم يبق فيها من حاميتها سوى عشرين من يافع، ومنهم عبد الله بن صالح سعيد التوم لرضي ويحيى عمر، وفيهم أيضًا عمر باعطوة الشاعر الحميني وأحمد عمر بن طاهر.

وفي ليلة ظلماء هجم عليهم كثير من قوات السلطان منصور وعلى رأسهم آل هُضيل وبالرغم من قلة عدد الحامية دافعت دفاعًا مجيدًا حتى إذا انتهى ما عندها من الذخيرة استسلمت على أن يعود كل منها إلى أهله في القَطْن، ولكن آل كثير لم ينفذوا شروط التسليم، فقد أخذوهم وزجوهم في سجن بير التل بشِبَام ما عدا اثنين من آل علي جابر، فقد توسط سالمين بن عبد الله بن طالب في إعادتهما إلى أهلهما.

انسحاب يافع من شِبَام

لا شك أن سقوط الظَّاهِرَة ضربة قاصمة على يافع؛ لأنها من أهم القواعد الحربية لشِبَام، وقبل ذلك سقطت حصون آل مَهْري وآل بَلَّظْرَاف وقارة آل عبد العزيز؛ فيافع داخل شِبَام أصبحوا محاصرين من جميع الجهات ولا يمكن بأي حال وصول مدد إليهم لا سيما بعد سقوط الظَّاهِرَة، ولم يكن يافع

يتوقعون أن تأخذ حرب شِبَام وقتًا طويلًا، وتتطور هذا التطور الغريب، فقد اندفعت قبائل آل كثير كالسيل الجارف للدفاع عن شِبَام، ولم يتوقع يافع أن ينكث آل هضيل عهدهم ويطعنوهم من الخلف، هكذا قُضي على يافع أن ينسحبوا من المعركة ويتراجعوا إلى قواعدهم الأولى، وقد لحق بهم بعض الأسر الشبامية كالأشعيب وآل بَلْربعية وغيرهم فرارًا من متاعب الحياة في ظل السلطان منصور.

موقعة المُكَلَّا البحرية

وفي ليلة حالكة الظلام وصل إسحاق بقواته في بضع سفن إلى ميناء المُكَلَّا ولم يدر بخلده أن النقيب الكسادي على أتم استعداد لدحرهم وإصلائهم نارًا، فقد كان النقيب يقظًا حازمًا باسلًا؛ فعندما علم بوصول سفن الأعداء أصدر أمره إلى حماة المدينة ليدحروهم وينزلوا بهم شر هزيمة، وانطلق الحماة من يافع والمماليك في عشرات القوارب وأحاطوا بالأعداء؛ فبهت إسحاق وقومه وانتشر الذعر بينهم، وكانت بعض حصون المُكَلَّا تطلق عليهم قذائفها في شدة وعنف، فانسحب المهاجمون ولاذوا بالفرار واتجهوا نحو الشِّحْر للهجوم عليها ولكنهم لم يستطيعوا أن يرسوا بمراكبهم في الميناء لضحولته ولهيجان البحر وهبوب العواصف، وأخذت مدافعهم تطلق قذائفها على المدينة ولم يفلحوا في إصابة الأهداف لبعد المسافة، ولم تقع خسائر في الأرواح والأموال، وأخيرًا بعد أن نفدت أو كادت تنفد ذخائر إسحاق بن يحيى أبحر بسفنه مخذولًا مهزومًا، وهكذا فشل إسحاق في أعظم محاولة للقضاء على يافع، ولم يكن هذا الفشل لضعف تفكيره وقصر نظره؛ فهو على جانب كبير من الذكاء والنشاط وقوة الشخصية وبعد النظر، ولكنه سيء الحظ، ويظهر أنه لم

يحسن إدارته العسكرية وإن كان ذكيًا نبيهًا نشيطًا فصيح اللسان قوي الحجة ولكنه لم يكن قائدًا حربيًا، وكان يمكن أن يصيب شيئًا من الظفر والنصر لو لم يظهر يافع من الشجاعة والبسالة الشيء الكثير، ولو لم يستميتوا في الدفاع عن كل شبر من أراضيهم بكل قوة وعنف.

أما الأمير عبود بن سالم الكثيري القابع بجيشه في مُرَيْر فقد تلقى إنذارًا شديد اللهجة من أمير المُكَلَّا النقيب صلاح الكسادي اليافعي، وخاف بعض رجاله عاقبة الإنذار فانسحبوا، ومن هؤلاء: محسن بن علوي السقاف الصافي، وعلوي بن سقاف بن محمد الجفري، وأحمد بن زين بن سميط، وأبو بكر بن محمد بن أحمد بن زين الحبشي، وشيخ بن عبد الله بن زين الحبشي، وعبد الرحمن بن علوي السقاف، وعبد الله بن حسين بن شهاب، وعلي بن حسن بن حسين الحداد، وعبد القادر بن حسن بن صالح البحر، ومحمد بن محمد ابن هاشم الحبشي.

ولم يرضخ عبود بن سالم لإنذار الكسادي فثبت بجيشه في مُرَيْر حتى إذا أرسل الكسادي مددًا من يافع للأمير علي بن ناجي بن بريك والي الشِّحْر ثارت الحرب بين الفريقين، وكانت معركة عنيفة أبلى فيها يافع بلاء حسنًا، وانهزم جيش عبود على الرغم من كثرة عَدده وعُدده وعاد إلى سَيْئون.

مناوشات

في سنة ١٢٦٩هـ هجم يافع وآل تميم على حصون الوهد وابن صَبْرة الواقعة شرقي المَسِيْلَة واحتلوها وغنموا أسلحة من عبيد آل عبد الله وأسروا أربعة منهم، فتحمس آل كثير وأرسلوا قواتهم على ثلاث دفعات: إحداها تحت قيادة عبود بن سالم، والثانية برئاسة علي بن أحمد الكثيري، والثالثة بقيادة

عبد الله بن صالح الكثيري، وهجموا على حصون آل تميم الواقعة بين حصن ابن فلُّوقة وحصن بَلْغيث واحتلوها عنوة وأسروا ثمانية من حماتها.

وجاء جماعة من آل تميم ومعهم مائتا مقاتل من المناهيل ورابطوا شرقي تَرِيْم وقطعوا المواصلات وبنوا حصونًا على مقربة من مَضْلَعَة ابن سهل ورابطوا فيها؛ ولما علم آل كثير ساروا إليهم بقوم من العوامر وآل باجري، واشتبك الفريقان في معركة عنيفة انتهت باندحار آل تميم.

قدوم السلطان غالب بن محسن الكثيري

في صفر سنة ١٢٧٢هـ جاء السلطان غالب بن محسن من حيدر أباد إلى سَيْئون، وهو من أعظم الشخصيات الذين بذلوا كل مرتخص وثمين في تكوين الدولة الكثيرية الفتية، وقام بدور كبير في الصراع الذي كان قائمًا بين يافع وآل كثير، وكانت حيدر أباد مهجره الوحيد، وفيها ساعده الحظ فأثرى وسطع نجمه وعلا اسمه وأصبح من الرجال البارزين؛ على أن مركزه كان دون مركز الجمعدار عمر بن عوض القعيطي، ولذا قام التنافس بين هذين البطلين، وتطور هذا التنافس إلى لون آخر إلى التعصب القومي حين اشتد الصراع في حضرموت بين يافع وآل كثير، فقد نشط غالب بن محسن في نشر الدعاية ضد القعيطي وأخذ يهدده بالانتقام من أولاده ومن يافع بحضرموت، ولكن القعيطي كان أقوى منه نفوذًا وجاهًا وأكثر منه مالًا ودهاء، فلم تؤثر فيه مساعي غالب ولم تلحق به أدنى ضرر، ولما شعر بالفشل والخذلان قفل راجعًا إلى حضرموت حاملًا معه أموالًا كثيرًا، وقيل إن ملك حيدر أباد خشي قيام الفتنة بين العرب عندما اشتد النزاع والصراع بين البطلين فأصدر أمره بترحيل غالب عن ولايته.

القعيطي والخالدي

في شهر محرم سنة ١٢٧٣ هـ عقدت اتفاقية عسكرية بين القعيطي والخالدي، وتدل هذه المعاهدة على نشاط فكر القعيطي وبعد نظره، فالخالدي زعيم تخضع له قبائل قوية الشكيمة شديدة البأس، وليست حاجة القعيطي شديدة إلى تجنيد هذه القبائل، فلديه قبائل يافع طوع أمره ورهن إشارته، ولكنه خشي أن يسبقه الكثيري فيتفق مع الخالدي ضده.

وهذه هي المعاهدة كما نقلها السيد علي بن عوض بانعيمون من مكتبة المرحوم صاحب السمو الأمير علي بن صلاح القعيطي: «الحمد لله - لما كان يوم الاثنين لسبعة أيام خلت من شهر محرم الحرام إلى يوم عاشوراء سنة ثلاث وسبعين بعد المائتين والألف شاهد كريم بيد محمد وعبد الله وعلي أبناء عمر بن عوض بن عبد الله القعيطي على الشريف عبد الرحمن بن محسن الخالدي بأنه قبض وتسلم مائتين وخمسين قرشًا الذي جعلها له محمد وعبد الله وعلي المذكورون وشل، واحتمل الشريف عبد الرحمن بن محسن المذكور لمحمد وعبد الله وعلي المذكورين بأن يوافقهم ويكون تحت إمارتهم وإشارتهم وخدمتهم من قرب ومن بعد من حال التاريخ إلى آخر شهر ربيع الثاني في السنة المذكورة، وليس له في قبل ما صدرت منه من خدمة ونفاعة إلا ما ذكرت أعلاه وصارت مقبوضة بيده، وأيضًا حال تاريخه بايسير إلى جبل يافع وبيده وُثُور مكتوبة يعتمدها إذا وافق ما في الوثور عند أهل جبل يافع يرفع بها مكاتب إلى عند محمد وعبد الله وعلي وما عرفوه في الجواب يعتمده، وكان المقصود بعد مضي الأربعة الأشهر المذكورة، وأيضًا شلو وتحمل محمد وعبد الله المذكورين للشريف عبد الرحمن المذكور بأن يدفع لأهل جبل يافع

إلى غاية ثمانمائة قرش على أن يوافقوا على ما في الوثور، فإذا وافقوا وجعل لهم الشريف عبد الرحمن وما جعله إلى غاية الثمان المائة القرش، فعندما يخرجون بالقوامة ولم يحصل تكشيف ووافقوا بالتاريخ من الغد أن يسلم محمد وعبد الله وعلي للشريف عبد الرحمن المذكور الثمان المائة القرش، وإن كانت دون ذلك فيسلمون إلى غاية الثمان المائة القرش، جرى ذلك والله رقيب صحيح ذلك وقاله الشريف عبد الرحمن بن محسن الخالدي».

ووجدت في أعلى الاتفاقية ختمًا على شكل دائرة مكتوب داخل محيطها «الواثق بالله القوي الشريف عبد الرحمن محسن علوي سنة ١٢٦٨ هـ».

الأمير القعيطي يقود جيشًا

جهز الأمير عوض بن عمر القعيطي اليافعي ٦٠٠ مقاتل يافعي وأمدهم بكل ما يحتاجون إليه من المؤن والذخائر وتولى بنفسه قيادتهم، وسار بهم نحو شِبَام في يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٤ هـ، ولما وصلوا المُوْزَع (الخزان) بدأت المناوشات بينهم وبين آل كثير، وكان حصن السَّعِيْدِيَّة المنيع يقف حائلًا دون هجوم يافع على شِبَام؛ فقد حصنه السلطان منصور بن عمر الكثيري بأربعين مقاتل من عبيده، وجعل عليهم مبارك العريان بن عبد العزيز الكثيري، ويقول باعباد: إن مبارك العريان حين شعر بقوة يافع المعنوية واستماتتهم في الهجوم فكر في تسليم الحصن مقابل مبلغ من المال، وفي ليلة حالكة الظلام انسل من الحصن وذهب رأسًا إلى مركز قيادة يافع وقابل الأمير عوض واتفق معه على أن يمهد له الاستيلاء على الحصن مقابل ٥٠٠ ريال، وعاد مبارك إلى الحصن وحين استولى النوم على جنوده صعد إلى السطح وأشعل نارًا فتقدم ثلاثون من يافع ونقبوا جدار الحصن ودخلوه، فبهت الحماة وقامت معركة عنيفة

بالسلاح الأبيض، واحتل يافع الحصن وأسروا عددًا من رجاله، وهكذا سقط في يد يافع حصن منيع. أما خطوط دفاع آل كثير في بَزْرَق والركز فقد دكتها مدافع القعيطي الثقيلة وغادرها المدافعون بعد أن اشتبكوا مع يافع بالسلاح الأبيض تاركين وراءهم عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى.

الصلح ين الفريقين

لا شك أن سقوط السَّعِيْدِيَّة ودك خطوط الدفاع في بَزْرَق والركز جعل مدينة شِبَام تحت رحمة يافع، ولقد بذل السلطان منصور كل ما في وسعه لجلب الإمدادات ولكن من غير جدوى فقد خذله قومه آل كثير، ويقول السيد ابن عبيد الله السقاف: إن السلطان منصور انسل في أثناء حصار يافع لشِبَام وذهب إلى سَيْئون وكان بها السلطان غالب بن محسن الكثيري، وشكا حاله إليه وقال له: «أعطوني بلادًا من بلدانكم وأسلم لكم شِبَام، فقال له عبود بن سالم الكثيري: نعطيك مَرْيَمَة أو تَرِيْس، فاغتاظ السلطان منصور وقال: أتعطوني الأتان من بعد الفرس؟ لأحفرن لكم حفرة لا تنجون منها أبدًا، وعاد إلى شِبَام وشرع يفاوض الأمير القعيطي بواسطة آل سميط، وأخيرًا باع له النصف الغربي لشِبَام ودخلت جموع يافع شِبَام يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٤هـ، وفي يوم الجمعة من الشهر المذكور جاء السلطان عوض بن عمر القعيطي وتسلم نصف شِبَام.

جلاء يافع عن غَيْل بن يُمَيْن

عندما قوي مركز الشَّنَاظِيْر؛ وهم فخذ من يافع وتوطدت دعائم سلطتهم في غَيْل بن يُمَيْن خاف الحُمُوم أن يؤدي ذلك إلى القضاء على سلطتهم فأخذوا

يفكرون في زحزحة يافع من غَيْل بن يُمَيْن، وانتهز آل كثير الفرصة وحرضوا قبائل الحُمُوم على التمرد والقيام ضد يافع وإخراجهم من ديارهم عنوة وأمدوهم بسلاح ومقاتلين من آل جابر والعوامر.

وهجم الحُمُوم وأنصارهم على يافع وأحاطوا بهم من كل جانب، واستمر يافع يناضلون ويكافحون أربعين يومًا، ولما نفد الماء والزاد والذخيرة سلموا حصونهم إلى آل كثير في رجب سنة ١٢٧٥هـ، وانسحبوا بأسرهم إلى القَطْن بعد أن جردوا من كل أملاكهم.

وقعة (الحصاة)

والحصاة حصن شاهق كان مقرًا لعبود بن محمد زعيم آل حرير الجعديين، كان هذا الزعيم يتحدى القعيطي ويجاهر بالعداء لكل يافعي، وكان حصنه وكرًا لآل كثير يلجئون إليه بعد شن غاراتهم على يافع، ولقد تضرر يافع من هذا الحصن ولحقت بهم أضرار فادحة، لذلك أرسل الأمير عبد الله بن عمر بن عوض القعيطي جماعة من يافع وأمرهم ألا يعودوا إلا بعد احتلال الحصن وإبادة من فيه من المقاتلين أو أسرهم.

وفي ليلة حالكة الظلام هجم يافع على الحصن ولم يكن حماته يتوقعون هذا الهجوم، فوثب بعضهم من الشبابيك حذر الموت، وقُتل نجل الزعيم وأُسر البعض، كان ذلك ليلة ٢٥ رمضان سنة ١٢٧٦هـ، وبعد الاستيلاء على هذا الحصن أمنت الطرق بين بلدان القَطْن وشِبَام وعاد السلام.

الشريف حسين

يقول باعباد في كتابه المخطوط: إن القعيطي حين أزمع وأجمع على احتلال شِبَام؛ أرسل الشريف حسين إلى والده أمير الجوف الشريف عبد الرحمن

الخالدي ليمده بألف جندي، وتعهد له بدفع جميع التكاليف وبمنحه المكافأة التي يستحقها، ولكن الشريف عبد الرحمن لم يرسل المدد في الميعاد الذي ضربه له.

وهجم القعيطي على شِبَام واتفق مع منصور على أن يتنازل له عن نصفها، وجاء بعد ذلك الشريف عبد الرحمن الخالدي بألف جندي وفيهم مائتا فارس ونصب خيامه في المِسْحَرَة، فخرج إليهم الأمير عوض في جماعة من كبار يافع منهم سالم بن علي بن هرهرة، وعبد الله مانع بن علي جابر، وعمر عبد الله بوبك، وتكلم السيد عمر بن محمد الهدار فقال للشريف حسين: «لقد وصلتم فأهلًا وسهلًا بقدومكم ولكنكم جئتم متأخرين والقعيطي على استعداد لدفع ٤٠٠ ريال لعودتكم إلى بلادكم»، فرد الشريف عليه وقال: صه صه، كن سيد مسبحتك ولا تتكلم في هذا الشأن، فأجابه السيد الهدار: سترى بعينيك آثار مسبحتي هذه، سوف تسمع أخبارها بأذنيك وسوف تندم.

وطالب الشريف حسين الأمير القعيطي بمرتبات جنوده لسبعة أشهر، وهدده بالحرب إن لم يجبه إلى طلبه، فقال له القعيطي: إني على استعداد للحرب إن أردتها وضرب الفريقان موعدًا للقتال.

وأرسل الأمير القعيطي لحليفه في شِبَام السلطان منصور وجاء منصور بعبيده إلى القَطْن، وانضم إلى يافع، وقامت المعركة بين الفريقين، استعملت فيها الرماح والخناجر وتفرق قوم الشريف شذر مذر تاركين وراءهم عشرات القتلى والجرحى، هذه خلاصة ما ذكره باعباد.

ويقول ابن عبيد الله: «في رجب سنة ١٢٧٤هـ وصل الشريف عبد الرحمن بقوم من القبلة إلى العُرُوض، وأرسل ابنه حسينًا إلى القَطْن عند القعيطي،

وأرسل لآل عبد الله بسَيْئون كتابًا يخبرهم فيه بقدومه ويقول لهم إن أردتم القوم على دراهم معلومة من أصلها ما قد تسلمه القوم منكم لقوت شهرين، وإلا نخاطب يافع، ولا بد للقوم من دراهم يرجعون بها من حضرموت، فأجابه السلطان غالب بن محسن الكثيري إن أردتم القوت فنعم، وأما المشاهرة فلا نقدر أن نجعل لكم شيئًا مقررًا. وأما حسين بن عبد الرحمن فإنه لما وصل القَطْن صادف عندهم الزواج الذي سبق أن السلطان منصور حضره فحصلت منازعة بين الشريف حسين ويافع، وقال حسين: لا بد أن أمر بخيلي ورجلي في القَطْن إلى سَيْئون، فقال له يافعي لن تستطيع أن تمر في القَطْن، فعاد الشريف مسرعًا إلى العُرُوض وأخبر والده بما حدث بينه وبين اليافعي، وفي يوم الأحد لعشر من رجب المذكور أغار الشريف بقومه على القَطْن وقتل الشريف حسين وفرسه وأخذت يافع سلاحه، ولا يزال رمحه محفوظًا إلى اليوم في قصر المرحوم الأمير علي بن صلاح القعيطي بالرَّيِّضَة، وكان عدد الجرحى والقتلى كثيرًا من الفريقين، ومنهم مبارك العريان بن عبد العزيز الكثيري وكان يحارب ببسالة في صف يافع ضد الشريف، ولقد دفن الشريف في باطِنَة آل بَلْفَقِيه.

وتتفق رواية الراحل الكريم الأمير علي بن صلاح القعيطي مع قول باعباد إلى حد بعيد، يقول سمو الأمير وهو حجة في التاريخ: إن مراسلات تبودلت بين الشريف عبد الرحمن الخالدي وبين السلطان منصور بن عمر الكثيري ليأتي بجيشه إلى شِبَام على أن يمنحه مبلغًا كبيرًا من المال ويسبغ عليه نعمه وآلاءه، وغرض السلطان منصور من ذلك أن يقضي على حلفائه يافع وينفرد بحكم شِبَام، ولقد وصل الشريف بقومه إلى العُرُوض ثم زحف إلى المسْحَرَة، وهناك

أخذ يتحرش بيافع ويتحدى قوتهم بما يقوم به من النهب والسلب في ضواحي القَطْن؛ وقيل إن ذلك كان باتفاق مع السلطان منصور ليضعف قوة يافع ويحد من نشاطهم. ومن غرائب الصدف أن السلطان منصور جاء إلى القَطْن بدعوة من السلطان عوض بن عمر القعيطي لحضور وليمة زواج، وقيل إنه حضر إلى القَطْن قبل اشتباك الفريقين ليراقب تنفيذ مكايده، وفي الوقت نفسه كان يتصل سرًا بالشريف حسين ويرسم خططه ضد يافع؛ ولما تقابل الفريقان، ولحقت بقوم الشريف هزيمة منكرة تألم السلطان منصور وتحطمت آماله وعاد إلى شِبَام خائبًا محسورًا، وقبل عودته أراد جماعة من يافع اغتياله ولكن الأمير محمد بن عمر القعيطي أبى أن يغدر بضيفه.

آخر مؤامرة للسلطان منصور

وأخيرًا بعد أن خانه الحظ في تدبير مكايده ومؤامراته فكر في أن يقوم بمذبحة ثانية ليضمها إلى مذبحة المساجد، فكر في اغتيال السلطان عوض بن عمر القعيطي وكبار مستشاريه وأعوانه من يافع والعبيد، أمثال: عبد الله مانع بن علي جابر اليافعي، وسالم بن علي بن هرهرة اليافعي، وعمر عبد الله بوبك اليافعي والحاج الماس وغيرهم، اجتمع ببطانته في قصره وشاورهم في الأمر واتفقوا على أن يدعوا السلطان القعيطي وكبار رجاله لحضور حفلة ختان نجله ثم يغتالهم عن بكرة أبيهم، ويقول باعباد: إنهم وضعوا أكياسًا من البارود على البساط المعد لجلوس المدعوين من يافع، وشاء الله أن ينجو القعيطي وأعوانه من المكيدة الشنيعة التي دبرها لهم حليفهم منصور، فقد سمعت خادم عجوز كل ما دار من حديث المؤامرة في قصر منصور، والخادم من تلك الأسر الفقيرة التي كان يواسيها السلطان عمر القعيطي بالمال ويعطف عليها

كل العطف، قابلت الماس عمر في طريقها إلى قصر السلطان القعيطي وأخبرته بمؤامرة السلطان منصور الكثيري، فهرع الماس عمر إلى القعيطي، ودهش القعيطي واعتراه الذهول لا خوفًا من الموت فهو الباسل المقدام ولكن لأن محالفة قوية تربط السلطانين برباط الود والولاء، ولم يحدث من يافع ما يعكر صفو تلك الصداقة ويدفع بمنصور إلى الخيانة والغدر.

مقتل السلطان منصور

لقد تعددت مكايد منصور وتكررت مؤامراته ضد يافع وآخرها هذه المكيدة الشنيعة التي لو نفذت لغيَّرت مجرى التاريخ الحضرمي، وليس من الحكمة ولا من الحلم التسامح واللين من جانب القعيطي فقد تكون الشدة أحيانًا من الحلم وفي هذا يقول المتنبي:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

لذلك رأى السلطان عوض وأعوانه من يافع أن يدعو السلطان منصور إلى مأدبة ويفتكوا به وببطانته، وتحرك السلطان منصور من قصره إلى قصر الخضراء وأجلسوه في غرفة عليا وهناك ضربه أحد اليافعيين بالسيف فسقط جثة هامدة، ثم قتلوا ابن عمه عبد الله بن علي بن جعفر وأربعة من مماليكه وألقوا القبض على بقية آل عيسى بن بدر وعبيدهم وأجلوهم عن خَشَامِر وقرى القَطْن.

ويقول باعباد إن زوج السلطان منصور هرعت إلى قصر الخضراء حين علمت بمقتل زوجها وكان في يدها سيف، وعند مدخل القصر قابلت سالم بن علي بن هرهرة وعبد الله مانع بن علي جابر فهوت عليهم بالسيف وجرحتهما

جرحًا بسيطًا وأخذا يقاومانها بشيء من اللين والرأفة، ولكن لما تمادت في غيها ضربها أحدهما بالسيف فهوت نحو الأرض ميتة، يا لها من جرأة وشجاعة سيدة يافعية تحمل السيف لتقاتل به جماعة من يافع انتقامًا لزوجها الكثيري، إنها مثل أعلى للحب والإخلاص والوفاء.

وأراد جماعة من يافع قتل الأمير عمر بن السلطان منصور الكثيري ولكن السلطان عوض منعهم، وليس هذا فقط بل أحاطه برعايته وأكرمه كل الإكرام وقرر له مرتبًا شهريًا مدى حياته، ولما رغب الأمير عمر في السفر إلى إندونيسيا زوده السلطان عوض بكل ما يحتاج إليه خلال سفره ومنحه مبلغًا كبيرًا من المال.

انفرد السلطان عوض بن عمر القعيطي بحكم شِبَام، وركز السلطة في يده ولكن من غير استبداد فقد كان لا يبت في أمر إلا بعد أن يستشير أعوانه من يافع.

سِحِيل آل مَهْرِي

احتل آل كثير جانبًا من سِحِيل آل مَهْري بقيادة السلطان غالب بن محسن الكثيري، وقاوموا بكل قوتهم محاولات يافع لاستردادها، واستمرت تلك المحاولات أربع سنين استماتت آل كثير في خلالها في الدفاع عن ذلك الجزء، وكان هدفهم الأكبر تركيز قواتهم هناك للهجوم على المناطق المحتلة بيافع واستردادها؛ ولما كان سِحِيل آل مَهْري من أعظم المواقع الاستراتيجية لشِبَام، فقد قام يافع بهجوم عنيف اضطر آل كثير أمامه للانسحاب من مراكزهم، وبذلك تم ليافع احتلال السِّحِيل، وكان عدد القتلى من يافع أربعة منهم عبد الله بن صالح بن نقيب، وعدد الجرحى عشرة منهم جابر سعيد النقيب وحيدر عبد الله المرفدي، أما قتلى آل كثير فهم ١٢، وعدد الجرحى ٦.

حصن المعيقاب

حين انسحب آل كثير من السِّحِيل تحصنوا في حصن المعيقاب الواقع على مقربة من السِّحِيل ولا تزال أنقاضه قائمة إلى اليوم، ورأى يافع أن بقاء هذا الحصن في أيدي آل كثير خطر على السِّحِيل بل وعلى شِبَام، لذلك عادت الحرب بين الفريقين، وأخيرًا عقد صلح بينهم بواسطة منصب آل الشيخ أبي بكر على أن يتنازل آل كثير عن سِحِيل آل مَهْري وحصن المعيقاب ليافع مقابل عشرة آلاف ريال، وانسحب جميع آل كثير من السِّحِيل وضواحيه في يوم الأربعاء أول ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ.

وفاة الماس عمر

مات الماس عمر في جمادى الآخرة سنة ١٢٨١هـ فخسرت الدولة القعيطية رجلًا وطنيًا مخلصًا، لقد كان من مماليك الجمعدار عمر بن عوض وكان من أبرز الشخصيات وأبعدهم نظرًا وأسرعهم إدراكًا وأنشطهم تفكيرًا وأكثرهم إخلاصًا، فلا غرو إذا أحبه القعيطي وقربه إليه واتخذه من كبار بطانته المخلصين.

وفاة عاهل الدولة القعيطية

في يوم الأربعاء من صفر سنة ١٢٨٢هـ مات عاهل الدولة القعيطية ومنشئها الأول الجمعدار عمر بن عوض القعيطي اليافعي، وافته المنية وهو في حيدر أباد ودفن بها.

وحيدر أباد مهجر الحضارم بعد إندونيسيا، وأول من سافر إليها من الأسرة القعيطية المالكة عامر بن عوض، وسافر بعده عبد الله بن عوض إلى

تاجفور سنة ١٢٢٥هـ، وقد انخرط عبد الله في سلك جيش إحدى ولايات الهند، وسرعان ما ترقى إلى قائد على ثمانمائة جندي من العرب المجندين لما أبداه من الشجاعة والمهارة. أما عمر بن عوض قطب العائلة المالكة وعميدها ومؤسس دولتها في حضرموت فقد سافر إلى الهند في ربيع الأول سنة ١٢٢٨هـ.

ولد في المحرم على مقربة من عَنْدَل، ونشأ في شِبَام، تعلم القراءة والكتابة في صغره ودرس العلوم الدينية، واشتهر بالذكاء وقوة الإدراك وبعد النظر، وبالعطف على الفقراء والبائسين.

وعندما سافر إلى الهند ذهب إلى أخيه عبد الله في تاجفور ولم يكن أخوه راضيًا عن سفره، ومات عبد الله ولم يكن له وارث لأمواله سوى زوجه. واختار أمير تاجفور عمر بن عوض ليحل مكان أخيه الراحل، وقام عمر بوظيفته بنشاط وإخلاص عظيمين فأعجب به الأمير أيما إعجاب، ثم تزوج أرملة أخيه فأحبته ووثقت به كل الثقة ووهبته كل ما تملك لما رأته فيه من الأمانة والصدق والإخلاص، واستطاع عمر بذكائه ونشاطه أن ينمي تركة أخيه وساعده الحظ فأثرى بصورة لم يكن يتوقعها من قبل.

وشاء الله أن تظهر بسالته وعبقريته في فنون القتال، فقد هجم أحد أمراء الهند بجيشه على أمير تاجفور، فنهض عمر بن عوض بجيشه العربي وانطلق كالأسد يدفع العدو دفعًا حتى أقصاه عن الحدود.

ومن ذلك الوقت عظم مقام عمر لدى أمير تاجفور، وأكبر فيه بسالته وبطولته ومقدرته الحربية وقدَّره كل تقدير، ولما مات أمير تاجفور انتهز العدو الفرصة فجاء بجيش عظيم يفوق جيش عمر عددًا وعُدة، ورابط به في الحدود وأرسل

إنذارًا لعمر لينسحب بجيشه العربي من تاجفور ويترك البلاد لأبنائها الهنود، على أن يمنحه كل ما يطلبه من مال، وانسحب عمر تحت ضغط العدو وأخذ معه جيشه العربي وما استطاع حمله من المال وسافر إلى حيدر أباد، وكان حاكمها قد سمع الشيء الكثير عن بطولة عمر ومقدرته الحربية، فاستقبله بكل ما يستحقه من الإجلال والتكريم، وعرض عليه الانضمام إلى جيشه على أن يبقى قائدًا للجيش الحضرمي.

وهكذا استقر الجمعدار عمر في حيدر أباد، وكان له من الأولاد خمسة وهم: صالح ومحمد وعلي وعبد الله وعوض، وكلهم أشقاء ما عدا محمدًا المولود من أم حبشية. وكان عوض أحب أبنائه وأقربهم إلى قلبه، ولعل ذلك يرجع إلى ذكاء عوض ونباهته الممتازة وحسن تصرفه في الأمور.

آل كثير يحتلون الشِّحْر

أراد آل كثير الاستيلاء على الشِّحْر، ليكون لهم ثغر يمكنهم من الاتصال بالخارج فدولة آل عبد الله الكثيرية محصورة في داخل حضرموت، وليس لها منفذ إلى البحر، ولذا بذلوا أقصى مجهودهم للوصول إلى هذه الغاية، وإذا كانت الظروف لم تساعدهم فيما مضى على احتلال الشِّحْر لتفرقهم واختلاف كلمتهم؛ فإن السلطات غالب بن محسن الكثيري استطاع أن يهيئ الظروف بتوحيده صفوف قومه وجمع كلمتهم ولم شعثهم، ففي شهر رجب سنة ١٢٨٣هـ جهز جيشًا للهجوم على الشِّحْر، على أن بعض كبار رجال آل كثير ومنهم صالح بن سالمين بن مرعي بن طالب، وعبد الله محمد الدقيدقي ابن مرعي بن طالب لم يوافقوا السلطان غالب على ذلك؛ نظرًا للصداقة القوية القائمة بين أمير الشِّحْر علي ناجي بن بريك وبين آل عبد الله، ولكن السلطان

غالب أزمع على تنفيذ ما أراده، وكان في إمكانه أن يعقد محالفة صداقة بل محالفة عسكرية مع ابن بريك، وبذلك يستطيع استغلال ميناء الشِّحْر في جلب الذخائر والمؤن من الخارج، ولكن يظهر أنه رأى أن يهاجم الشِّحْر ويحتلها خوفًا من وقوعها في يد القعيطي.

زحف جيش السلطان غالب إلى الشِّحْر في يوم الأحد سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة، وقيل في رجب سنة ١٢٨٤هـ، وكان في مقدمة الجيش عبود بن سالم الكثيري، وعبد الله بن صالح بن مطلق الكثيري، وعايش بن سالمين بن طالب الكثيري، وهادي بن سيف الذي تعهد بربع تكاليف الغزوة.

واستطاع الجيش الكثيري أن يدخل الشِّحْر بعد مقاومة ضئيلة من حماتها آل بوبك وعبيدهم الذين فوجئوا بالهجوم، وكان عدد القتلى منهم أحد عشر ومن آل كثير خمسة، والجرحى من الفريقين كثيرون. واستطاع الأمير علي بن بريك وبعض أعوانه الفرار بحرًا إلى المُكَلَّا؛ ولكن الأمير صلاح بن محمد الكسادي لم يسمح له في بادئ بدء بدخول المُكَلَّا؛ إذ لم يطلب النجدة من يافع ولم يقاوم آل كثير طويلًا، وقيل إن جماعة توسطوا بين الأميرين فعفا الكسادي عنه وسمح له بالدخول.

صدى سقوط الشِّحْر

كان لسقوط الشِّحْر في أيدي آل كثير أثر سيء في نفوس يافع لما لها من الأهمية العظمى اقتصاديًا وحربيًا، فهي الميناء الثاني لحضرموت، وهي نقطة ارتكاز لاحتلال الحامِي والدِّيْس وغيل باوزير، ولكن لم يدب اليأس في نفوسهم ولم تضعف روحهم المعنوية، على أنهم أرسلوا مائتي مقاتل لنجدة ابن بريك حين علموا بهجوم آل كثير عليه، ولكن هذه النجدة وصلت بعد

سقوط الشِّحْر، وأبى عمر عبد الله بوبك أن يزج برجاله ويلقي بهم إلى التهلكة، فقصد إلى المُكَلَّا فاستقبلهم أميرها الكسادي وأنزلهم على الرحب والسعة.

هجوم آل كثير على المُكَلَّا

بعد أن احتل آل كثير الشِّحْر طمعوا في احتلال المُكَلَّا ثغر حضرموت الأكبر ليحاصروا اليافعيين بحرًا ويقطعوا مواصلاتهم بالخارج، ففي أواخر رجب سنة ١٢٨٣هـ سار السلطان غالب بن محسن الكثيري على رأس ألفي جندي من آل كثير وأنصارهم وهجم على الحَرْشِيَّات، وكان بها مائة جندي من جنود الأمير الكسادي. والحَرْشِيَّات أهم مراكز الدفاع للمُكَلَّا، وقد فوجئ حماتها بهجوم آل كثير ودافعوا بكل قوة وعنف وأظهروا من الشجاعة والبسالة شيئًا كثيرًا، غير أنهم أخيرًا اضطروا للانسحاب أمام جيش السلطان غالب وتحصنوا بحصن خازوق تاركين وراءهم عددًا كثيرًا من القتلى، ولما علم الأمير الكسادي بتقهقر جنوده أرسل مائتي جندي بقيادة عمر عبد الله بوبك الحدادي القعيطي ليمكنوا حماة حصن خازوق من الثبات وليصدوا زحف آل كثير وقتًا غير قصير ريثما يعد العدة الكاملة لإقصائهم عن حدود إمارته، واشتد القتال بين حماة خازوق وبين آل كثير، واستمرت المعركة ثلاثة أيام أبلى فيها يافع بلاء حسنًا وأظهروا من الشجاعة والبطولة ما حيَّر عقل السلطان الكثيري، وقتل منهم اثنان وأربعون وفي مقدمتهم عمر عبد الله بوبك اليافعي، وعبد الله جابر الأحمدي اليافعي، ومحمد صالح بن مدشل اليافعي، وقتل من جيش السلطان الكثيري مائة جندي منهم عبد الله بن صالح الكثيري، وسالم بن منيف بن عجاج النهدي. واستمر آل كثير في زحفهم إلى البقرَين بعد أن هزموا يافع وأنزلوا بهم خسارة فادحة، وتألم الأمير صلاح بن محمد

الكسادي فاستدعى الشاعر الشعبي عمر بن محمد بن سعيد باعطوة وقد شاهد هزيمة يافع وسأله عما رآه فقال بعد أن وصف المعركة وأشاد ببطولة يافع وشجاعتهم:

على خازوق بارودنا بيت وظلا ونفقنا البضاعة وسلمنا المُكَلَّا

ولقد أشعل هذا البيت حماسة الأمير الكسادي، فجمع كبار يافع في المُكَلَّا وشاورهم في الأمر، وكان الشاعر عمر بن محمد باعطوة حاضرًا، واستقر رأيهم على الدفاع مهما كلفهم ذلك من التضحيات؛ فسار الأمير الكسادي على رأس قواته، وتقابل الفريقان في البقَرين، واندفع يافع وعبيدهم بكل عنف وقوة في هجومهم على جيش آل كثير، فانسحب هؤلاء إلى الحَرْشِيَّات تاركين وراءهم عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى، وطاردهم الأمير الكسادي وأصلاهم نارًا حامية، ولم يقو السلطان غالب بن محسن الكثيري أمام هجمات يافع، ولم يستطع الصمود فانسحب بجيشه إلى الشِّحْر مهزومًا مدحورًا.

وفي هذا قال الشاعر عمر باعطوة:

أسلابنا زيدتهم من كيله عبرتكم في السدة وإبليس حاوي ذيله

وذلك ردًا على بيت قاله ابن المديد والعمودي حين استولى آل كثير على الحَرْشِيَّات وهو:

الشنفري قدوشن عالق يسقي خيله وشن بغا بايدخن في القابلة يا ليله

وليس من شك أن هذه المعركة من أعظم المعارك الفاصلة؛ فلو أن السلطان غالب انتصر على يافع واحتل المُكَلَّا لتغير مجرى تاريخ يافع بحضرموت، لأن السلطان غالب حين عجز عن قهرهم داخل حضرموت أراد الاستيلاء على الثغور ليحاصرهم في رقعة ضيقة ويمنع عنهم كل المؤن والذخائر.

هجوم يافع على الشِّحْر

سُرَّ اليافعيون من استردادهم الحَرْشِيَّات والبقرَين وإقصاء آل كثير عن ضواحي المُكَلَّا، وبلغ نبأ ذلك الانتصار إلى يافع بالقَطْن وشِبَام فابتهجوا ابتهاجًا عظيمًا، ولا غرو فإن تاريخهم كاد ينقلب رأسًا على عقب. ولقد دفعهم النصر إلى التكتل والتجمع في شِبَام وقرى القَطْن، وإعداد العدة للهجوم على الشِّحْر، وإقصاء الغاصبين عنها. وأخيرًا بعد أن استنجد الأمير عبد الله بن عمر القعيطي بأخيه الأمير عوض بحيدر أباد، وبعد أن تبودلت الرسائل بينه وبين أمير المُكَلَّا صلاح بن محمد الكسادي؛ سار من يافع القَطْن وشِبَام ثلاثمائة مقاتل وعلى رأسهم سالم بن علي بن هرهرة، وأحمد عامر الحضرمي، وعبد الله عوض بن علي القعيطي، فاستقبلهم النقيب الكسادي بما يليق بهم من الحفاوة.

وفي ٢ رمضان سنة ١٢٨٣هـ وصل من الهند الأمير عوض بن عمر القعيطي وبصحبته ٢٠٠ يافعي من مهاجري الهند، و٥٠٠ مقاتل من الرويلة الهنود، وثلاث بواخر صغيرة، وست سفن شراعية محملة بالذخائر والمؤن ومنها عشرون مدفعًا، وكان وصول الأمير القعيطي بهذا المدد العظيم يومًا مشهودًا في تاريخ المُكَلَّا، فقد خرج الأهلون من منازلهم رجالًا ونساء يستقبلون القادمين ووجوههم تطفح بالفرح والسرور ولا حديث لهم غير استعدادات يافع للهجوم، وزاد فرحهم حين جاء في ٢٦ رمضان من السنة المذكورة ١٥٠٠ يافعي مسلح من بلاد يافع وعلى رأسهم الحريبي أحد أبطال يافع المشهود لهم بإصابة الرأي وبعد النظر. وفي شوال سنة ١٢٨٣هـ جاء من شِبَام الأمير محمد بن عمر القعيطي وبمعيته ٢٠٠ مقاتل من يافع وآل تميم، وجاء أيضًا

الأمير منصور بن حسين بن قملا حليف الدولة القعيطية وبصحبته ٥٠٠ مقاتل وفيهم مائة فارس، هكذا تكتلت جموع يافع وأنصارهم في المُكَلَّا وأصبحت الدور والشوارع تعج بهم، ولكن كل شيء كان يبتسم فرحًا، وكان كل شخص يبدي للآخر كل ما يمكن من المساعدة والمعاونة، وتعهد القعيطي والكسادي على أن تكون ثلاثة أرباع تكاليف الحملة عليهما وربع على حسين صالح المصلي، وسعيد بن حسين بن علي الحاج، وسعيد بن علي النقيب.

بعد أن جهز الجيش البالغ عدده ٤٠٠٠ مقاتل أحسن تجهيز تحرك في طريقه إلى الشِّحْر في شهر ذي القعدة سنة ١٢٨٣هـ وضرب حصاره على المدينة، وعلم آل كثير بسَيْئون ما يحيق بقومهم في الشِّحْر وما يحيط بهم من الأخطار فأرسلوا قافلة محملة بالذخائر والمؤن يحرسها جماعة من جنودهم، ولسوء حظهم وقع هذا المدد في يد يافع بعد معركة عنيفة بينهم وبين عصبة من يافع بقيادة حسين بن صالح المصلي في قرية رَشْنِيت على مقربة من الشِّحْر، وقد قُتل في هذه الوقعة ستة من آل كثير، وأسر منهم عشرة، وقُتل من يافع أربعة.

وفي فجر يوم الاثنين ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٨٣هـ أصدرت الدولة القعيطية أمرها بالزحف، وانقسم يافع قبيل الزحف إلى ثلاث فرق: الأولى وكانت مكونة من المماليك والهنود بقيادة الأمير عبد الله عوض بن علي القعيطي، والثانية وكانت مكونة من يافع الضبي بقيادة سالم بن علي بن هرهرة، والثالثة وكانت مكونة من يافع الموسطة بقيادة سالم غالب بن علي الحاج، أما الرابعة فهي السفن الحربية التي أخذت تطلق مقذوفاتها أثناء الهجوم.

وقاوم آل كثير بكل بسالة وشجاعة يومين كاملين، ولما كادت ذخيرتهم تنفد وقد أخذ يافع يتسلقون سور الشِّحْر ويحاربون في الشوارع والدور انسحبوا

تحت غلالة من نيران البنادق والمدافع، وكان القتلى من آل كثير ١٣٥ قتيلًا، منهم الأمير عمر بن علي بن أحمد الكثيري، ومن يافع ٩٠ ومنهم ستة من آل علي الحاج، وثلاثة من آل علي جابر، أما الجرحى في الفريقين فكثيرون.

واتجه السلطان غالب بن محسن الكثيري بفلول جيشه مخترقًا الجبال إلى سَيْئون، وفي رواية أن السلطان غالب تنكر في زي امرأة وخرج من الشِّحْر مع النساء والأطفال، وقد أطلق يافع سراح الذين اختبأوا في دار باجمّال في دُفَيْقَة أثناء انسحاب آل كثير وهم عبود بن سالم الكثيري، وعايض بن سالمين ابن طالب، وهادي بن سيف، وعبد الله بن صالح بن مطلق، وعادوا إلى سَيْئون مكرمين.

محاولة يافع الهجوم على تَرِيْم

أرسل بنو تميم إلى السلطان عوض بن عمر القعيطي يطلبون جنودًا لاحتلال تَرِيْم؛ نظرًا لقربها من حدودهم ولأن آل كثير اتخذوها قاعدة لمناوأتهم من حين إلى حين، وبما أن المعاهدة القائمة بين القعيطي وآل تميم تقضي بمساعدتهم عسكريًا حين تدعو الضرورة إلى ذلك، وبما أن آل تميم ساعدوا يافع في بعض حروبهم ضد آل كثير؛ فإن السلطان عوض لم يجد مناصًا من إجابة طلبهم؛ فقد أرسل مائتي مقاتل بقيادة عبد الله جابر المصلي اليافعي. وصلت هذه القوة إلى السُّوَيْرِي في جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤هـ ولكن بني تميم اختلفوا فيما بينهم لتدخل بعض ذوي السلطة الروحية، وبما أن المصلي لا يستطيع أن يقوم بالهجوم بقوته القليلة العدد على مدينة كبيرة محصنة تحصينًا قويًا، فقد ظل في السُّوَيْرِي وأخذ يبذل مجهوده لجمع كلمة آل تميم وتوحيد صفوفهم، وفي الوقت نفسه أخذ يناوئ سكان تَرِيْم وضواحيها ويحاول قطع مواصلاتها بسَيْئون.

الخلاف بين القعيطي والعولقي

كان عبد الله بن علي العولقي من كبار الشخصيات العربية بحيدر أباد، واستطاع بذكائه ونشاطه ودهائه وحزمه وعزمه أن يملك ثروة طائلة، ويتبوأ منصبًا عاليًا لدى ملك حيدر أباد.

وكان كثير المطامح والآمال، فقد حاول التغلب على أقرانه أمثال عمر بن عوض القعيطي وغالب بن محسن الكثيري ويسبقهم إلى أعلى المراتب، وأكثر من ذلك كان يحلم بإقامة حكومة بحضرموت، وعلى الرغم من صداقته للقعيطي واحترامه لشخصيته؛ كان يبطن الحقد له ويدبر المكايد في الخفاء، ولكن القعيطي كان حليمًا معه إلى أقصى حدود الحلم.

وفي أحد الأيام زار العولقي القعيطي في قصره الفسيح، وكان في حديقة القصر نخل لم يثمر بعد، فقال للقعيطي حين استقبله: «متى يثمر نخلك يا عمر؟» وكان تحت النخل بعض أبنائه يلهون ويلعبون فرد عليه قائلًا: «عن قريب سوف يثمر وسوف تذوق أنت وغيرك خريفه».

وشاءت الأقدار أن يبتاع العولقي أرضًا في حضرموت على مقربة من غيل باوزير، وأقام عليها حصنًا كبيرًا قويًا لا تزال جدرانه وغرفه ودهاليزه قائمة إلى اليوم ويعرف بحصن الصِّدَاع، بناه ليكون نواة للإمارة التي كان يحلم بها.

وبعد وفاة الجمعدار عمر بن عوض القعيطي أظهر العداء والبغضاء ليافع، وانتهز فرصة الحرب القائمة بينهم وبين آل كثير فأظهر عطفه للسلطان غالب بن محسن الكثيري، وتطور هذا العطف أو هذه الصداقة إلى عقد اتفاق على محاربة يافع وإقصائهم عن الثغور على أن يقوم العولقي بأكبر قسط من تكاليف الحرب.

هجوم آل كثير على الشِّحْر

وفي رجب سنة ١٢٨٤هـ سار السلطان غالب بن محسن الكثيري على رأس ثلاثة آلاف مقاتل نحو الشِّحْر وكان بها ألف مقاتل من يافع، واستطاع جيش الكثيري بعد أن تكبد خسائر فادحة أن يقترب من سور المدينة ويفتح ثغرة فيه بقرب مسجد باهارون دخل منها الجيش أفرادًا وجماعات واحتلوا نحو ثلثي المدينة، واستمرت المعارك بضعة أيام في المنازل والشوارع، ولما أحدق الخطر بيافع اجتمع كبارهم برئاسة السلطان عوض بن عمر القعيطي، وكان عبد الله بن علوي بن الشيخ أبي بكر الملقب بخمور حاضرًا في الاجتماع ولكنه أُخرج من الجلسة حين ظهر ليافع عدم إخلاصه لهم، وطلب المجتمعون من القعيطي أن ينسحب إلى المُكَلَّا بحرًا ويتولى يافع الدفاع إلى آخر لحظة ولكنه أبى وأصر على البقاء معهم إلى النهاية، وأمر السلطان القعيطي بوضع أكياس من البارود في سراديب دار ناصر وحصن ابن عياش ليشعل فيها النار عندما يدخلهما المهاجمون، وتحمس يافع كل التحمس حين رأوا ثبات سلطانهم واستخفافه بالموت في سبيل الدفاع عن الشِّحْر، فاندفعوا بكل عنف وأصلوها نارًا حامية، واشتبك الفريقان في الشوارع والمنازل بالسلاح الأبيض، فأخذ السلطان الكثيري يتراجع بجيشه شارعًا شارعًا وبيتًا بيتًا وينسحب من غير انتظام، وهكذا تحول الدفاع إلى هجوم وكان الذهول باديًا على وجوههم وظنوا أن مددًا كبيرًا وصل ليافع، وأخيرًا انهزم آل كثير شر هزيمة تاركين وراءهم ١٢٠ قتيلًا وستين جريحًا وعشرين أسيرًا، وسار السلطان الكثيري بفلول جيشه إلى غيل باوزير.

أما عدد القتلى من يافع فهم ٢٦ نفسًا؛ ومنهم الأمير عبد الله عوض بن محمد بن علي القعيطي، وسالم غالب بن علي الحاج، وثلاثة من آل تميم، وخمسة من الهنود.

احتلال غيل باوزير

وعلم يافع أن العولقي وآل عمر باعمر وآل كثير يقومون بنشاط عظيم في الغيل لاسترداد الشِّحْر، فأرسل السلطان عوض ١٦٠٠ مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمي اليافعي، وسعيد بن علي النقيب اليافعي، وسعيد حيدر البكري اليافعي، وكان البكري رئيسًا على القوة الهندية إذ كان يعرف لسانهم.

سارت هذه القوات إلى الغيل وكان بها ٢٥٠ من آل عمر باعمر، و٢٠٠ من الحُمُوم، و١٥٠ من آل كثير، وعلى رأس هؤلاء عبود بن سالم الكثيري، وعايض بن سالمين بن طالب الكثيري، وكان العولقي وأعوانه في حصن الصِّدَاع على أتم استعداد لمناصرة آل عمر باعمر وغيرهم ضد يافع.

حاصر يافع الغيل يومين، وفي اليوم الثالث جاءهم السلطان عوض بن عمر القعيطي وأصدر أمره بالهجوم، ولما سقطت المدينة لم يجد يافع فيها من المدافعين سوى آل عمر باعمر؛ أما آل كثير والحُمُوم فقد تمكنوا من الفرار في جنح الظلام، وقد أسفرت هذه المعركة عن ٧٨ قتيلًا و٦٠ أسيرًا من آل عمر باعمر، و٤٥ قتيلًا من يافع، وعدد الجرحى في الفريقين كثير.

واستمر يافع في زحفهم إلى حصن الصداع وحاصروه بضعة شهور واضطر العولقي وأنصاره إلى التسليم، وقيل إن السلطان القعيطي حين اشتد النزاع بينه وبين العولقي أوعده باحتلال حصن الصداع وبإرسال حفنة من ترابه بعد هدمه إلى حيدر أباد ليذره حتى شار منارة، وأنجز القعيطي ما أوعد، ومات الجمعدار عبد الله علي العولقي في حيدر أباد في صفر سنة ١٢٨٥هـ.

استيلاء آل كثير على مَرْيَمَة

تقع بلدة مَرْيَمَة في قلب المنطقة الكثيرية، وقد أنشأها بنو بكر حين سطع نجم يافع في تَرِيْم وسَيْئون.

ولم تكن الدولة الكثيرية تخشى هذا العدد القليل من يافع، ولكن حين مني السلطان غالب بالهزيمة الشنيعة في موقعة الشِّحْر أراد أن يصب غضبه على آل البكري فأجلاهم من ديارهم وساروا إلى القَطْن وأقاموا في الحوطة (الرَّيِّضَة)، ولقد تألم الأمير محمد بن عمر القعيطي لذلك، فأجلى قبيلة آل زيْمَة من عَرْض سرور الواقع غربي شِبَام وأسكن فيه بعضًا من بني بكر، ولكن هؤلاء لم يرتاحوا في الإقامة هناك فعادوا إلى الرَّيِّضَة ثم ابتاعوا أرضًا بين الخِبَّة والفُرُط وبنوا عليها حصونًا وأقاموا فيها، وتسمى اليوم (بَابَكَر) ولا تزال أطلال مَرْيَمَة قائمة إلى اليوم، وقد شاهدتها تعج بالصمت والعدم حين مررت بها في رحلتي إلى تَرِيْم في سبتمبر سنة ١٩٤٧م.

استقلال نهد

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيري قد احتل معظم بلاد نهد وأدخلها تحت حكمه، وكان آل عمر بن جعفر الكثيري يقومون بالحكم بالنيابة، وكان بنو بكر في سَدْبِة يتولون شؤون الأهالي ويذودون عن حوضهم من اعتداءات آل محفوظ وغيرهم، وكانت إمارة لَحْرُوم وعَنْدَل في يد أحمد محسن الحثامي البكري اليافعي. ولما مات أحمد عبيد البكري اليافعي والي سَدْبِة لم يقم بعده والٍ فانتشرت الفوضى بين الأهلين، وسافر أحمد محسن البكري إلى حيدر أباد لطلب الرزق؛ إذ لم تقم لَحْرُوم وعَنْدَل بسد حاجياته ولم يكن له من عشيرته من يقوم بالأمر بعده فأصبحت المدينتان في فوضى، على أن عامر جعيم المرفدي اليافعي قام بأمر عَنْدَل ولكنه كان ضعيف الإرادة والسياسة.

وفي ذات يوم خرج من حصنه إلى جبل (شرِج) عَنْدَل رآه جماعة من آل منيف سكان لَخْمَاس فساروا إليه وقتلوه، وساروا إلى حصنه ونهبوا ما فيه من المال والطعام وهدموه وردموا بئره.

وكان لاندحار آل كثير من الشِّحْر وشِبَام أكبر مشجع لنهد في الاستقلال فخلعوا طاعة آل كثير وأخذوا يهيئون أنفسهم ويعدُّون العدة للاستقلال. وفي سنة ١٢٨٤هـ ثار آل منيف على القُفُل[١] واحتلوه ثم ساروا إلى الدَّهيل واستولوا عليها وعلى لَخْمَاس وقتلوا صالح بن عمر بن جعفر الكثيري، وبقتله انتهى نفوذ آل كثير على نهد.

بين العمودي والكسادي

والنقيب صلاح بن محمد الكسادي اليافعي أمير المُكَلَّا من أقوى الشخصيات وأكثر الناس حزمًا وأسمحهم سيرة، ولا يزال ذكره يحتل مكانًا كبيرًا في قلوب الناس حتى اليوم.

أراد أن يقضي على الفوضى والاضطرابات في دَوْعَن، وينشر الأمن ويبسط السلام؛ فأرسل قوة من جيشه بقيادة مجحم أحمد سنة ١٢٨٦هـ، واستولى على معظم وادي الأيمن، ونهض العمودي أمير الخُرَيْبَة، وجمع قبائل القثم وسَيْبَان والمراشدة والجعدة لمحاربة الكسادي، وأرسل وفدًا للسلطان الكثيري يستنجد به، وبعد أن احتل الكسادي الخُرَيْبَة طلب الأهالي حرسًا من عبيده لحماية أموالهم وأنفسهم من بطش قوم العمودي فأجابهم إلى ذلك، ولكن النساء تضررن من العبيد فطلبوا إلى الكسادي أن يبدلهم بجماعة من البادية.

(١) حصن شاهق، يقع على مقربة من شراح، بناه السلطان بدر بوطويرق الكثيري.

وفي ٢١ صفر من السنة المذكورة سار المقدم عمر بن سالم بن مساعد إلى سَيْئون لطلب المساعدة عسكريًا للعمودي من آل كثير، فوعدوه بإجابة طلبه. واستمر الكسادي في هجماته واحتل حصنًا قويًا على مقربة من الخُرَيْبَة بعد أن دافع حماته دفاعًا مجيدًا وقتل منهم خمسًا وعشرين نفسًا.

وأرسل الشيخ عبد الله بن محمد القحوم للدولة الكثيرية فأمدته بثلاثمائة مقاتل من الشنافر والعوامر وآل جابر؛ ولكن هذا المدد لم يُقِم طويلًا بدَوْعَن، فعادوا إلى سَيْئون بحجة أن السيد العمودي لم يقم بالواجب نحوهم، فانتهز الكسادي هذه الفرصة وأرسل مائة وخمسين مقاتلًا واحتلوا ديار المشايخ الواقعة على مقربة من الرباط، وفي جمادى الآخرة سنة ١٢٨٨هـ عقد صلح بين الكسادي والعمودي.

هذه خلاصة ما ذكره ابن حميد. وأما السبب لغزو الكسادي لدَوْعَن فهو كما قال الشيخ عمر بن سعيد الفقيه العمودي اختلاف المشايخ فيما بينهم، واشتداد النزاع بين زعمائهم على الرئاسة والسيطرة وحب الظهور، الأمر الذي دفع ببعضهم للاستعانة بالكسادي ضد البعض الآخر.

واستطاع الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوي العمودي أن يؤلب معظم قبائل دَوْعَن ضد الكسادي، وعقد مؤتمرًا في الشُعبة حضره رؤساء المشاجرة وهم: أحمد بن سالم بابحير، وسعيد باصليب، وصالح باحكيم، والشيخ أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ عمر وأخوه من النجيدين بِريدة الدَّيِّن وأتباعهم من مقادمة الدَّيِّن وهم سالم بن عمر بامسدوس، وعوض بن عمر باكرشوم، ومحمد بن قردان، ومقدم القثم محمد بن عبد الله بامغرومة، والشيخ عمر بن عبد الله باطوق وأتباعه من مقادمة آل بالعبيد وهم عمر بن عبد الله باهيصمي وأبناء عمه.

اتفق هؤلاء جميعًا واجتمعت كلمتهم على طرد الكسادي من دَوْعَن وسلموا القيادة للشيخ صالح بن عبد الله بن مطهر العمودي والد الشيخ عبد الله بن صالح منصب بُضَة.

ولما علم محجم قائد قوات الكسادي بتأليب القبائل ضده، أرسل من يعرض على الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوي ثلاثة آلاف ريال ليعدل عن مشروعه ويصرف القوم، ولكن الشيخ رفض، وهجم المشاجرة وآل بالعبيد على رِحَاب واحتلوها بعد معركة عنيفة قتل فيها من قبائل العمودي ثمانون ومن جنود محجم أكثر من مائة.

وأراد محجم حين شعر بالخطر يحدق به أن يحرم العمودي من الغنائم، فحشى مدفعه بكمية من البارود وربط حماره بفوهته، ولكن جماعة من رجال العمودي وثبوا عليه واعتقلوه قبل أن يشعل النار في البارود، وكان الحمار من نصيب الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوي، والمدفع من نصيب حاكم بُضَة، ولا يزال المدفع هناك إلى اليوم. وهكذا استطاع العمودي أن يقضي على سلطة الكسادي وينفرد بالسلطان على دَوْعَن.

وفاة السلطان غالب بن محسن الكثيري

في رجب سنة ١٢٨٧هـ توفي السلطان غالب في سَيْئون عن ٦٤ سنة، قضى جانبًا كبيرًا منها في النضال والكفاح، كان قائدًا مقدامًا وحاكمًا حازمًا، أنفق ثروته لخدمة قومه آل كثير وإعلاء شأنهم، ولا شك أنه أحيا ملك آبائه بعد اندثاره، وأقام بنيان الدولة الكثيرية الفتية.

امتداد سلطان يافع

في سنة ١٢٨٧هـ أرسل السلطان عوض بن عمر القعيطي ٣٠٠ مقاتل يافعي من الشِّحْر إلى الحَامِي واحتلوها واحتلوا بعد ذلك رأس باغشوة والقرن والدِّيْس، دون أن يلاقوا أمامهم مقاومة شديدة.

وفي سنة ١٢٨٨هـ أرسل ٥٠٠ مقاتل من يافع إلى قُصَيْعَر وكانت محصنة بقوم من الحُمُوم، فثارت الحرب بين الفريقين وانتهت بهزيمة الحُمُوم واحتلال يافع لمدينة قُصَيْعَر وميناءها الصغير.

وفاة الأمير الكسادي

في سنة ١٢٨٨هـ مات الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي، فبكته الأمة بكاءً مرًا وخسرت فيه رجلًا وطنيًا مخلصًا وحاكمًا عادلًا كريمًا. قام بالأمر بعده ابنه النقيب عمر بن صلاح الكسادي اليافعي.

محاولة آل كثير احتلال شِبَام

إنها طعنة من الوراء وأية طعنة؟ ففي شهر الحجة سنة ١٢٩١هـ ذهب معظم يافع في شِبَام إلى قرى القَطْن لقضاء أيام العيد بين أهاليهم، ولم يبق منهم في المدينة سوى الأمير عبد الله بن عمر القعيطي و٢٩ رجلًا من يافع و١٥٠ مقاتلًا من المماليك، فانتهز آل كثير هذه الفرصة، وهجموا على شِبَام في يوم الزينة ودخلوها ونهبوا المتاجر، فأرسل الأمير عبد الله بن عمر القعيطي إلى فخائذ يافع بالقَطْن يطلب المدد، فجاءه خمسمائة وسبعون مقاتلًا من يافع منهم سبعون من آل علي جابر، واشتدت المعركة في شوارع شِبَام، وكان الأمير عبد الله يراقب بنفسه مراكز الدفاع، وربما مر على المناطق المحتلة

بآل كثير راكبًا فرسه فظنوه من رجال الدين، إذ كانت ملابسه واسعة بيضاء وعلى رأسه عمامة كبيرة.

وانتهت المعركة باندحار آل كثير وانسحابهم وحدانًا وجماعات، وقد بلغ عدد القتلى من يافع سبعة ومن آل كثير ٢٥ دفن عشرون منهم في بقعة من الأرض على مقربة من باب شِبَام يقال لها الآن نخل عشرين.

الخلاف بين القعيطي والكسادي

كان النقيب صلاح بن محمد الكسادي اليافعي جوادًا، يدفع مرتبات جنوده في المُكَلَّا وبُرُوْم بسخاء ويبذل من ماله لإصلاح شؤون شعبه شيئًا كثيرًا، ولما نقصت إيرادات الجمرك اختلت ميزانيته واضطربت شؤونه المالية، وحين أراد السلطان عوض بن عمر القعيطي اليافعي غزو سَيْئون للمرة الأخيرة أبدى النقيب صلاح استعداده لمساعدته عسكريًا ضد آل كثير واقترض منه مائة ألف ريال على أن تبقى في ذمته يدفعها له متى استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وزحف القعيطي والكسادي بجنودهما شطر سَيْئون والتقى بهم آل كثير وآل باجري والعوامر في الغييضات فانهزم يافع وعادوا إلى شِبَام، ثم حدث نزاع بين السلطان القعيطي والنقيب الكسادي، فأخذ السلطان جنوده وعاد بهم إلى الشِّحْر وعاد النقيب برجاله إلى المُكَلَّا. وأراد الكسادي أن يمد نفوذه، وينشر سلطانه على دَوْعَن؛ فأرسل جيشًا بقيادة محجم واحتل قرى كثيرة؛ ولما توفي النقيب صلاح بن محمد الكسادي قام بالأمر بعده ابنه عمر، وفي عهده تمرد العمودي شيخ دَوْعَن وأخذ يؤلب قبائل البادية ضده، فعرض السلطان عوض بن عمر القعيطي مساعدته للنقيب ضد العمودي فقبل هذا العرض وجاء القعيطي بمائة وخمسن مقاتلًا وقيل ستمائة مقاتل، واغتنم فرصة دخوله إلى المُكَلَّا، وطالب الكسادي بدفع المائة ألف ريال التي اقترضها منه والده الراحل.

واشتد الخلاف بين الطرفين؛ وقيل إن الكسادي استعان بآل كثير ضد القعيطي، بيد أنه في سنة ١٨٧٣م عقدت بينهما معاهدة على أن يتنازل النقيب عن ناصفة المُكَلَّا وعن بُرُوْم والحَرْشِيَّات مقابل دفع لاكين ونصف لاك من الريالات، يخصم منها الدين الذي يستحقه القعيطي. وبعد ذلك بزمن اشترى القعيطي مركبًا وأرسله إلى عدن غير أن حكومة عدن ألقت القبض عليه طبقًا لقانون التسجيل، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد القعيطي أن يرسلها في الحال إلى بومباي من دون أن يقوم بأعمال عدائية ضد أي ميناء من الموانئ الحضرمية.

على أن القعيطي حاول مرة أخرى أن يضرب حصارًا بحريًا على المُكَلَّا، وحجز بعض زوارق كانت قاصدة إلى المُكَلَّا، ولكن حكومة عدن أمرته بدفع غرامة قدرها ٦١٤٢ ريالًا وأنذرته عاقبة الاعتراض للمواصلات التجارية في المستقبل.

وفي سنة ١٨٧٦م فوضت الحكومة الإنجليزية المقيم السياسي بعدن لعقد صلح بين القعيطي والكسادي، فسافر المقيم السياسي إلى المُكَلَّا وتم بواسطته عقد صلح لمدة سنتين. وبعد انتهاء السنتين مدَّ في الصلح سنة أخرى. وبما أن الصلح كان مؤقتًا استؤنفت الأعمال العدائية من جديد. وفي سنة ١٨٨٠م استولى القعيطي على بُرُوْم، وقيل إن النقيب سلمها له من دون إراقة دماء، بناء على الأمر الصادر من حكومة الهند.

وفي نوفمبر سنة ١٨٨١م اضطر النقيب عمر بن صلاح الكسادي تحت الضغط الشديد أن يسلم نفسه إلى قبطان البارجة (دراجون) فأبحر إلى عدن في طريقه إلى زنجبار، وبصحبته عدد من الأتباع والأنصار، ودخلت المُكَلَّا وملحقاتها تحت سيطرة القعيطي.

وفي سنة ١٨٨٢م عقدت اتفاقية مع السلطان عوض بن عمر القعيطي بأن يتقاضى النقيب وورثته وخلفه مرتبًا سنويًا قدره ٣٦٠ ريالًا. وفي الوقت نفسه دفع السلطان إلى المقيم السياسي بعدن ما ينيف عن ١٠٠٠٠٠ ريال، مقابل نفقة أمير المُكَلَّا السابق النقيب عمر بن صلاح الكسادي. وفي سنة ١٨٨٨م قبل النقيب النفقة بعد أن رفضها بضع سنين.

وعقدت في أول مايو سنة ١٨٨٨م معاهدة حماية مع الجمعدار عبد الله بن عمر القعيطي وأخيه عوض بن عمر ووقع عليها في فبراير سنة ١٨٩٠م وأهم ما جاء في هذه الاتفاقية تعهد الحكام المحليين ألا يرتبطوا مع أية دولة أجنبية إلا برضا الحكومة الإنجليزية.

وقعة التُّخم المشهورة

اغتنم آل كثير فرصة قيام الفتنة بين القعيطي والكسادي واتساع نطاق الخلاف بينهما فعرضوا مساعدتهم للكسادي ضد خصمه، وقيل إن الكسادي استنجد بهم فجاءه ١٤٠٠ مقاتل من آل كثير، وثارت حماسة يافع في الشِّحْر وطلبوا إلى السلطان عوض ليتعرضوا لهم ويمنعوهم من دخول المُكَلَّا، وسار عمر عوض القعيطي بثلاثمائة مقاتل وانضم إلى هؤلاء مائتا مقاتل من غيل باوزير بقيادة سعيد أحمد الحضرمي. تقابل الفريقان في التُّخُم وأحاط بهم آل كثير إحاطة السوار بالمعصم وقتلوا من يافع ٤٥ وجزوا رأسي عوض القعيطي وسعيد أحمد الحضرمي، ولم يقتل من آل كثير سوى ١٢ وأرادوا الذهاب إلى المُكَلَّا، ولكن النقيب الكسادي أمرهم بالبقاء في الحَرْشِيَّات خوفًا من أن ينقلبوا ضده ويحتلوا المدينة، وبعد بضعة شهور عادوا إلى سَيْئون.

وفاة الجمعدار عبد الله بن عمر القعيطي

في يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٨م مات الجمعدار عبد الله، ولم يمنع هذا الحكومة الإنجليزية من الموافقة على استمرار إطلاق المدافع كتحية ودفع المرتب السنوي إلى أخيه السلطان عوض بن عمر، فأطلقت للسلطان ١٢ طلقة كتحية و٩ طلقات منحت له على الدوام، وقد نجحت الموافقة على هذا في سنة ١٩٠٢م.

الخلاف بين أعضاء الأسرة الملكية

في سنة ١٨٩٦م قام نزاع عنيف بين السلطان عوض بن عمر القعيطي وابني أخيه حسين ومنصر، وكان النزاع حول أحقيتهما في الإمارة وتوزيع أموالهما، وكان الأمير منصر بن عبد الله القعيطي قائمًا على غيل باوزير، والأمير حسين حاكمًا على نصف الشِّحْر، والنصف الآخر للأمير غالب بن عوض القعيطي، ولا شك أن وجود حاكمين في مدينة واحدة يثير الخلاف والنزاع والتنافس على السلطان، وعندما اشتد التنازع والتقاطع انضم يافع الموسطة إلى آل عبد الله كما انحاز يافع الضبي إلى السلطان عوض.

وقد حاول المقيم السياسي بعدن في سبتمبر سنة ١٩٠١م أن يصلح ذات البين بين المتنازعين ولسوء الحظ ذهبت محاولاته أدراج الرياح؛ كما أن المفاوضة التي جرت في عدن في فبراير سنة ١٩٠٢م باءت بالفشل أيضًا.

وسافر عوض بن عمر إلى الهند بينما عاد ابنا أخيه إلى الشِّحْر بعد أن وقعا على التزام تعهدا فيه بأنهما لن يتعرضا لسياسة البلاد، غير أن هذا التعهد لم يستمر طويلًا. وأخيرًا تدخل منصب آل الشيخ أبي بكر السيد أحمد بن سالم

بن سقاف لإصلاح ذات البين بين المتنازعين، وبعد جهود بذلها المنصب للوصول إلى هذه الغاية حكم لكل من حسين ومنصر بمبلغ كبير من المال ولكنهما رفضا قبول هذا الحكم.

وفي يوليو سنة ١٩٠٢م ذهب المقيم السياسي مصحوبًا بالسلطان عوض بن عمر في بارجة إنجليزية إلى الشِّحْر ومعهما قوة مسلحة، وقد صعد الأمير حسين إلى ظهر البارجة للمفاوضة ولكن البارجة أبحرت به إلى عدن، وبعد زمن لحقه أخوه منصر، ولقد حاول الأمير منصر بعد وفاة أخيه حسين سنة ١٩٠٦م أن يثير الخلاف والنزاع من جديد ولكن محاولته كان من نصيبها الفشل.

سلطان بدل جمعدار

في سنة ١٩٠٢م أصدرت حكومة الهند أمرًا بوقف استعمال (جمعدار) كلقب للرئاسة الذي لم تعد حكومة عدن تستعمله نظرًا لاستياء القعيطي منه وأمرت أن يتخذ لقب سلطان بدلًا من جمعدار.

دَوْعَن

تشمل بلاد دَوْعَن جزءًا كبيرًا من الهضاب الشمالية لحضرموت، وتتفرع إلى واديين كبيرين يقال لأحدهما الأيمن (ليمن) وللآخر الأيسر (ليسر)، تحيط بكل منهما جبال شاهقة داكنة جرداء تنحدر انحدارًا هائلًا يبلغ ٩٠٠ قدم. وفي المناطق المنخفضة يوجد عالم من الفتنة والجمال فتسطع الشمس بأشعتها الذهبية اللامعة على الوادي الساكن العديم الحركة، وبين حقول الذرة الخضراء التي تروى بالسيل تنتشر أحراج النخيل تطاول السماء، يخترقها شريط أبيض كالثلج هو قاع السيل، والقرى متناثرة بين كل ذلك وهي لا تتصل ببعضها في سهولة لوعورة الأرض والتواء أديمها.

وكانت دَوْعَن معروفة عند قدماء الجغرافيين، فقد ذكرها بطليموس باسم (تواني) Toani، وكانت مدينة الخُرَيْبَة مقرًا للإباضية، ولما أبيدوا هدمت مدينتهم، ولما كان اسمها يدل على الخرائب فقد استنتج بعض الجغرافيين أنها تقوم على أطلال مدينة دَوْعَن القديمة.

ولم يكن الدوعنيون مجتمعًا واحدًا تشرف عليه حكومة واحدة؛ فكل مدينة مستقلة في إدارة شؤونها تحكم نفسها بنفسها وتخضع لزعيمها خضوع العبد لسيده، فهم يشبهون إلى حد كبير الإقطاعيين في القرون الوسطى Faudalism، وكان معظم تلك المدن بالغًا من الصغر حدًا بعيدًا حتى لم يتجاوز عدد سكان بعضها عددًا ضئيلًا من الناس، ولقد أدى تفرق القوم في مدائن؛ وبعبارة أوضح في مقاطعات إلى تنافرهم وتناكرهم، فتولد بينهم شعور المنافسة، وتمكنت في نفوسهم العصبية للمقاطعة.

وفي المناطق العليا تسكن قبائل بادية كالقثم والدَّيِّن، وهم مشاغبون محبون للحرب لم يخضعوا لحكومة إلا بعد معاناة الأمرَّين.

واستطاع الزعماء أن يكوِّنوا لهم إقطاعًا ويخلقوا لهم نفوذًا وسلطانًا، ولم يكن لرؤساء تلك الأقطاعات رابطة تربطهم ولا مرجع أعلى يرجعون إليه، فكل منهم حاكم مطلق، لا يرد له أمر، ولا يسأل عما يفعل، ينهبون أموال الأهالي ويكنزونها لأنفسهم.

وكان لآل العمودي في دَوْعَن العليا نفوذ دونه كل نفوذ وسلطة دونها كل سلطة، ولم ينالوا هذا النفوذ المطلق بقوة الحديد والنار، وإنما نالوه بواسطة السلطة الروحية التي انحدرت إليهم من المرحوم الشيخ سعيد العمودي؛ فقد كان هذا الرجل عالمًا صالحًا ورعًا كريمًا متفانيًا في الإصلاح بين الناس

وإرشادهم إلى الخير حتى عظم مركزه وعلا شأنه واحترمه الشعب وأحبوه وانقادوا له وكادوا يعبدونه، وأتباعهم من القبائل القِثِم من سَيْبَان وقبائل الدَّيِّن.

وهؤلاء يدافعون بكل ما لديهم من قوة دون أن يأخذوا على ذلك أجرًا؛ لأن لهم مع آل العمودي مصالح مشتركة واعتقادات خرافية في الشيخ سعيد العمودي؛ يقدسون ضريحه في قَيْدُون ويستغيثون به من دون الله، فهم إنما يدافعون عن آل العمودي بدافع سلطة هذه الروحية؛ وعلى الرغم من أن حكام الخُرَيْبَة وبُضَة والرباط وغيرها من آل العمودي، فإن كلًا منهم حبله على غاربه لا يرتبط بالآخر في شيء ما، يحكم مقاطعته بما تهواه نفسه وما تدفعه إليه إرادته.

وقام التنافس والتنازع والتشاحن بين ابن مطهر صاحب بُضَة وابن علي باكريم وآل عمر باحسين وآل محمد بن سعيد وغيرهم من الأسر العمودية، وهذا التنازع والتنافس كان من أعظم الأسباب التي ساعدت يافع على احتلال دَوْعَن كما سيأتي ذلك.

وكان لآل باصرة نفوذ لا سيما في مدينة الرشيد، وكان عميد هذه الأسرة السيد عمر بن أحمد باصرة الخمعي السيباني، وقد كان محبوبًا من الأهالي لحسن معاملته وحبه للخير. ولد في الرشيد سنة ١٢٧٧هـ، ولما مات أبوه بعد ولادته بسنتين كفله عمه سعيد بن سعيد باصرة، وبعد أن درس القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الدينية أرسله إلى مصر تحت رعاية السيد محمد عبد الله بازرعة، وهناك مكث سبع سنين أخذ في خلالها قسطه من العلم وعاد إلى حضرموت إجابة لطلب عمه سعيد الذي ألح في طلب عودته إليه، ومات عمه سنة ١٣٠٩هـ بعد أن سلمه الحكم ودرّبه على تصريف شؤون الأهلين، ولقد عرف بين قومه بالعدل والسماحة وحب الخير.

دَوْعَن تطلب حماية القعيطي

وعندما تمادى معظم ولاة دَوْعَن في غيهم واستبدوا في أموال الأهالي وأرغموهم على تنفيذ أوامرهم القاسية وتحقيق رغباتهم، عندما أذاقوهم ضروبًا من الظلم وألوانًا من العذاب، نهض كثير من الدوعنيين في حضرموت وعدن وأرسلوا إلى السلطان عوض بن عمر القعيطي اليافعي يستنجدون به ويستغيثون ويرجونه احتلال بلادهم لإقامة العدل ونشر السلام.

ولما بلغ ذلك إلى السيد العمودي حاكم الخُرَيْبَة خاف على مركزه من الانهيار والاندثار، وهو يعلم كل العلم أن القعيطي إذا جاء بجيشه يحتل البلاد لا شك في ذلك؛ فالأهالي يكرهون حكامهم كل الكره، وهؤلاء الحكام ليسوا على وفاق ووئام كل منهم يريد أن يأكل لحم أخيه ميتًا. أراد العمودي أن يحافظ على مركزه ويوطد دعائم سلطته، لذلك لجأ إلى القعيطي وطلب إليه أن يمده بجيش لإزالة الظلم وإقامة العدل ونشر الأمن، حتى إذا فاز فوزًا كبيرًا سلم إليه البلاد، ولكن كان نصيبه الفشل إذ لم يجبه القعيطي إلى طلبه؛ واستطاع السيد عمر بن أحمد باصرة بلباقته ودهائه وحسن أخلاقه أن يستميل إليه السلطان القعيطي، وعاهده أنه إنما يقدم نفسه وقومه كجنود لاحتلال دَوْعَن وإقامة العدالة فيها. واتفق الطرفان على تخليص دَوْعَن من الظلم والجور وكتبت بينهما معاهدة، وأمده القعيطي ببعض الأسلحة وعدد من رجال المدفعية سنة ١٣١٧هـ، وقيل سنة ١٣١٦هـ.

زحف يافع على دَوْعَن

بعد أن احتل باصرة بعض القرى طلب المدد من السلطان عوض فأمده بمائتي مقاتل من يافع وعلى رأسهم عبد الخالق الماس وكتب إلى الأمير

صلاح بن محمد القعيطي ليرسل إلى دَوْعَن جيشًا فبعث مائتي مقاتل من يافع وعليهم سالم بن علي الدُّهري اليافعي. والتقى جيش المُكَلَّا بجيش شِبَام في أعلى وادي دَوْعَن، وعلم بهم العمودي فاستنجد بقبائله وجاءه ألف مقاتل من الدَّيِّن، وخمسمائة مقاتل من القِثم. ولم يهرع هؤلاء القوم لنجدة العمودي فحسب بل كان الدافع الأكبر لهم حب النهب والسلب كما هي عادتهم حينما تثور الحرب بين ولاة دَوْعَن؛ حيث ينتشرون في القرى ويهجمون على المتاجر والمنازل.

هجم يافع فقامت الحرب واحتلوا بعض الحصون وأحاط بهم قوم العمودي وحاصروهم ٢٩ يومًا، وكاد يافع يموتون جوعًا وعطشًا، وكادت قبائل العمودي يقضون عليهم ويبيدونهم عن بكرة أبيهم لولا أن الأمير صلاح بن محمد القعيطي أمدهم بمائتي مقاتل من يافع وآل محفوظ، فأعاد إليهم نشاطهم وبعث فيهم الثبات والإقدام.

واستنجد العمودي بقبائل رَخْيَة وعَمْد فأتوه مهطعين، وخاف القعيطي من هزيمة جيشه لقلة عدده، فأرسل خمسمائة مقاتل من البنادر فقابلهم ١٢٠٠ مقاتل من أتباع العمودي بالقرب من الخُرَيْبَة، ولكنهم لم يصمدوا كثيرًا أمام ضغط يافع فانسحبوا من غير انتظام، وعلم العمودي بهزيمة قومه وأراد أن يقاوم هو وبعض أتباعه ولكنهم فروا ليلًا إلى الجبال، وبلغ عدد القتلى منهم ٧٤ ومن يافع ٢٢، أما الجرحى من الفريقين فهم كثيرون.

وبعد أن هدأت الأحوال واستتب الأمن أرسل والي دُوْفَة السيد عبد الله أحمد بحمد العمودي والسيد عبد الله بن صالح بن مطهر العمودي حاكم بُضَة وزعيم آل العمودي الأكبر وخليفة الشيخ سعيد العمودي إلى السلطان

عوض بن عمر القعيطي يطلبون وده، وكان بينهم وبين العمودي حاكم الخُرَيْبَة نزاع وخلاف ولذلك لم ينجدوه في حربه ضد القعيطي وظلوا على الحياد ومنعوا قبائلهم من الانضمام إليه ضد يافع. وأرسل بَلْحَمَر حاكم حُوْنَة ومبارك بن سعيد الخمبشي وسعيد بن عبد الله الخمبشي إلى القعيطي يطلبون وده أيضًا، هكذا أصبحت دَوْعَن موالية للقعيطي.

وقد تولى الحكم سالم بن علي الدُّهري اليافعي ونائبه عمر بن أحمد باصرة ولكنه استقال بعد عامين، وقام بالأمر بعده عبد الخالق الماس ولكن لم تطل مدته أكثر من سنة فقد انتحر. وقد اختلفت الروايات في سبب انتحاره، فقيل إنه أخفى مبلغًا كبيرًا من مال الحكومة عند بعض التجار، ولما اكتشف السلطان أمره وبَّخه توبيخًا شديدًا فدفعه الحياء والخجل من سيده إلى الانتحار، وقيل إنه اغتيل، والله أعلم.

وقام بالأمر بعده عمر بن أحمد باصرة بالنيابة عن السلطان عوض بن عمر القعيطي، وقد أدار دفة الحكم بكياسة وسياسة وحالف قبائل دَوْعَن وعَمْد ورَخْيَة ودُهُر إلى حدود يَبْعث، وكان محبوبًا عند الناس كل الحب لتفانيه في إصلاح ذات البين وعطفه على الفقراء والبائسين، وقد أنشأ مسجدًا في الخُرَيْبة على مقربة من السوق العامة، وحفر بئرًا في الرشيد ليشرب منها السكان.

وفاة السلطان صلاح بن محمد القعيطي

بعد أن انتهت حرب وادي الأيمن بدَوْعَن واستتب الأمن عاد السلطان صلاح بن محمد القعيطي إلى عمله بالقَطْن، ولم تطل أيامه فقد وافته المنية في يوم ١٠ ذي الحجة سنة ١٣١٨هـ، ولقد عرف بالشجاعة والكرم والعلم والأدب، وكان ميالًا للتاريخ مغرمًا بقراءة سير العظماء، ودفن بجوار قبر السيد عمر بن محمد الهدار على مقربة من الرَّيِّضَة.

احتلال حَجْر

في سنة ١٣١٧هـ جهز السلطان عوض بن عمر القعيطي ٦٠٠ مقاتل من يافع وآل تميم، وفي مقدمتهم محمد بن عبد القوي غرامة، ومحسن مخارش، وأحمد حبيب الحداد، وصالح بوبك الحضرمي، وعوض عبد الله اليزيدي، ومنصر بن علي جابر، وجابر بن علي جابر؛ لاحتلال بلاد حَجْر، وهي من أخصب المناطق بحضرموت وأغزرها ماء، ومعظم سكانها من قبائل نوَّح الشديدي الشكيمة، وكانت السلطة موزعة في أيدي الأعيان وهم يشبهون إلى حد كبير أمراء الإقطاع في القرون الوسطى. وكان الأمن فيها مفقودًا؛ يعتدي الأقوياء على الضعفاء فيسلبونهم حقوقهم.

وعلمت قبائل حَجْر بزحف يافع على بلادهم فكمنوا في عقبة حَجْر، ولما جاء يافع أطبقوا عليهم وأصلوهم نارًا حامية، فبهت يافع ودافعوا بكل قوة ولكن من غير جدوى، وانسحبوا تاركين ٦٣ قتيلًا.

ولم تضعف هذه الهزيمة نشاط القعيطي ولم يدب اليأس في قومه يافع، فقد أرسل السلطان سنة ١٣١٨هـ ٢٠٠ مقاتل من يافع وبمعيتهم وزيره السيد حسين بن حامد المحضار وزوّده بالمال لشراء أراض بوادي حَجْر تمهيدًا لاحتلالها، واستطاع السيد حسين بدهائه أن يعقد حلفًا بين الحكومة القعيطية وبين قبائل حَجْر ومَيْفَع، وأخيرًا خضع الحجريون للحكم القعيطي.

احتلال وادي الأيسر

تركزت سلطة آل العمودي في وادي الأيسر بعد أن انهارت في وادي الأيمن، واستمر اليافعيون يحملون لهم ما هم جديرون به من الاحترام والتبجيل، غير أن بعض القبائل أخذت تتحرش بيافع، فقد اغتال جماعة من آل بلحمر

الحريبي وابن شيهون بدون سبب، وعندما قتل يافعي اثنين منهم أخذًا بالثأر زاد التوتر وكادت الحرب تعود جذعة لولا تدخل الشيخ العمودي في الصلح. بيد أن آل بلحمر كتموا غيظهم ثم أخذوا يتربصون الدوائر بيافع، ففي سنة ١٢٢٧هـ سرى ستة من يافع وعلى رأسهم ابن حطبين فتعرض لهم جماعة من آل بلحمر وأطلقوا عليهم الرصاص من كمين وقتلوهم جميعًا، لذلك لم ير السيد باصرة بدًا من إعلان الحرب على وادي الأيسر.

وكان اشتداد النزاع بين آل باهبري وبين الخنابشة من الأسباب الدافعة للحرب، فقد استنجد آل باشجيرة بالخنابشة سكان الجَحِي، كما استنجد آل باهبري بالحالكة سكان وادي الأيسر، ولقد أمد المقدم باصرة الخنابشة بالسلاح والمال وبمقاتلين من يافع، وأرسل للسلطان غالب بن عوض القعيطي لإقامة العدل ونشر الأمن، فأرسل إليه ذخائر وأسلحة، وهبت قبائل الحالكة تحارب يافع بكل ما لديها من قوة. وظل آل محمد بن سعيد العمودي على الحياد؛ إذ كان من مصلحتهم انهيار نفوذ آل بلحمر وتحطيم سلطتهم في وادي الأيسر، واستمرت الحرب نحو سنة انتهت باندحار قبائل الحالكة وتشتيت شملهم. أما بلحمر فقد غادر العرسمة وهام في الأودية والجبال لا يلوي على شيء، حتى إذا بلغ ريدة الجوهيين أقام بين قبيلته سَيْبَان.

وبعد بضع سنين سار بلحمر وآل نعشان ورؤساء الحالكة والشيخ أحمد الحسيني العمودي إلى المُكَلَّا وحالفوا القعيطي ونادوا بذلك في الأسواق.

وفاة السلطان عوض بن عمر القعيطي

توفي السلطان عوض في حيدر أباد سنة ١٣٢٧هـ، فذهل الناس لوفاته كل الذهول وبكوه بكاء مرًا، وكادوا يصعقون، التف حول نعشه جميع الطوائف تقديرًا لتلك النفس التي ذهبت إلى جوار ربها راضية مرضية.

كان قويًا شديد القوة، لا يعرف الضعف ولا الفتور، ولا يحب التردد، ذكيًا نافذ الذكاء؛ ولكنه كان هادئًا في الوقت نفسه، حليمًا شديد الحلم لا يعرف الطيش ولا التعجل ولا الاندفاع. وكان من أبعد الرجال نظرًا وتقديرًا للأمور ووزنًا للحقائق، فكانت بصيرته النفاذة تستطيع أن تكشف خبايا المستقبل من وراء حجب الزمان، وقد علمته تجاربه أن يطرح اليأس جانبًا، فلم تكن كلمة «مستحيل» تحتل مكانًا في قاموس حياته الحافلة بالجهاد والإقدام، لذلك لم يكن من المستحيل على هذا الرجل أن تتطور سياسته ويتسع نطاق نفوذه حتى أصبح ملك حضرموت.

لقد ساس الناس بحزم وعزم وسياسة وكياسة. كان صالحًا ورعًا يؤدي الفروض في أوقاتها، لم تغره الدنيا ولم يعبد المادة كما عبدها كثير من الملوك، ولم يندفع وراء اللذائذ البشرية كما اندفع أولئك وراءها، بل كان كثير الانشغال بشؤون الدولة وأحوال الشعب. قام بالأمر بعده ابنه السلطان غالب بن عوض القعيطي اليافعي.

سَاهْ

تقوم مدينة سَاهْ على هضبة مرتفعة في وادي عِدِم، وأشهر غلاتها البلح ومعظم سكانها من آل جابر، وكانت مسرحًا للظلم والجور، فقد كان الأقوياء يعتدون على الضعفاء ويذيقونهم ألوانًا من العذاب، وكان الأشرار يحرقون النخل ويقطعون الطريق، ولما فقد الأمن وانتشرت الفوضى أرسل بعض الأعيان وفدًا إلى المُكَلَّا سنة ١٣٣٢هـ، وطلبوا إلى السلطان غالب بن عوض القعيطي أن يبسط حمايته على سَاهْ ويزيل معالم الظلم ويقطع دابر المفسدين، فأجابهم السلطان إلى طلبهم، وأرسل سالم أحمد البكري اليافعي وبمعيته ٢٥ رجلًا

من يافع على أن يقوم بتكاليفهم آل جابر مدة إقامتهم هناك، واستطاع سالم أحمد البكري أن يقوم بالأمر خير قيام ويعيد إلى الضعفاء حقوقهم المهضومة وأموالهم المنهوبة.

معاهدة عدن

عندما رغب السلطان غالب بن عوض القعيطي في إنشاء مكتب لجوازات السفر، وجد أنه لا بد لتحقيق ذلك من اعتراف الدولة الكثيرية بالسيادة العامة للدولة القعيطية على حضرموت، فأرسل وزيره السيد حسين حامد المحضار إلى آل كثير، واستطاع الوزير بسياسته ودهائه وكياسته ومرونته أن يؤثر في الدولة الكثيرية، فقد اعترفت بالسيادة للقعيطي حبًا في التعاون والتساند والترابط والاتحاد، بيد أن معظم فخائذ آل كثير أعلنوا في شيء كثير من الصراحة عدم موافقتهم على ذلك فسار إليهم الوزير ولكن من غير جدوى.

وازداد الخلاف فأخذ آل كثير يتكتلون ويتجمعون لمحاربة القعيطي، فأرسل السلطان غالب بن عوض جيشًا من يافع والمماليك إلى شِبَام، وأمره ببناء قلاع في الدَّحْقَة على مقربة من آل سند، وثارت الحرب بين الفريقين وحاصرهم القعيطي من الثغور، فلم يستطع آل كثير السفر إلى الخارج أو يأتي المهاجرون منهم إلى حضرموت، ومنع أيضًا صادراتهم ووارداتهم دون أن يضع يده عليها فأصبح موقفهم حرجًا. وبعد سنة تدخل والي عدن في الأمر وطلب إلى الفريقين إيقاف الحرب، وأرسل إلى بعض كبار آل كثير في جاوة وسنغفورة فجاءه السادة سالم بن جعفر وسالم بن محمد بن طالب وصالح عبيد بن عبدات، كما أرسل إلى السلطان علي بن منصور الكثيري. وسافر السلطان علي إلى المُكَلَّا في طريقه إلى عدن فقوبل من لدن الدولة القعيطية

بكل ما يستحقه من الإجلال والتقدير، وأطلقت المدافع ترحيبًا به وإكرامًا لقدومه، وسافر عظمته وعظمة السلطان غالب بن عوض القعيطي اليافعي وبصحبتهم السيد حسين حامد المحضار وبعض كبار يافع في باخرة إنجليزية إلى عدن، واجتمع الفريقان تحت إشراف والي عدن، وكتبت معاهدة بعد موافقة الجميع على كل ما جاء فيها من شروط وتعهدات.

آل كثير يرفضون المعاهدة

لا شك أن الذي يلقي نظرة في شروط المعاهدة يجدها ترمي إلى غرض هام هو تقوية الروابط بين الحكومتين اليافعية والكثيرية وتوثيق الصلات بينهما، وليس من شك أن ذلك ضروري لأمة تريد أن تعيش وتتخذ لها مكانًا تحت الشمس.

ولم يكن من المتوقع أن يرفض آل كثير المعاهدة بعد موافقة سلطانهم وأعيانهم، ولكن يظهر أنهم شعروا أن المعاهدة تجعل دولتهم تابعة للدولة القعيطية لذلك رفضوها في شيء كثير من الصراحة حينما عاد إليهم وفدهم وأعلنوا عدم الانقياد لكل ما جاء فيها من شروط. ولما بلغ ذلك إلى الحكومة القعيطية أرسلت وزيرها وبصحبته خمسون يافعيًا واجتمع الفريقان في حوطة أحمد بن زين، ولما اشتد الخلاف رابط بضع مئات من آل كثير خارج حوطة أحمد بن زين للفتك بالوزير حسين حامد ومن بصحبته من يافع، ولكن الوزير تظاهر بالرغبة في المبيت في تلك الليلة، وأرسل إلى شِبَام يطلب أرزًا وسمنًا وغنمًا وطباخين، ولما علم المتآمرون بذلك انسحبوا وعادوا إلى منازلهم على أن يعودوا في اليوم التالي، ولكن الوزير حسين غادر بيافع ليلًا وعاد إلى شِبَام تاركًا الطعام واللحوم والطباخين لسكان حوطة بني أحمد بن زين، وهكذا

استطاع الوزير الداهية أن ينجو بنفسه وبرجاله من براثن الموت.

وأخيرًا أرسل والي عدن واحدًا من الإنجليز إلى آل كثير ومر على شِبَام واصطحب معه الوزير حسين حامد وأربعمائة مقاتل من يافع، واجتمع بأعيان آل كثير فوافقوا على كل ما جاء في المعاهدة.

وفي شوال من السنة المذكورة كتبت معاهدة صداقة وولاء بين الفريقين، فوقع عليها الأميران المنصور ومحسن ابنا السلطان غالب بن محسن الكثيري عن قبائل آل كثير والسيد حسين المحضار عن يافع، والمعاهدة تنم عن صفاء ضمائر يافع وآل كثير ورغبتهم في التعاون والتكاتف لإصلاح البلاد ونشر الأمن في ربوع حضرموت، وقد وقع عليها عشرات من رؤساء الفخائذ الكثيرية.

معاهدة بين القعيطي وآل تميم

أراد السلطان غالب بن عوض القعيطي أن يوطد العلاقات ويقوي الصلات بينه وبين آل تميم ويتعاون ويتكاتف معهم في الإصلاح ونشر الأمن في المنطقة السفلى من وادي حضرموت، فاتفق معهم على ذلك. وكتبت معاهدة في ثلاثين من ذي القعدة سنة ١٣٣٦هـ وقع عليها السيد حسين بن حامد عن الدولة القعيطية، والمقدم علي بن أحمد بن يماني، وعشرات من رؤساء الفخائذ التميمية عن قبائل آل تميم.

وفاة السلطان غالب بن عوض القعيطي

في سنة ١٣٣٧هـ توفي السلطان غالب بن عمر القعيطي بحيدر أباد فحزنت الأمة عليه حزنًا عميقًا، والتف حول نعشه جميع الطوائف تقديرًا لتلك النفس التي ذهبت إلى جوار ربها راضية مرضية. كان صافي السريرة محبًا للخير، كان

حليمًا رحيمًا متواضعًا كل التواضع، وكان جل تفكيره منصبًا حول تقوية مركز حكومته وتوسيع نطاق نفوذها وتقوية الصلات والعلاقات بينه وبين القبائل. ومن أعماله احتلال سَاهْ ووادي الأيسر، وقمع شوكة الحُمُوم الذين كانوا ينهبون ويسلبون ويقطعون الطريق.

تولية السلطان عمر بن عوض القعيطي

قام بالأمر بعده أخوه السلطان عمر بن عوض القعيطي فأبقى أوضاع الحكومة كما كانت في عهد الراحل الكريم، وظل السيد حسين حامد المحضار وزيرًا له والحاكم بالنيابة حينما يذهب السلطان عمر إلى حيدر أباد.

هَيْنَن

كانت هَيْنَن تابعة للحكومة القعيطية، وفي سنة ١٢٨١هـ تخلى عنها حاكمها سالم بن علي بن هرهرة اليافعي لفقرها وعجزها عن القيام بسد تكاليف حاكمها، فاضطربت شؤونها وتعدى الأقوياء على الضعفاء وانتشر الرعب في الناس. وفي سنة ١٣٤١هـ سار وفد من أعيانها إلى الأمير علي بن صلاح القعيطي حاكم شِبَام سابقًا، وطلبوا إليه بسط حمايته على هَيْنَن فأرسل الأمير محمد صالح لحمدي اليافعي نائبًا عنه يدير شؤون الأهلين ويصلح أحوالهم.

وفاة السلطان عمر

توفي السلطان عمر بن عوض القعيطي في حيدر أباد في ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ على أثر اشتداد مرض السرطان والناصور وتورم الرئتين، واحتفل بدفنه في مقبرة آل القعيطي بحيدر أباد بجوار والده وجده احتفالًا كبيرًا مشى فيه أمراء وكبراء ووجهاء حيدر أباد. ولقد توفي عن ٦٧ عامًا تاركًا خمسة

أولاد ذكورًا، وكان قد انتظم في سلك الجيش غير النظامي في حيدر أباد، وعين حكمدارًا على فرق العرب الحضارم التي تتولى حراسة خزائن الدولة وقصور سمو النظام وحرسه الخاص وقصور الكثير من الأمراء والنواب والحكام، ولما تولى سلطة حضرموت بعد وفاة أخيه السلطان غالب بقي في مركزه كما هو، وكان لا يذهب إلى حضرموت لإدارة شؤون مملكته إلا أيامًا أو شهورًا معدودات، ثم يقفل راجعًا إلى حيدر أباد تاركًا إدارة البلاد إلى وزيره وبطانته.

تولية السلطان صالح

قام بالأمر بعده ابنه السلطان صالح بن غالب القعيطي، فاستبشر به الحضارم في الوطن والمهاجر استبشارًا عظيمًا، ولا غرو فهو أسمح الملوك سيرة، وأطهرهم سريرة، وأحسنهم مظهرًا، وأطيبهم مخبرًا، وأرقهم شمائل، وألينهم حاشية، وأزكاهم خلالًا، سلطان لا يشعر إلا شعورًا كريمًا، ولا يذوق إلا أدبًا رفيعًا، ولا يسمو إلا إلى معرفة عالية ممتازة.

ولاية العهد

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٥٦هـ أصدر عظمته مرسومًا يجعل ولاية العهد لابنه الأمير المحبوب عوض، وهذا نص المرسوم:

«... من حيث إنه سيصل الزمان الذي يقدره الله تعالى فيحتاج إلى استدعاء خلف لنا يحكم عوضًا عنا على سلطنة المُكَلَّا، ومن حيث إننا قد أفرغنا الفكر في هذه المادة في الأيام الأخيرة، ومن حيث قد خول إلينا الحق في تعيين خلف لنا تبعًا لاستحسان جناب حكومة صاحب الجلالة البريطانية.

بناء على ذلك نحن صالح بن غالب سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا تبعًا للاستحسان النهائي والموافقة من جانب حكومة صاحب الجلالة البريطانية نعين في هذا الصك نجلنا العزيز المحبوب عوض بن صالح بن غالب بن عوض القعيطي خلفًا لنا على عرش المُكَلَّا، وها نحن نأمر جميع رعايانا بأن يلتفتوا ويراعوا إشهارنا هذا بكل ضبط ويرقبوا أنفسهم على موجبه.

تحرر في المُكَلَّا وأمضيناه بيدنا في اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٥٦هـ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٧م».

الإمضاء

التطور السياسي في حضرموت

لقد ظلت معظم حضرموت حتى قبيل الحرب العالمية الثانية في ظلام القرون الوسطى تحت حكم الرؤساء الإقطاعيين، والساحات الواسعة القاحلة من الجبال وسطوحها وسفوحها، وقد ولدت في البدو الشعور العميق بالحرية المطلقة، وفي بطون الوديان تحيط بالأفق جدران من الصخور ترتفع إلى أكثر من ألف قدم وهذا ولد في الشعب حب العزلة.

كانت هناك مئات من الإقطاعيات المستقلة، وكان معظمها بالغًا من الصغر حدًا بعيدًا حتى لم يتجاوز عدد سكان بعضها عددًا ضئيلًا من الناس، ولقد أدى تفرق القوم في مقاطعات أو في مدائن إلى تنافرهم وتناكرهم، فتولد بينهم شعور المنافسة وتمكنت في نفوسهم العصبية للمقاطعة.

ولقد عرف الحضارم في مهاجرهم الحكم الأوربي وعاشوا في ظله مئات السنين، ولكنه لم يجتذبهم، ولعل انهماكهم على العمل لطلب المال أخذ منهم معظم تفكيرهم ونشاطهم.

وفي سنة ١٩٣٩هـ سافر المستر إنجرامس مستشار الحكومة القعيطية الأسبق إلى إندونيسيا مهجر الحضارم الأعظم ليقف على حالتهم هناك وعلى مدى استعدادهم للمساهمة في إصلاح حضرموت.

وعندما كان في مدينة صولو بجاوا الوسطى تقدم إليه أحد أمراء آل كثير وطلب إليه أن يساعده على استقلال جاهز. وجاهز قرية في وادي عَمْد لا يزيد عدد منازلها على خمسة، كما تقدم إليه بعض القبائل والمناصب ورجوه الاستقلال في إقطاعاتهم.

وكان كل فخذ من فخائذ القبائل المسلحة يعتبر نفسه مستقلًا في مدينته أو قريته، وكان أرباب المال منهم يشترون العبيد والأسلحة ويوسعون حدودهم على حساب الضعفاء من جيرانهم.

حرب ابن عبدات

وأوضح صورة لهذا النوع من الحملات حملة ابن عبدات، ففي عام ١٩٢٨م قام زعيمهم الثري صالح عبيد بن عبدات الكثيري واحتل مدينة الغُرْفَة بالقوة[١] وكانت لآل باعباد وقام بالأمر فيها، واصطدم بالسلطان الكثيري وبقبائل آل كثير المجاورة للغُرْفَة، وثارت الحرب بينه وبين هؤلاء، وساعدت الحكومة القعيطية الحكومة الكثيرية بقوات مسلحة وبذخائر ومؤن، وانتهت الحرب على لا شيء.

وفي سنة ١٩٣٧م أنشأ ابن عبدات حصونًا محكمة وحفر خنادق طويلة وابتاع ذخائر وبنادق بأثمان باهظة، وأحضر كثيرًا من قبائل الحُمُوم وأمدهم

(١) راجع كتابنا «تاريخ حضرموت السياسي» الجزء الثاني صفحة ٤٩ للمؤلف.

بالسلاح والذخائر والمؤن، وأخذ هؤلاء يقطعون الطرق ويلقون الرعب في قلوب المسافرين، وأصبح ابن عبدات يهدد سلامة الحكومة الكثيرية.

ولم يكن في مقدور السلطان الكثيري ردع خطر ابن عبدات عنه، وليس في استطاعته قمع شوكته وإخضاعه.

وفي عهد المستشار الإنجليزي السابق للحكومة القعيطية المستر ونست فلندي جردت حملة مكونة من جيش عدن الذي يتألف من يافع وعوالق وعواذل ومن جيش الهند التابع لولاية حيدر أباد مجهزة بأحدث الآلات الميكانيكية من دبابات ومصفحات وسيارات نقل ومدافع من العيار الثقيل ومدافع رشاشة؛ وصلت هذه الحملة إلى المُكَلَّا في فبراير سنة ١٩٤٥م بقيادة أحد كبار الضباط الإنجليز، وبعد أن مكثت الحملة في المُكَلَّا بضعة أيام انتقلت إلى مطار الريان. وفي مارس من السنة نفسها انتقلت إلى حضرموت (الداخل)، وساهمت الحكومة القعيطية في ذلك بأكبر قسط فأرسلت قوة من الجيش النظامي بمدفعيته ورشاشاته تحت قيادة اللفتنت كولونيل لاظ خان رئيس أركان حرب جيش الحكومة القعيطية وقوة من الجيش غير النظامي بقيادة محمد محسن السعدي اليافعي. قامت القوة غير النظامية في فبراير سنة ١٩٤٥م إلى شِبَام من الطريق الغربي، ولحق بها بعض القوات النظامية والبعض الآخر سار من الطريق الشرقي إلى سَيْئون.



المرحوم السلطان عوض بن عمر القعيطي اليافعي منشئ الدولة القعيطية بحضرموت



المرحوم السلطان عمر بن عوض القعيطي اليافعي



المرحوم السلطان غالب بن عوض القعيطي اليافعي



نهر حَجْر عند مصبه

أعمال القوات القعيطية

قامت القوة غير النظامية التي يقودها محمد محسن السعدي بمهمة الدورية بين شِبَام وقارة آل عبد العزيز لمنع بعض البادية كالصَّيْعَر وآل كدة وغيرهم من التسرب إلى مدينة الغُرْفَة، وقامت بعض القوات النظامية بمهمة الدورية بين وادي بن علي وحوطة أحمد بن زين لمنع تسرب الحُمُوم وغيرهم إلى الغُرْفَة.

وكان لدى كل من القوات النظامية وغير النظامية إرشادات من مساعد المستشار الحربي الميجر أحمد بن عبد القادر العيدروس.

حصار الغُرْفَة

ولما وصلت القوة الميكانيكية دقت إسفينها شرقي الغُرْفَة، وكانت القوة غير النظامية تحاصر الغُرْفَة من الجهة الغربية الشمالية، وتحاصرها القوة النظامية من الجهة الجنوبية الغربية ومن الشرق أيضًا. وهنا بدأت الحرب حيث أخذت المدفعية التابعة للحكومة القعيطية تطلق قنابلها على الحصون، وعلى أثر ذلك صدر الأمر بالهجوم؛ فكان أول حصن سقط في أيدي القوة غير النظامية بفضل بسالة وبطولة قائدها المقدم محمد محسن السعدي اليافعي، وبعد الاستيلاء على معظم الحصون سلمت مدينة الغُرْفَة يوم ٧ مارس سنة ١٩٤٥م ودخلت القوات المشتركة المدينة، وسلم صالح عبيد بن عبدات نفسه إلى المستشار بسَيْئون حيث أقلته طائرة إلى عدن.

لا شك أن حركة ابن عبدات الأولى من نوعها في تاريخ حضرموت فقد جلب الإنجليز -بطلب حكومتي حضرموت- للقضاء عليها طائرات ودبابات ومصفحات وقوات نظامية وغير نظامية، ولا شك أن النصر معقود للقوة ولو

كانت هذه القوة بأيدي ظالمين، وليس في مقدور ابن عبدات أن يقاوم قوات ميكانيكية حديثة من السماء ومن الأرض، وكيف يستطيع المقاومة وكل ما عنده من السلاح بندقيات يحملها جماعات من المماليك والحُمُوم وغيرهم من القبائل؟ ولم يكن ابن عبدات يتوقع أن تقوم هذه القيامة عليه، لم يكن يتصور أن ترمى عليه القنابل من السماء وتطلق عليه القذائف من مدافع حديثة ذات عيار كبير.

ولو كان يعلم ذلك من قبل لما أقدم على بذل الأموال الطائلة لبناء القلاع والحصون وحفر الخنادق وتسليح عدد كبير من القبائل، ولكن كان يظن أن الإنجليز سوف لا يتدخلون في أمر لا يعنيهم ولا يمسهم منه ضرر ولا يلحق منهم أذى.

لقد قضى ابن عبدات على الظلم الذي كان سائدًا في مدينة الغُرْفَة، وأزال طغيان الأقوياء على الضعفاء، وأقام العدل ونشر الأمن وجعل الناس على اختلاف طبقاتهم سواسية في الحقوق والواجبات.

والغرفيون وغيرهم يعرفون ذلك كل المعرفة، ولكن الحكومة الكثيرية كانت تخشى من أن تمتد مطامح ابن عبدات إلى سَيْئون وتَرِيْم وغيرهما من بلدان آل كثير فيكوِّن حكومة جديدة ذات أهداف جديدة وأوضاع خاصة من النظم.

غَيْل بن يُمَيْن

وتجمع كثير من قبائل الحُمُوم في غَيْل بن يُمَيْن واعتصموا بها وتمردوا ضد كل سلطة تتصدى لإخراجهم أو إخضاعهم، وكانت دار زعيمهم المقدم علي

حبريش مركز تكتلهم، فحصَّنوها بكل ما لديهم من سلاح حتى أصبحت أشبه بقلعة قوية، فسار إليهم المستر إنجرامس بقوة من جيش الحكومة القعيطية يوم ١٥/ ١١/ ١٩٣٩م وقضوا على المتمردين واستولوا على غَيْل بن يُمَيْن بعد معركة عنيفة أبلى فيها كثير من رجال القوة القعيطية بلاء حسنًا ومنهم محمد محسن السعدي[1].

هذه صور من التنافس على الرئاسة وحب الاستقلال، فكل فخذ من فخائذ القبيلة المسلحة يعتبر نفسه مستقلًا ولا يريد الخضوع للسلطة العليا والمناصب، ويشبهون مشايخ الطرق الصوفية في البلدان الإسلامية يريدون بسط نفوذهم الروحي على مناطق معينة من الأرض وعلى مجموعة خاصة من السكان.

ولكن التطور الذي حل بحضرموت بعد القضاء على سلطة أولئك الرؤساء نقل تلك البلاد من مستوى العصور الوسطى وظلامها إلى مرتبة الحكومات، فلقد ضمت معظم الإقطاعيات إلى الحكومة القعيطية، وضم البعض الآخر إلى الحكومة الكثيرية.

---

(١) لقد أظهر هذا الشاب الباسل المقدام محمد محسن السعدي بطولة منقطعة النظير في جميع المعارك التي خاض غمارها، ومن أخطر تلك المعارك موقعة (حرو)، فقد كان عائدًا من غَيْل بن يُمَيْن وبصحبته بعض الجنود. فتعرض لهم الحُمُوم في حرو وأصلوهم نارًا حامية، واستطاع السعدي اليافعي بشجاعته وبراعته الحربية أن ينظم جنوده القليلي العدد في لمح البصر، واتخذ من السيارات مراصد للمقاومة، وبالرغم من أن رصاصة اخترقت صدره وخرجت من ظهره فقد ثبت يقاوم بكل نشاط وبسالة لبضع ساعات، حتى وصلت النجدة وأسفرت المعركة عن ١٤ قتيلًا و٢٢ جريحًا من الحُمُوم وقتيلين وأربعة جرحى من القعيطيين.

ومما تجدر الإشارة إليه قيام المستر إنجرامس بالصلح بين القبائل وفروعها، فقد استطاع بقوة شخصيته الوصول إلى عقد صلح عام بين القبائل وفروعها لمدة ثلاث سنين وقع عليها ما يقرب من ١٤٠٠٠ موقِّع، وهذا مما يعطينا فكرة عن الحكومة المجزأة في ذلك القطر الذي لا يزيد عدد سكانه على مليون نسمة، وفي نفس السنة بدأ إنجرامس في إعادة تنظيم القوات المنظمة، وفي سنة ١٩٤٠م انتهت الهدنة فأعلن استمرارها لعشر سنوات، وتمسك القسم الأعظم بها بإخلاص، غير أنه حدثت اضطرابات وقت أن كانت القوات المحلية لم تكن كافية في العَدد والعُدد وفي المهارة لحفظ الأمن.

وبالتدريج قلَّت الاضطرابات حتى أصبحت قليلة جدًّا سنة ١٩٤٤م، وفي هذه السنة بلغ ما صرفته الحكومة القعيطية للقوات البوليسية المسلحة والتي حفظت الأمن أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ ربية.

والآن أصبح البدوي يثق كل الثقة بالحكومة القعيطية، وأصبح الأمن يسود الجبال والوديان والخلجان والصحاري والقفار.

الحكومة الكثيرية

وتشمل سَيْئون وهي العاصمة، وتَرِيْم، وحوطة أحمد بن زين، والغُرْفَة، وغَيْل بن يُمَيْن، وتارْبِة، والغُرَف، وحوطة السلطانة، وبُور، ومَدُودِة، وتَرِيْس، وغيل عمر، ووادي بن علي، وبِحَيْرِة، وقارة آل عبد العزيز، وكل هذه المناطق أو كل هذه المدن والقرى تقع في داخل حضرموت.

وتنقسم الحكومة الكثيرية إداريًا إلى:

١- لواء سَيْئون، ويشمل مَرْيَمَة، وحوطة السلطانة، وبَوْر ومَدُودِة، وتَرِيْس، والغُرْفَة، وغَيْل بن يُمَيْن.

٢- لواء تَرِيْم، ويشمل غيل عمر، وتَارِبَة، والغُرَف.

٣- لواء حوطة أحمد بن زين، ويشمل وادي بن علي، وبِحَيْرِة، وقارة آل عبد العزيز.

والسلطان جعفر بن منصور الكثيري السلطان الحالي من أكثر السلاطين صلاحًا وتقوى، ولقد تشرفت بمقابلة عظمته حين كان في المُكَلَّا في سبتمبر سنة ١٩٤٧م فألفيت عظمته يلتهب غيرة وحماسًا على إصلاح بلاده وترقيتها إلى المستوى اللائق بها، وجدته كبير النفس والقلب متواضع الخلق لا ينطق إلا بأعذب الحديث وأرقه وأصفاه، أبغض شيء إليه غلظ الطبع يكرهه من نفسه فينأى عنه ويكرهه من الناس فينأى عنهم، وأحب شيء إليه لين الجانب يحبه لنفسه فيمعن فيه، ويحبه للناس فيعينهم عليه ويغريهم به.

ويتكون مجلس الدولة من ثلاثة أعضاء غير رسميين ومن ثلاثة أعضاء رسميين، وهم السلطان، وولي عهده، والمستشار الإنجليزي، وينوب عنه سكرتيره المقيم في سَيْئون، وإيرادات الحكومة الكثيرية ضئيلة جدًّا فهي لا تتجاوز ١٥٠٠٠٠ ربية في السنة.

الحكومة القعيطية

وتشمل جميع الثغور والشواطئ وحَجْر، ووادي عَمْد، ووادي العَيْن، ونهد، وحَوْرَة، وبلدان القَطْن، وشِبَام، وعَيْنات، ودَمُّوْن.

وتنقسم المملكة القعيطية إداريًا كما ورد في دستورها المطبوع يوم ٢٩ صفر سنة ١٣٥٩هـ الموافق ٨ إبريل ١٩٤٠م إلى خمسة ألوية:

١- لواء المُكَلَّا

وهي العاصمة وأكبر ميناء لحضرموت، ويمتد لواء المُكَلَّا على الساحل من المعينة، ويشمل ميناء شُحَيْر إلى حدود حَجْر، وتنضم المقاطعات الآتية تحت لواء المُكَلَّا:

(أ) بُرُوْم. (ب) فُوَّة. (جـ) غيل باوزير.
(د) الحَرْشِيَّات. (هـ) رُوْكُب. (و) شُحَيْر.

ومن القبائل التي تسكن في منطقة لواء المُكَلَّا: بنو حسن، والعكابرة، والمحمديين، والبهيش، والحَيق، والعوابثة، وجميع الفخائذ المتفرعة من تلك القبائل.

٢- لواء الشِّحْر

وهو ميناء حضرموت وأقدم ميناء في جنوب الجزيرة العربية، ويمتد لواء الشِّحْر على طول الساحل من نهاية حدود جبل دَمْخ حساي شرقًا، إلى وادي المعينة غربًا، ويضم المقاطعات الآتية:

(أ) المِعْيَان. (ب) الدِّيْس. (جـ) الحَامِي.
(د) قُصَيْعَر. (هـ) رَيْدَة آل عبد الودود. (و) تَبَالة.

ويحتضن لواء الشِّحْر قبائل الثِّعْيَن، والحُمُوم، والقرزي، والشعاملة، والمسيليين، والعصارنة (باحباب)، والصَّدف، والمعَارَّة، والجوهيين، وجميع الفخائذ المتفرعة من تلك القبائل.

٣- لواء حَجْر

أغنى منطقة جيولوجية في حضرموت وأغزرها ماء، ويشمل وادي حَجْر بمدنه وقراه من مَيْفَع إلى رأس الكلب، وأهم مقاطعاته الصَّدَارَة، وكَنِيْنَة،

ومِحْمِدة، ومَيْفَع. وتسكن لواء حَجْر من القبائل: نوَّح حَجْر، وابن دَغَّار، وبلبحيث، وباقطمي، والسَّمْحِي.

٤- لواء دَوْعَن

ويشمل وادي الأيمن (ليمن) ووادي الأيسر (ليسر) إلى المَشْهَد ووادي عَمْد ووادي العَيْن وجميع مدن وقرى تلك الوديان.

ومن أهم مقاطعات هذا اللواء: لَيْسَر، والهَجْرَين، وعَمْد. وأهم القبائل التي تسكن فيه: الزي والسيباني، والعمودي، ونوَّح، والخنابشة، والحالكة، وآل محفوظ، وآل لَسْوَد الدَّيِّن، والمشاجرة، والأبارقة، والقِثِم، والحامدي، ويافع، والجعدة، وآل ماضي، وآل باتيس، وآل باصليب، والعوابثة.

٥- لواء شِبَام

ويشمل المدن والقرى الواقعة من المَشْهَد إلى شِبَام شرقًا وإلى حصن العُرْ غربًا، ويضم المقاطعات الآتية: هَيْنَن، وحَوْرَة، والرَّيِّضَة، وعَيْنات شرقي تَرِيْم. وأهم القبائل التي تسكن في هذا اللواء: الصَّيْعَر، ونهد، وكَرَب، وقبائل دَهْر، ورَخْيَة، وعِرْمِة، وآل حرير، ويافع (التُّلُد)، وآل مخاشن، وآل تميم، والمناهيل، والسماح، وآل عمران.

ويعين لكل لواء موظف برتبة (نائب)، ولكل مقاطعة موظف برتبة (قائم).

والسلطان الحالي للدولة القعيطية هو السلطان صالح بن غالب بن عوض القعيطي اليافعي، تبوأ سلطاننا المحبوب عرش أجداده سنة ١٩٣٦م، فكان من أجل رغائبه ومن أعظم ما تتجه إليه عزيمته الحرص على النهوض بشعبه الوفي إلى المنزلة العليا التي يؤهله لها ذكاؤه واستعداده، وتتفق مع عظمته التاريخية

القديمة وتسمح له بتبوؤ المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدن، إن عظمته شديد الحرص على أن يهيئ بسداد حكمته وأصالة رأيه الأسباب التي تكفل تحقيق عظمة بلاده.

مجلس الدولة

ويتكون مجلس الدولة القعيطية من ١٧ عضوًا برئاسة عظمة السلطان، وسكرتير الدولة، والمستشار الإنجليزي المقيم.

والجمارك أهم مصادر إيرادات الدولة القعيطية، فهي لا تقل سنويًا عن مليون ونصف مليون ربية.

وأهم الواردات: الحبوب، والأرز، والمنسوجات، والسكر، والشاي، والبن، والبترول، والخشب، والزيوت النباتية والحيوانية، والأغنام.

وأهم الصادرات: الطباق، والسمك المجفف، وزيت السمك، والعسل، والجير، وبعض المنسوجات. وفي سنة ١٩٣٤م كان دخل الحكومة السنوي حوالي ٦٣٠٠٠٠ ستمائة وثلاثين ألف ربية. وفي سنة ١٩٤٤- ١٩٤٥م إلى نحو ١٥٠٠٠٠٠ مليون ونصف مليون ربية. وكان المنصرف على موظفي الحكومة ومصالحها سنة ١٩٤٤- ١٩٤٥م: ١٦٠٠٠٠٠ مليون وستمائة ألف ربية. وعند مراجعة حساب الدولة في إبريل سنة ١٩٣٩م كان العجز لا يزال حوالي ٤٠٠٠٠ أربعين ألف ربية.

وفي سنة ١٩٣٤م كان الموظفون في المُكَلَّا مكونين من وزير، وأمين المالية، وقائد للقوات، وطبيب، وعدد ضئيل جدًّا من المعلمين.

ومن سنة ١٩٤٤م تضاعف عدد الموظفين، منهم تسعة عشر موظفًا غير حضارم، ووجد مجلس الدولة، وتعمل الحكومة في نحو عشرين دائرة منظمة تحت الإشراف العام لسكرتير الدولة الشيخ سيف بن علي البوعلي، وهو عربي عماني استعير من حكومة تنجانيقا.

مركز بريطانيا العظمى في حضرموت

ترجع علاقة بريطانيا بحضرموت إلى نهاية القرن التاسع عشر، فقد عقدت معاهدة سنة ١٨٨٨م بين بريطانيا والحكومة القعيطية. وأهم ما في هذه المعاهدة ألا يرتبط سلاطين حضرموت مع أية دولة أجنبية إلا بعد أخذ رأي بريطانيا وموافقتها، واستمر الوضع السياسي لحضرموت على ذلك إلى أن جاءت سنة ١٩٣٧م، فقد قام المستر إنجرامس مستشار الحكومة القعيطية الأسبق بمجهودات كبيرة لعقد معاهدة بين بريطانيا والحكومة القعيطية.

وعقدت المعاهدة ووقع عليها السلطان صالح بن غالب القعيطي بالنيابة عن حكومته السير برنارد ريلي حاكم عدن والمستر إنجرامس بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية وذلك في ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٧م، وسلمت بعد ذلك مذكرة لعظمة السلطان صالح توضح لعظمته أنه ليس في نية الإنجليز أن يقللوا من أهمية سلطة عظمته وأن أهم اختصاص المستشار الإنجليزي تقديم الإرشادات والنصائح النافعة للبلاد، وجاء في المذكرة أن المعاهدة ستطبق على النحو الذي طبقه به معاهدات ولايات الملايو في الشرق الأقصى، وجاء فيها أيضًا أن من سياسة الإنجليز أن تبقى سلطة الحاكم المحلي في كل الشؤون كاملة ما عدا الشؤون الخارجية فإن الأمر يختلف نوعًا ما.

وانتهت المذكرة بأنه في حالة استحكام الخلاف بين المستشار والسلطان، فللسلطان أن يلتجئ إلى حاكم عدن.

ولما كانت حضرموت لا تستطيع دفع مرتبات المستشار وموظفيه فقد تكفلت الحكومة البريطانية بالقيام بذلك، وهذا نص المعاهدة:

معاهدة سنة ١٩٣٧م

«بما أن حكومة جلالة الملك في المملكة المتحدة وسمو السلطان صالح بن غالب القعيطي سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا يرغبان أن يقويا العلائق الودية الكائنة بين حكومة جلالة الملك والسلاطين القعيطيين من زمن طويل، وبما أن سمو السلطان صالح بن غالب يرغب في تقدم وترقية مملكته، وبما أن حكومة جلالة الملك ترغب في تأييد وتقوية سلطة ومقام السلطان، فحكومة جلالة الملك عينت السير برنارد رايلي. ك. س. م. ج. س. أ. إ. و. ب. إ الوالي والقائد الأكبر في محمية عدن أن يعقد معاهدة لهذا الغرض.

البند الأول: تقبل حكومة جلالة الملك في المملكة المتحدة أن تعين مستشارًا مقيمًا للسلطان، والسلطان يرتضي أن يجهز بيتًا لائقًا للمستشار المقيم المذكور، ولأجل سعادة مملكته يقبل نصيحته في جميع الأمور ما عدا المسائل المتعلقة بالديانة المحمدية والعادة.

البند الثاني: تعترف حكومة جلال الملك في المملكة المتحدة بحق سلاطين الشِّحْر والمُكَلَّا في تعيين خلفائهم، وعرضه لموافقة حكومة جلالة الملك في كل مسألة؛ يعني تعيين خلف.

عدن في الثالث عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٣٧م بالنيابة عن ومِن طرف حكومة جلال الملك في المملكة المتحدة وعرضه لمصادقتها وموافقتها.

ختم القائد الأكبر

برنارد رايلي الوالي والقائد الأكبر في محمية عدن

دبليوامتس إنجرامس

بالنيابة عن نفسه وعن ورثائه وخلفائه

صالح بن غالب سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا

الشيخ علي عكظة

نظام المستشار المقيم والأساليب المتبعة

كان أمل المستر إنجرامس وهو أول مستشار إنجليزي ألا يكون هناك أكثر من ثلاثة مساعدين أوربيين؛ اثنان سياسيان وواحد حربي، ولكن عندما أصبح عبء العمل ثقيلًا في بداية الحرب العالمية الثانية أصبح هناك حوالي ثمانية ضباط أوربيين.

وشعر المستر إنجرامس بعدم ارتياح الأهالي من وجود الأجانب، فجمع موظفي المستشارية الأجانب وأشعرهم أنه يجب أن يكونوا كمساعدين للمستشار على ألا تكون لهم سلطة تنفيذية وأوصاهم أن يعتبروا أنفسهم كالمزيتين الذين ينظرون إلى الماكينة وهي تشتغل أكثر من اعتبار أنفسهم كجزء من الماكينة نفسها.

وبعد دراسة دقيقة لميول الشعب واستعدادهم شعر المستر إنجرامس أن المسؤولية الفعلية يجب أن تبقى بيد الحكومة القعيطية، ورأى أنه إذا أعطى الشعب المسؤولية ومرنهم على تحملها فهم قادرون على الاضطلاع بها على أحسن ما يرام، ولقد وجه اهتمامه لتحقيق ذلك.

وفي سنة ١٩٤٢م رأى أن استخدام الأوربيين الزائدين عن الحاجة لم يعد ناجحًا، لذلك خفضهم إلى اثنين واستخدم شرقيين مدربين لإرشاد وتوجيه موظفي الحكومة في القيام بإدارة المالية والصحة والتعليم والزراعة والحربية وأعمال البوليس ومراقبة شؤون البدو، وتركت بعض هذه المراكز شاغرة لعدم وجود مرشحين أكفاء، ويشغل الآن مراكز مساعد البوليس ومساعد شؤون البدو أردنيان وكمساعد في الحربية هندي وحضرمي برتبة مأجور وسوداني للتعليم.

وأنشئت مدرسة للموظفين والضباط غير الحربيين من كل القوات لإمدادهم بالإرشادات والتوجيهات لصالح البلاد، وتلقي المدرسة دروسًا للمرشحين الإداريين للخدمة كما تلقى فيها دروس في أعمال البوليس.

وكان موظفو المستشارية يديرون في البدء معظم مصالح الحكومة، وعندما استطاعت الوقوف على أقدامها انسحبت المستشارية وتركتهم لرؤسائهم ولسكرتير الدولة.

وتقوم الحكومة الإنجليزية بالصرف على فرقة البدو الحضرمية، ولقد تشكلت على نمط حامية الصحراء لجلوب باشا، وبما أن البدو لم يألفوا في حياتهم أي نوع من الخدمة الحربية المنظمة، فقد اضطربت المدرسة في بادئ الأمر، ولكن بعد ثلاث سنين انتظمت الدراسة فيها وأصبحت الخدمة فيها مرغوبة. ومركز المدرسة المُكَلَّا ويمثل أعضاؤها معظم القبائل، وهم لا يدربون كجنود فقط بل كمحكمين في المنازعات، والمدرسة لا تألو جهدًا في تثقيف عقولهم بالعلوم العامة كالتاريخ والجغرافيا. ولقد زرت المدرسة وأطلعني مديرها على برنامجها ونظام التعليم فيها فسررت لذلك سرورًا عظيمًا.

وهناك مستشفى حربي وهو الأول من نوعه في حضرموت أنشأته الحكومة القعيطية لجميع القوات.

وحاول المستر إنجرامس تطبيق السياسة التي وضعها لورنس لبلاد العرب.

بذل كل المحاولات في أن ينظر إلى الأمور من وجهة الحكومة المحلية فقط وفقًا للطريقة التي تحددها معاهدة سنة ١٩٣٧م، واشتغل كواحد منهم وتزيًّا بزيهم.

وفي بعض المناطق بحضرموت لقي معارضة شديدة للمعاهدة، فقد فهم بعضهم أن إمداد حضرموت بالمستشارين الإنجليز ما هو إلا مقدمة للتبشير وبناء الكنائس، ولذلك وجد المستر إنجرامس صعوبة شديدة في كسب رضا الشعب، ولكن سرعان ما تلاشت هذه الصعوبة عندما برهنت المستشارية عمليًا على عكس ذلك؛ فقد استخدم الدين الإسلامي في تثقيف الجنود والطلاب والطالبات في المدارس وأصبح مركز الدين يزيد قوة ونشاطًا.

لقد قضى المستر إنجرامس ١٥ سنة في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي زنجبار وموريس ودرس ميول سكان تلك المناطق وأخلاقهم وعاداتهم، فلا غرو إذا هو رسم طريقة واضحة ناجحة يتمشى معظمها مع نمو وتطور تلك الشعوب.

لقد نشر مقالًا قيمًا في مجلة «l,International Afairs» april ١٩٤٥م ذكر فيه الطريق الذي يجب أن يسلكه الموظفون الأجانب وفي مقدمتهم المستشارون، ونحن هنا نلخص للقراء تلك السياسة الحكيمة التي رسمها المستر إنجرامس.

قال: إذا نجحنا في تعليم الشعب ليحكم نفسه بنفسه فإنه يحتمل ألا يكون بالأساليب التقليدية في الإدارة الاستعمارية، فمعظم القطر صحراوي وتقاليدنا الاستعمارية إنما نشأت في أراض قادرة على النمو الاقتصادي، وليس السكان بسطاء ولا سهل الانقياد، بل هم على عكس سكان المناطق الاستوائية يرتابون في التدخل الأجنبي.

وقال: .. والعرب فرديون يعاملونك معاملة الند لهم، فالرجل الذي يشعرون باستحقاقه للزعامة عليهم يستطيع أن يسوسهم أحسن من أي شخص آخر، وبناء على هذا فقوة الشخصية هامة جدًّا ولكن يجب أن يكون رائدها الحصافة وصواب الحكم والثقة بالنفس والحلم والمرونة.

ويجب على الموظف الأجنبي ألا يظهر بمظهر التفوق عليهم وألا يتكبر على من يشتغل بينهم.

والعرب يعتقدون بأنهم أرفع الأجناس، ويجب ألا ننسى أن لهم مدنية وأدبًا وعلى هذا فليس لنا أن نفرض عليهم مدنية.

يجب على الذي يعيش بين العرب أن يساهم في حياة الشعب، وفي نفس الوقت يحافظ على ميزته الخاصة، ويجب ألا يتوقع حياة الراحة والسهولة، فإذا لم يستطع أن يساهم المجتمع في أفراحه فالأولى به أن يرحل.

يجب على الموظف الأجنبي أن يلم بعادات المجتمع الدينية، ويتودد إليه، كما يجب أن يعرف كثيرًا عن تاريخه، وأن يكون ذا معرفة فنية، وخبرة إدارية، وذا عقل مبدع.

وأخيرًا استنتج المستر إنجرامس من اختباراته الطويلة بجنوب الجزيرة العربية ما يأتي:

١- إن هناك نوعًا من المناطق المتأخرة في الشرق الأوسط والتي لأسباب في المناخ والتربية وطبيعة السكان لا يمكن تطبيق الإدارة الاستعمارية فيها.

٢- ليس من الأنظمة الإدارية الاستعمارية المعروفة بالحكم المباشر وغير المباشر ما يتناسب مع مثل هذه الأقطار، وفي الأقطار العربية يجب أن تستقر المسئولية النهائية في الحكم عند الحاكم المحلي وحكومته المحلية ويستمد المستشار سلطته منهم.

٣- إن أحسن طريقة لإدارة هذه المقاطعات هي السياسة المرنة والنصيحة التي ليست بالحكم المباشر ولا غير المباشر ولا انعدامها على الإطلاق.

٤- يجب على الأجانب المستشارين وغيرهم من الموظفين السياسيين أن يعيشوا ويعملوا كجزء من الشعب، وينظرون إلى الأمور نظر الشعب لها وهم بخدمتهم لمصالح الذين يعملون بينهم يخدمون أيضًا مصالح حكومتهم، والموظف السياسي يجب أن يكون قادرًا أيضًا على تفسير حكومته إلى الشعب.

٥- إن المبالغ التي تصرف في المناطق المتأخرة يجب أن تكون هبة من غير مقابل، وإذا كانت قروضًا يجب ألا تطلب بشيء من العنف.

ويرى المستر إنجرامس فيما يختص بمرتبات المستشارين ومساعديه أن الأصلح إقراض الحكومة لتدفع المرتبات في مستوى يتناسب مع ما تدفعه لغيرهم من الموظفين.

ومن رأي المستر إنجرامس وحدة المحميات وإدخالها ضمن الوحدة العربية، ولكنه لم يذكر الطريقة لتوحيد تلك المحميات أو الإمارات.

اهتمام الإنجليز بجنوب الجزيرة العربية

يلاحظ أن اهتمام الإنجليز بجنوب شبه الجزيرة العربية قد تزايد واتسع نطاقه وتشعبت فروعه أكثر جدًّا مما كان قبل الحرب العالمية الأخيرة بصورة تبعث على الدهشة والاستغراب؛ ففي حضرموت مثلًا يصرفون مبالغ كثيرة من المال شهريًا لمرتبات المستشار ومساعده وموظفيه ولجيش البادية الذي له القدح المعلى في حفظ الأمن في الحواضر والبوادي، وقاموا بمشروعات عمرانية واقتصادية كان لها أثر كبير في الحياة الاقتصادية بحضرموت.

فقد قامت الحكومة الإنجليزية ببناء وترميم السدود في حُرَيْضَة، وعَنْدَل، ولَخْمَاس، ورَخْيَة، ودَوْعَن، وصَوْرَان، ومُوزع شِبَام، والعقوم بوادي سَرْ، وعدد كبير من السدود والضمر في وادي بن علي، وجُعَيْمَة، ووادي مدر، ووادي حراد بالقرب من تَارِبَة، وخمسة سدود يملكها آل شملان على مقربة من مسيلة آل شيخ، وفي وادي الذَّهب، وثِبِي، ووادي لعوص في مسيال عِدِم، وفي عَيْنات، ووادي واسطة بالقرب من قَسَم.

وبلغت القروض التي دفعتها الحكومة الإنجليزية للمزارعين ولأعمال الضمُر وطلمبات الماء وحفر الآبار وغير ذلك منذ بداية سنة ١٩٤٤م إلى سنة ١٩٤٧م حوالي تسعين ألف جنيه. وهذه القروض وما يقدم من الحبوب والعلف للمزارعين تدفع إما نقدًا من غير ربح على أقساط أو عينًا رطلًا برطل، وبلغ مجموع ما صرفته الحكومة الإنجليزية على أعمال الإغاثة في المجاعة التي نكبت بها حضرموت سنة ١٩٤٤م حوالي خمسين ألف جنيه.

ومما تجب الإشارة إليه أن الحكومة القعيطية والتجار بذلوا أقصى مجهودهم لتخفيف المجاعة، كما أن الضرائب على الواردات والمساعدات

من موظفي الحكومة القعيطية بنسبة ١٪ من مرتباتهم وتبرعات أخرى، والعشرة آلاف جنيه التي تبرعت بها الحكومة المصرية والتي كان لها أثر عميق في قلوب الحضارم، كل أولئك خفف وطأة المجاعة إلى حد كبير وأنقذت آلافًا من المنكوبين من براثن الموت؛ فقد أنشئت الملاجئ ومطابخ الحساء للاجئين في الساحل، وأقيمت مطاعم في المناطق المنكوبة بالمجاعة كحُرَيْضَة، وهَيْنَن، والعَنِين، وقارة آل عبد العزيز، وسِحِيل شِبَام، وشِبَام، وحوطة آل أحمد بن زين، والغُرْفَة، وحصن العوانصة، وتَرِيْس، وسَيْئون، ومَرْيَمَة، وتَارِبَة، والغُرَف، وثِبِي، وتَرِيْم، والقوز، وعَيْنات.

وقد استغلت معظم الأموال التي جمعت في فتح أبواب العمل للرجال والنساء والأطفال وذلك في القيام بتنفيذ المشروعات الآتية:

١- بناء سد النُّقْرَة بين قَسَم وعَيْنات.

٢- حفر مائتي بئر لتحسين أعمال الري في قَسَم، وعَيْنات، وتَرِيْم، والغُرَف، ومَسِيْلة آل شيخ، وسَيْئون، وشِبَام، والجوادة.

٣- إنشاء وتعبيد الطرق وإصلاحها وأهمها:

(أ) الطريق الغربية.

(ب) الطريق الشرقية.

(جـ) الطرق الساحلية.

وبلغ ما تبرعت به الحكومة الإنجليزية لهذه المشروعات حوالي ثمانين ألف جنيه.

ولا شك أن بعض الناس يندهشون لهذا الاهتمام وهذه التضحيات من الإنجليز ويسألون أنفسهم: هل قام الإنجليز بهذه الأعمال حبًا في الحضارم وعطفًا عليهم؟ هل ضحوا بتلك الأموال توددًا للحضارم وتقربًا إليهم؟ ومن هم الحضارم حتى تخطب ودَّهم بريطانيا العظمى؟

لا شك أن هذه الدهشة تزول حين يعلم أولئك الناس بأن السياسة الإنجليزية تقوم على أمرين رئيسيين:

أولًا: إن الشعب الإنجليزي نفعي يتلمسون جانب النفع في كل الأمور، ومن النادر جدًّا أن نجد إنسانًا في الدنيا يعمل الخير لذات الخير.

ثانيًا: كثيرًا ما ترمي السياسة الإنجليزية إلى غرض بعيد قد يجنون ثماره بعد زمن مديد وعمر طويل.

وهذا الجانب من السياسة الإنجليزية من أعظم الوسائل التي ساعدتهم على بسط نفوذهم على العالم.

مساعدة حضرموت في الحرب

واستطاعت حضرموت أن تقدم للإنجليز مساعدة، فقد جهزتهم بجماعات لوحدات الحراسة بعدن عندما كان الإيطاليون في الحرب، وأنشأت فرقة للاستكشاف للعمل في قيادة الشرق الأوسط، وقامت بحراسة مطارات القوة الجوية الملكية وجهزتهم بحامية السواحل، واستطاعت إدارة الأشغال العمومية أن تبني محطة جوية بثلث التكاليف المنتظرة.

وعند اندلاع الحرب ساعدتهم حضرموت بمائة ألف ربية، واكتتب الحضارم في مهاجرهم بمبالغ، وعملت النساء الأشرطة للهلال الأحمر بمصر.

بوادر نهضة الحركة العلمية

وإذا عدنا بالسنين القهقرى عشرًا نجد الجهالة الضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها تنخر جسم الشعب وتهدّ كيانه وتدفعه إلى حياة أشد سوادًا من ظلام الليل.

كان الحضرمي إذ ذاك يرنو إلى من حوله ببصر مشدوه وفم فاغر، ولا يكاد يميز بين خرافة وحقيقة.

كانت المدارس عبارة عن كتاتيب لتعليم القراءة والكتابة وقليل من علوم الدين، وكان عددها ضئيلًا جدًّا، وكان إقبال الشعب عليها يكاد يكون معدومًا. أما اليوم فقد تبدلت الحال غير الحال، بدأت دياجير الجهالة تتبدد، وبدأ الناس يحطمون ما كان يثقلهم من قيود وأغلال. لم يشأ ربك لتلك الغاشية أن تدوم ولتلك الجذوة الخابية ألا تعود إلى الوهج والبريق، فلم تكد الحرب العالمية الثانية تضرب في نصفها الثاني؛ حتى هب الناس من مراقدهم يطلبون المعرفة، رفعوا أبصارهم المكدودة من طول ما نظروا إلى القبور وكثرة ما فكروا في يوم البعث والنشور، رفعوا أبصارهم ليستمتعوا بالمعرفة الحقة وليذوقوا طعم الحياة فوق هذه الأرض الفاتنة.

ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم، بالأمس أو منذ سنوات عشر لم يكن أحد يستطيع أن يتحدث عن النهضة العلمية والاجتماعية بحضرموت كاتبًا أو محاضرًا، فقد كان مثل هذا البحث لونًا من الخيال أو ضربًا من المحال.

لقد اهتمت الحكومة القعيطية بالتعليم فأنشأت حوالي ثلاثين مدرسة ابتدائية ومدرسة واحدة وسطى، وجعلت التعليم فيها مجانًا[1]، وأرسلت

---

(١) يبلغ عدد المعلمين اليوم حوالي مائة مدرس لحوالي ٣٠٠٠ طالب، و٧ مدرسات لحوالي ٢٠٠ طالبة، ولا يقل ما تصرفه الحكومة للتعليم عن ٢٥٠٠٠٠ ربية سنويًّا.

البعوث العلمية من خريجي المدرسة الوسطى إلى السودان ومصر وسوريا والعراق، وغدًا سيكون هؤلاء المبعوثون رسل النهضة وحماتها وقادتها.

لقد أخذ الناس يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى المدارس الحكومية برغبة قوية وشوق ملتهب، حتى ضاقت تلك المدارس بروّادها وازدحمت بطلابها وبلغت أزمة المعلمين نهايتها العظمى.

وتقدم بعض المتعلمين وفتحوا المدارس الليلية لتعليم الأميين القراءة والكتابة مساعدة منهم للقضاء على الأمية.

لقد زرت المدارس كلها، ووقفت على سير التعليم ونظام العمل فيها، واختبرت كثيرًا من الطلبة والطالبات، واطلعت على منهج التعليم، وجالست إخواننا المعلمين السودانيين والحضرميين، وناقشتهم في مختلف الشؤون الخاصة منها والعامة، فسرني كثيرًا جدًّا ما شاهدته في الطلبة والطالبات من الذكاء والنباهة والاستعداد لتحصيل العلم، وسرني كثيرًا جدًّا ما رأيته في المعلمين جميعهم من النشاط والإخلاص والوفاء والأمل الباسم والرغبة الملحة في العمل، إنهم بلا شك بمثابة البذور الطيبة انتثرت في أرض صالحة فأينعت ثمارها ودنت قطوفها وآتت أكلها بعد حين، وما كان هؤلاء المعلمون ليفلحوا كل هذا الفلاح في استنبات بذورهم لولا أن صادفوا هناك حكومة رشيدة على رأسها صاحب العظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي اليافعي؛ اعتزمت أن تمد النهضة بكل مرتخص وثمين وأن توليها من عنايتها ورعايتها قسطًا كبيرًا.

لقد سرني ذلك كله سرورًا أعجز عن وصفه وترك في نفسي أثرًا خالدًا لا يزول مدى الحياة.

غير أن هذا لم يمنعني عن إبداء ملاحظاتي، ولم يحل دون تقديم منهج للتعليم على أحدث الطرق التربوية يتمشى وميول الشعب الحضرمي، وليس في الدنيا منهج للتعليم بلغ الدرجة القصوى في الكمال، وإذا كنا نريد أن نلحق الشعوب التي سبقتنا بمراحل كثيرة فعلينا ألا نقنع بما نحن فيه، يجب علينا أن نطمح ونمعن في الطموح لطلب المزيد، ونلح في طلب العمل للسير بخطوات واسعة نحو الأمام.

والمناهج تتأثر إلى حد بعيد بظروف الزمان والمكان، والتعليم الصحيح أساس كل شيء من مقومات الوجود الإنساني، وإذا لم يصلح التعليم فلا بد أن ينهار كل شيء في العالم من جديد، وتثقيف العقول وتقويم الأخلاق أهم من التعمير المادي، آمنت بذلك الدول قديمًا وحديثًا، ولقد انتهى رأي الباحثين الفنيين في البلدان الراقية كأوروبا وأمريكا إلى أن الحريات الأربع التي كفلتها تصريحات روزفلت وتشرشل لا يمكن أن تستند إلى سند أقوى من التعليم الصحيح، وإن الإنسان لن يؤدي واجبه في سبيل تحقيق الخير الشامل إلا بالتعليم الصحيح. ومن المقرر أن التعليم الصحيح أقوى سلاح لمكافحة الفقر والمرض، وأمنع درع تقي الأمة عوادي الزمن.

وقد فطنت إلى هذه الحقيقة لجنة التعليم في حزب المحافظين بإنجلترا فقالت في تقريرها: «إن التعليم هو النشاط الأساسي للدولة، ولا يجوز أن يحول دون انتشاره وإتقان وسائله أي اعتبار، ولا أن يقف دون تقدمه أزمة من أزمات المال أو من أزمات السياسة، وحتى في وقت الحرب ينبغي أن يكون له المقام الأول، ولذلك صرح اللورد سولبري (Soulbury) في مجلس اللوردات بأن

الكتاب الأبيض عن التعليم[1] أهم لمستقبل الأمة من تقرير بيفردج».

ولا شك أن إصلاح التعليم يجب أن يلحظ فيه غرضان:

الأول: منفعة المتعلم نفسه، **والثاني**: منفعة الأمة.

ولن يتحقق ما يراد من إصلاح التعليم إلا إذا تحققت الموازنة بين حاجة الفرد ومنفعته وحاجة الأمة ومنفعتها. فإذا اختلت هذه الموازنة ضاع الغرض الأساسي من الإصلاح وضُحِّي بالفرد في سبيل الجماعة أو بالجماعة في سبيل الفرد، وكلا الأمرين يهدم الديمقراطية هدمًا.

لقد تقدمتُ إلى عظمة السلطان وإلى سعادة المستشار المقيم وإلى إدارة التعليم بملاحظاتي وبمنهج جديد للتعليم يتناسب مع نمو الشعب الحضرمي واستعداده وذلك قبيل عودتي إلى مصر ببضعة أيام، وقد وعدني مدير التعليم بالنيابة السيد عبد الله الناخبي أنه سيبذل أقصى مجهوده لتنفيذ ما في الملاحظات والمنهج من إصلاحات، كما تسلمتُ خطابًا من سعادة المستشار المستر شبرد أبدى فيه إعجابه بالاقتراحات، ووعدني أنه سيقوم بتنفيذها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا[2].

وما أردنا أن نشهر بإدارة المعارف أو نقلل من قدرها، كلا وألف مرة كلا، ولكننا أردنا أن نواجهها بالحقيقة في صراحة ووضوح، فالنقد البريء سلم الإصلاح، ولا شك أن من بيدهم الأمر يعلمون أن عجلة الزمان تأخذ سبيلها

(١) وضعته الحكومة الإنجليزية سنة ١٩٤٢م عن تجديد التعليم وقدمته للبرلمان، ودامت مناقشة الكتاب الأبيض في كل من مجلس اللوردات ومجلس النواب جلستين كاملتين. وقبل ذلك كان لمجلس اللوردات مناقشات في سياسة التعليم في إنجلترا استغرقت ثلاث جلسات كاملة.

(٢) الملاحظات والمنهج موجودان بآخر الكتاب.

إلى الأمام، والتقدم الفكري والاجتماعي والثقافي والسياسي يطالبنا بأن نلبس لكل زمن لبوسه، وأن نساير النهضة مسايرة من يؤمن بها ويعترف بوجودها، حتى لا نتخلف عن متابعتها ونقف في مكاننا والزمان يطالبنا بسرعة السير ومواصلة النهوض والتجديد، فلا يجمل بنا أن نبق قوانين المدرسة القديمة ونظمها على المدرسة الحديثة وقد تغير الزمان واختلفت الأوضاع، وليس من صالح المعلمين والمتعلمين أن تسلك القافلة سبلًا متعرجة يتعذر فيها السير لما يكتنفها من عقبات تعوق سالكها وتحول بيننا وبين الهدف الأسمى الذي ننشده، والغاية التي نسعى إليها، وليس من الحزم في شيء أن نغضي العيون عما يعترض القافلة من صعاب.

الوعي القومي

في حضرموت نهضة فكرية تنزع إلى التحرر من أغلال الماضي والوثبة بالوطن إلى ما يرسم في أفق المستقبل من رقي ومجد.

ولقد جالست كثيرًا من ذوي العقول النيرة والآراء الحرة، فقال لي بعضهم: إن الحركة العلمية الآن لا تزال في بدء مرحلتها الأولى، وأنه لكي ينهض الشعب الحضرمي يجب أن يكون نصف ميزانية الحكومة على الأقل للتعليم ولإتاحة كل الفرص للشباب ليتعلموا ويتقدموا، وبذل الجهود التي تفتح لهم أبواب العمل تأمينًا لمستقبل الفرد ورفاهية الجماعة، وتشجيع البعثات العلمية والتوسع في معاونتها لتمكين أكبر عدد من الشباب من مواصلة دراستهم في المعاهد العلمية في الخارج، ليعودوا إلى وطنهم ويديروا أعمالهم بأنفسهم ويبنوا مستقبلهم بأيديهم وينهضوا بالوطن إلى المستوى اللائق به.

وحضرت اجتماعات لبعض الأحزاب وفي مقدمتها (الحزب الوطني) بالمُكَلَّا، حيث سمعت نقاشًا حادًا بين فريق يطالب الحكومة بإنشاء مجلس تشريعي، وفريق آخر يرى أن ذلك سابق لأوانه.

وليس من شك أن هذا الوعي القومي السياسي والأدبي والاجتماعي يرجع إلى الأسباب الآتية:

١- ديموقراطية حكومتي القعيطي وابن عبد الله ومنحهما كل فرد مهما كان مركزه العلمي والاجتماعي والاقتصادي الحرية أن يقول ما يشاء وينتقد ما يشاء ويبدي آراءه واضحة صريحة فيما يريد، وهذا عكس ما نجده في بعض البلدان كاليمن، حيث الحرية مكبوتة مخنوقة والآراء مضغوطة مدفونة، والويل كل الويل لمن يقول الحقيقة أو بعض الحقيقة إذ يساق إلى السجن.

٢- نشاط الحضارم الفكري واستعدادهم الفطري للنهوض.

٣- شجاعتهم الأدبية فهم لا يهابون الأخطار والمجازفة ولا يخشون الاضطلاع بالمسئوليات.

هذه الظواهر الحيوية جعلت الشباب يطمح في المزيد ويلح إلحاحًا شديدًا في مضاعفة الجهود للسير إلى الأمام بأقصى سرعة وأوسع الخطوات.

والشباب عماد الحياة وأساس كل الحركات والنهضات، وقد استغل هتلر وموسوليني الشباب فأوحى كل منهما إليهم المثل التي أرادها فصاغهم على غرارها، ولما اشتعلت نار الحرب اندفعوا إليها على غير وعي أو بوعي مجنون، متأثرين بما استقر في أذهانهم وجرى مع عواطف شبابهم الحارة مجرى العقيدة والإيمان.

فالحرب التي ذاق العالم ويلاتها ست سنوات إنما جمع وقودها هؤلاء الذين استأثروا بعقول الشباب قبل ذلك بعشر سنوات.

وقوة الإرادة أظهر في الشبان منها في الشيوخ، ولذلك نجد أن معظم الزعماء السياسيين الذين تصدروا النهضات الشعبية أو تصدروا لقيادة الحركات الوطنية أو نصبوا أنفسهم لتوجيه الثورات القومية كانوا من الشبان، لكن ليس معنى هذا أن الشيوخ لا يصلحون للزعامة السياسية، فمنهم من هو أقوى من الشبان إرادة وأصلب عودًا وأكثر إقدامًا وتجارب، ولذلك يتولون قيادة أممهم في أدق المواقف وأحرج الساعات.

في طبع الشباب الانقياد للعاطفة والتأثر بالقدوة والانجذاب إلى المثل العليا، وشباب في مثل هذه الحالة النفسية في أشد الحاجة إلى مزيد من العناية في التوجيه حتى لا ينحرف ولا يتهور.

وما من وسيلة تعينه على ذلك إلا أن تتاح له الفرص أن يسأل ويجاب عما يسأل وأن يجد أشخاصًا أوسع منه إحاطة وأشمل تفكيرًا يبصرونه بما يغمض عليه، ويعلمونه كيف يؤثر مصلحة المجموع على المصلحة الفردية، ينمون فيه ملكة الإبداع ونزعة الحرية المتزنة التي تؤمن بالحق كما تؤمن بالواجب، ونزعة التجديد التي لا يستهويها التقليد، ولكن يوحي بها التفكير وروح الوطنية الصادقة.

حضرموت الكبرى

وهذا حلم أو صدى لفكرة (اليمن الكبرى) التي اختمرت في عقول كثير من اليمنيين ومن على شاكلتهم من الحضارم، وقام بالدعوة إليها بعض

الشبان اليمنيين في عدن وفي غير عدن، ومن روائهم أيد قوية خفية كانت تمدهم بالمال، دعا أولئك الشبان إلى توحيد إمارات جنوب شبه الجزيرة العربية وضمها إلى حكومة اليمن، فلما قتل الإمام يحيى لقلب الحكم وإنشاء حكومة جديدة تمهيدًا للوصول إلى ذلك الحلم، ولما نفذ حكم الإعدام على بعض القائمين بتلك الثورة خمدت فكرة (اليمن الكبرى) وهمدت الحركة همودًا عميقًا.

وفي حضرموت فريق أو جماعة يدعون إلى (حضرموت الكبرى)، أو بعبارة أوضح إلى توحيد الحكومتين القعيطية والكثيرية، وحجتهم في ذلك أن حضرموت قطر صغير فقير بموارده وغلاته ولا يزيد عدد سكانه على مليون نسمة. والحكومة القعيطية تسيطر على الثغور ومعظم حضرموت، والحكومة الكثيرية تسيطر على مدينتي سَيْئون وتَرِيْم ومناطق محدودة في الداخل، الأولى إيرادها لا يقل عن مليوني روبية سنويًا، بينما لا يزيد إيراد الثانية عن مائة وخمسين ألف ربية في العام.

وهم إنما يدعون إلى هذه الفكرة ويسعون إلى تحقيقها لا حبًا في إحدى الحكومتين وكراهية للأخرى، ولكنهم يرمون إلى أبعد من ذلك، فإذا لم يخنهم الحظ وساعدتهم الظروف لتوحيد الحكومتين، فقد خطوا الخطوة الأولى لتغيير أوضاع الحكم رأسًا على عقب.

ولا ندري ما هي الطريقة لإدماج إحدى الحكومتين في الأخرى وتوحيد السلطتين في سلطة واحدة؟ ولقد سألني بعضهم حين كنت في حضرموت عن رأيي في توحيد الحكومتين، فلما سألتهم عن الطريقة إلى ذلك لم يستطيعوا الإجابة أو أنهم يستطيعون ولكن تنقصهم الشجاعة الأدبية.

فهل يريدون إدماج الحكومة الكثيرية في الحكومة القعيطية؟ أظن أن آل عبد الله لا يرضون، هل يريدون ضم الحكومة القعيطية في الحكومة الكثيرية؟ بالطبع لا يقبل القعيطي وبيده الثغور ومعظم مناطق حضرموت، هل يريدون إنشاء هيئة عليا تسيطر على الحكومتين وتراقب أعمالهما وتفرض إرادتها عليهما؟

ومن عسى أن يكون أعضاء هذه الهيئة؟ وهل يثق بهم الشعب كل الثقة؟ وهل تعترف بها الحكومتان؟ وإذا اعترفتا بها كهيئة رسمية ذات سلطة عليا، فمعنى هذا وجود سلطة عليا ثالثة، وبدلًا من أن يوحد دعاة الوحدة الحكومتين جزأوها إلى ثلاث سلطات.

ومن الغريب أن معظم دعاة (حضرموت الكبرى) يتمنون من أعماق قلوبهم أن تكون حضرموت خاضعة لحكومة اليمن، والأغرب من هذا أن بعض هؤلاء يعلمون كل العلم أن اليمن لا تزال تعيش في ظلام العصور الوسطى، وأن الفقر والجهل والمرض كل ذلك يحصد الشعب اليمني حصدًا في غير رحمة ولا شفقة، هم يعلمون أن العدل في اليمن مفقود، والأمن مسلوب، والحرية مكبلة بأغلال من حديد. هم يعلمون أن اليمن متأخرة في كل شيء بالنسبة لحضرموت، وأن اليمنيين أموات والحضارم أحياء، ومع هذا يريدون أن تخضع حضرموت لليمن وأن يحكم الأموات الأحياء، فهل يريدون أن يرجعوا الحضارم إلى الوراء مئات السنين؟

ألا قاتل الله الأغراض إنها تطغو على العقول فتطمس نورها، وعلى الضمائر الحية فتسلب روحها، وعلى المبادئ السامية فتصيرها معاول هدامة.

ماذا فعلت حكومتا القعيطي والكثيري؟ هل ظلمتا الأهالي؟ هل خنقتا حريات الأفراد؟ هل عارضتا في الإصلاح وقاوما المصلحين؟

كلا، ولو كانت ظالمتين لكنت والله في مقدمة من يدعو ضدهما، ولكني لم أر منهما ما يدفعني للعمل على القضاء عليهما أو على إحداهما.

لا شك أن الحركة سابقة لأوانها، وكان يجب على دعاة (حضرموت الكبرى) أن يحرصوا على أوقاتهم ويستغلوها فيما يعود على بلادهم بالخير، كان يجب أن يوحدوا الجهود ويضموا الصفوف للقيام بالإصلاح العام، ونشر التعليم بين جميع طبقات الشعب، كان يجب أن يدعوا الحضارم وعلى الأخص الموسرين منهم في الوطن والمهاجر ليساهموا مع الحكومتين في ترقية البلاد وتنمية مواردها، فلو كانوا وجهوا تفكيرهم إلى ذلك وركزوا نشاطهم فيه، لكانوا أدوا خدمة جليلة لوطنهم وبني جنسهم، ولكانت أعمالهم أثمرت وأينعت وحان قطافها لا سيما وفيهم من لهم كلمة مسموعة وجاه مرموق.

ما أحوجنا اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى التعاون الاجتماعي لكي نبطل به غيره من الثورات الهدامة التي ترجعنا القهقرى، وهذه الثورة الاجتماعية لا تتأتى إلا إذا شبت نار الغيرة الوطنية في صدر كل مواطن صالح قادر على المساهمة في إسعاد المجتمع الذي يعيش في وطنه.

إن السياسة الحكيمة ترمي إلى جعل الأفراد في رخاء والشعوب في سعادة، ومن أجل ذلك يكون دينًا في عنق من ينصب نفسه لإدارة وتنظيم الشؤون العامة ويتصدى للدعوة للإصلاح أن ينسى ذاته ويذكر وطنه، وأن يضحي بأعز ما يملك: الصحة والمال، في سبيل إسعاد المجموع الذي كرس نفسه لخدمة مصالحه.

واليمن تحلم أيضاً!!

ومن المدهش أن حكومة اليمن ترى أو تعتقد أن إمارات الجنوب مقاطعات تابعة لها وداخلة في حدود مملكتها الواسعة النطاق والنفوذ وأن الإنجليز هم السبب في فصلها عن اليمن.

وعلى هذا فليس لحضرموت أو لحج مثلًا أن تعتبر نفسها سلطة قائمة بذاتها وأن تثبت وجودها في الخارج كهيئة أو حكومة ذات سيادة مستقلة.

وعندما تقدمت سلطنة لحج إلى جامعة الدول العربية في العام الماضي طالبة قبولها عضوًا في الجامعة أو تمثيلها في اللجنة الثقافية أسوة ببلاد المغرب، قامت قيامة ممثلي اليمن في الجامعة ضد طلب سلطنة لحج وعارضوا بكل تحمس ونشاط، وحجتهم في ذلك أن لحج ليست سوى محمية إنجليزية وجزء مقتطع من بلاد اليمن ولا يمكن بأي حال أن يكون لها ممثلون في الجامعة العربية.

ومن الغريب أن بعض أصحاب الفكر والقلم انحازوا إلى ممثلي اليمن وكتبوا في بعض الصحف المصرية عن الحالة السياسية في اليمن وفي إمارات الجنوب، ولقد دلت كتاباتهم على أنهم يجهلون أوضاع الحياة في جنوب الجزيرة العربية كل الجهل. ولسوء الحظ أن معظمنا نحن الشرقيين لا تزال تخدعنا الظواهر وتتحكم على عقولنا العواطف، ولا ندري متى نرى اليوم الذي يتحكم فيه العقل على العاطفة لكي نقول الحقيقة بحذافيرها حتى ولو كانت علينا؟

لقد شاهدت بنفسي الزوبعة التي قامت بين اليمن ولحج أو التي أثارها ممثلو اليمن ضد سلطنة لحج في العام الماضي، واطلعت على الرسالة التي تقدم بها السيد الجفري مستشار عظمة سلطان لحج لصاحب الدولة رئيس

الوزارة المصرية، بتاريخ ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧هـ، ١٨ فبراير سنة ١٩٤٨م، وفند فيها مزاعم المعارضين لتمثيل لحج في الجامعة بحجج قاطعة لا تدع مجالًا لأولئك الذين يحلمون بضم إمارات الجنوب إلى اليمن.

وفي شهر جمادى الأولى من السنة نفسها أصدر مستشار عظمة السلطان نشرة وزعت على الهيئات والجمعيات والشخصيات، وبما أنها تعطي القارئ فكرة واضحة عن الزوبعة التي أقامها ممثلو اليمن ضد لحج، وبما أنها تشمل المذكرة التي أرسلها مستشار عظمة السلطان إلى جامعة الدول العربية فقد رأينا أن نوردها هنا بحذافيرها.

مذكرة سلطنة لحج

«تقع مملكة اليمن في الركن الجنوبي من جزيرة العرب، وإلى الجنوب منها تقع محمية عدن، وسلطنة لحج، وسلطنة حضرموت، إلى إمارات أخرى اشتهرت على ألسنة بعض الكتاب منذ عهد غير بعيد باسم (المحميات)، وهي تسمية لا تطابق الوضع السياسي الصحيح لتلك البلاد التي يتمتع كثير منها بنوع من الاستقلال والحرية.

وقد كان لهذه التسمية الخاطئة أسباب ودوافع، بل أغراض ومطامع، فلا شك أنه مما يسر بريطانيا أن تمنح ما ليس لها بحق حين يقال إن هذه (المحميات) تابعة لها، خاضعة لسلطانها، فذلك كسب استعماري كبير تطمع أن تناله. كما أن بعض الذين يحاولون توجيه السياسة اليمنية يرجون من وراء هذه التسمية أن يقع في وهم العرب أن تلك السلطنات أو الإمارات المستقلة في جنوب شبه الجزيرة هي أجزاء من مملكة اليمن اقتطعها الاستعمار عن وطنها الأم ليفرض عليها سيادته وسلطانه، ومن الحق والواجب أن تعود إلى أحضان اليمن، كما كانت.

وقد وقر هذا المعنى الخاطئ في نفوس كثيرين من الناس، وساعد على استقراره انعزال هذه السلطنات أو الإمارات في ركنها الجنوبي منطوية على نفسها، لا تحاول دعاية في بلاد العرب ولا في غير بلاد العرب. على أن بعض الدعايات المعادية قد نشطت منذ قريب لتشويه الوضع السياسي لسلطنات الجنوب تحقيقًا لبعض ما أشرنا إليه من الأغراض والمطامع، بدا ذلك جليًا حين تقدمت سلطنة لحج إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية طالبة قبولها عضوًا في الجامعة، أو تمثيلها في بعض لجانها الثقافية، فقد بدر يومئذ صوت معارض يزعم أن سلطنة لحج (محمية) لا يسوغ لها الانضمام إلى الجامعة، وأنها إلى ذلك ليست إلا جزءًا مقتطعًا من بلاد اليمن لا يسوغ أن يكون له ممثلون في لجان الجامعة.

رد سلطنة لحج

وقد ردت سلطنة لحج على هذا الزعم ردًا قاطعًا، وأثبتت بالوثائق والبراهين المختلفة بُعده عن الواقع، وأن المعاهدة المعقودة بين لحج وبريطانيا إنما هي معاهدة مودة وصداقة لا تنقص من استقلالها شيئًا، كما أثبتت أنها تتمتع بهذا الاستقلال منذ مائتين وثلاثين عامًا، وقبل أن تستقل اليمن نفسها عن الحكم العثماني بمائتي عام، فليس من المعقول والحالة هذه أن تعتبر هذه السلطنة في القديم أو في الحديث جزءاً من اليمن المتوكلي، وهي تتمتع بما لم يكن يتمتع به من الاستقلال والحرية.

ولا تزال قضية انضمام سلطنة لحج إلى الجامعة أو تمثيلها في لجانها موضع نظر المختصين لم يفصل فيها بعد، فلسنا نحاول سبق الحوادث بالحديث هنا عن أمر لم ينته بعد إلى غايته.

الكاتب هو

ولكن الدعايات المعادية لم تكفّ مع ذلك عن غمز سلطنة لحج وإمارات الجنوب، فأخذ كاتب في جريدة (البلاغ) منذ أسابيع ينشر طائفة من المقالات تحت عنوان (مذكرات الكاتب هو)، وبتوقيع (أحمد فريد رفاعي بك الوزير المفوض سابقًا)، يتحدث فيها عن نفسه حديثًا لا نعرف مبلغه من الصدق أو الادعاء، إلى أحاديث أخرى عن سياسة اليمن يعرِّض فيه بالسلطنات والإمارات الجنوبية تعريضًا لعلنا قد فهمنا -كما فهم كثير من المطلعين- دوافعه إليه، والأغراض التي يرمي إليها من ورائه، والمنافع العاجلة التي ينشدها من ترديده واللجاج فيه...

أما حديث الكاتب (هو) أو الوزير المفوض السابق - عن نفسه في هذه المقالات فليس يعنينا أن نناقشه في كثير ولا في قليل منه، إذ كان شيئًا يعنيه في خاصة نفسه، وفيما يأمل أن يصيب من وراء الإشادة فيه بشخصه والتنويه بذاته وكشف الأسرار عن عبقريته وكفايته وصلاحه للاضطلاع بالمهام السياسية الكبرى...

وأما حديثه عن سياسة اليمن -في هذه المقالات- فقد هممنا أن نرد عليه ونصحح بعض مغالطاته فيه، ثم آثرنا الصمت إذ كانت حالة اليمن الداخلية في هذه الأيام تقتضي من كل غيور على مصالح ذلك القطر العربي الشقيق أن يقتصد في الحديث عنه حتى لا يزيد نار الفتنة اشتعالًا في بلد تتجاذبه أهواء ومطامع شتى.

ولكن الكاتب (هو) لم يقف عند ذلك الحد فيما يكتب، فانزلق إلى الحديث عن بعض ما لا يعلم من شؤون السلطنات والإمارات الجنوبية، أو

ما يعلم وينكر خضوعًا لبعض الرغبات الشخصية أو السياسية، فرأينا حينئذ من واجبنا أن نرد الحق إلى نصابه، وأن نكشف عن بعض ما تضمنت مقالات ذلك الكاتب من غلط وضلال وتشويه للتاريخ، ومسخ للحقائق الثابتة، ومحاولة استنتاجات ليست من المنطق في شيء.

جريدة البلاغ تخالف العرف الصحفي

وقد رغبنا إلى جريدة (البلاغ) أن تفسح لنا مجالًا للرد على بعض تلك المغالطات، ووسطنا إليها بعض فضلاء المصريين في هذا الشأن، ولكن جريدة (البلاغ) -لاعتبارات غير كريمة- أبت علينا هذا الحق ولم تنشر ما بعثنا إليها ندافع به عن أنفسنا تهجمات هذا الكاتب، فرأينا أن نذيع هذه الرسالة ردًا على تلك التهجمات وتعريفًا للقراء بحالة الركن الجنوبي من شبه الجزيرة الذي يطلق عليه -غلطًا- اسم المحميات، مكررين أشد الأسف من مسلك جريدة (البلاغ) الذي ينافي الأصول المرعية بين الناس، في نشرها ما يخالف الحقيقة، ورفضها نشر الحقائق.

لقد تهجم كاتب البلاغ على سلاطين وأمراء تلك البلاد ووصفهم بالخيانة لأوطانهم، والسير في ركاب الأجنبي الغاصب، وزعم أنهم من دعاة الانفصال عن العروبة، ونحن نكتفي بالإشارة إلى ذلك الزعم دون أن نتعرض للرد عليه بما يستحق حتى لا نكون قد انحرفنا عن النقد المركز إلى المهاترات.

ما هي المحميات؟

لم يخلق الإنجليز كما زعم (سعادة) الوزير المفوض سابقًا هذه الإمارات، وليسوا هم الذين أطلقوا على سلاطينها لقب سلطان، ولم يفصلوا هذا الجزء

من اليمن كما حاول أن يوهم في مقالاته. إن التاريخ ليتضمن الخبر اليقين وإنه ليذكر فيما يذكر أن حكومة صنعاء لم تحكم اليمن جميعه في تاريخها، ولم تحكم منطقة من مناطق الجنوب قط، اللهم إلا في الفترة الواقعة بين سنة ١٠٥٤هـ وسنة ١١٤٥هـ حين احتلت جيوشها بعض المناطق الجنوبية ومنها لحج وعدن، أي مدة تسعين سنة فقط. أما حضرموت فقد دخلتها جيوشها خلال هذه الفترة بطلب من سلطانها الكثيري لمساعدته في القضاء على مناوئيه من قبائل يافع، ولم تمكث هذه الجيوش فيها إلا سنوات ثار بعدها سائر الجنوب وأخرج جيوش صنعاء من سائر الإمارات وعاد إلى استقلاله السابق. والتاريخ وهو يقرر هذه الحقيقة الدامغة يقرر بإزائها أن الدول اليمنية في العصر الإسلامي التي اشتهرت وكان لها شأن إنما نشأت في هذا الجنوب في عدن ولحج وزبيد وتعز والمخا وحضرموت، وهي دول بني زياد (من سنة ٢٠٠هـ إلى ٤١٠هـ)، ثم بني أبي العلاء، فبني معن، فالصليحيين (إلى سنة ٤٤٠هـ)، ثم الدولة الزريعية (إلى سنة ٥٦٩هـ)، وبعدئذ دخلت البلاد تحت حكم سلاطين مصر وذلك حتى سنة ٦٢٠هـ عندما استقل بها بنو رسول، واستمرت سلطنة عدن ولحج المستقلة تحت حكم بني رسول أكثر من ٢٣٠ سنة، ثم ظهرت الدولة الطاهرية التي أخضعت اليمن كله لسلطانها نحو ٩٥ سنة، وقد ذكر التاريخ في صفحاته نشأة الدولة الكثيرية بحضرموت منذ ثمانية قرون ولا تزال قائمة حتى اليوم.

ويذكر التاريخ أيضًا أن السلطان فضل بن علي العبدلي قد استقل بحكم عدن ولحج وبلاد الصبيحة منذ سنة ١١٤٥هـ واستمر العبادلة يحكمونها حتى اليوم، ما عدا عدن التي اغتصبها الإنجليز سنة ١٨٣٩م، أي بعد تأسيس

السلطنة العبدلية الحالية بنحو مائة وعشر سنوات، وها هو الشأن بالنسبة لسائر إمارات الجنوب يحكمها سلاطينها منذ مئات السنين، قبل أن يكون للإنجليز أي شأن في مجال السياسة في هذه النواحي من البلاد العربية، فليس الإنجليز إذن هم الذين فصلوا هذه الإمارات وعينوا عليها سلاطين من أبنائها كما يزعم كاتب البلاغ، وإنما جاء الإنجليز والجنوب اليمني محكوم بسلاطينه، وكانت اليمن يومئذ تحت حكم الأتراك اللهم إلا بقعة في أقصى الشمال الشرقي يحكمها الأئمة الزيديون لا تزيد مساحتها وعدد سكانها عن مساحة وعدد سكان سلطنة من السلطنات الجنوبية، هذا هو لسان التاريخ يقرر هذه الحقائق ليمحق بها كل ادعاء يقصد منه التمويه على الرأي العام العربي للوصول إلى نتائج سياسية لا يمكن الوصول إليها دون الرجوع إلى أبناء الجنوب أنفسهم للتعرف على ميولهم ورغباتهم واتجاهاتهم.

أما البيان الذي فصله ذلك الكاتب في جريدة (البلاغ) وذكر فيه أسماء السلاطين والإمارات وعدد سكانها فإن أمره لأعجب، فقد زعم أن عدد السلطنات يبلغ الأربعين وهو قول يدعو إلى السخرية، إذ يبلغ بالعدد أربعة أضعافه، هذا إلى ما في البيان من أغلاط في أسماء الإمارات والسلاطين وعدد السكان.

هل يمكن الانضمام إلى اليمن؟

ونحن لا نرمي من وراء ردنا هذا إلى محاربة الاتحاد اليمني أو إلى الفرقة والتناحر فيما بين أبناء الوطن الواحد، فكلنا يؤمن إيمانًا وثيقًا باليمن الكبير، اليمن الذي لا يوجد فيه ما يميز بين أبنائه في الحقوق والواجبات ليسيروا صفًا واحدًا متراصًا في طريق التقدم والحضارة فيحتل وطنهم مرة أخرى مكانه تحت الشمس ضمن الأوطان الحرة الكريمة.

نعم لا يوجد يمني يحارب الاتحاد ويدعو إلى الشقاق ولكنه لا يوجد فرد من أبناء الجنوب يرضى باتحاد لا يعتمد على أساس من العلم والعدالة والمساواة والحرية والديمقراطية والشورى، فإذا ما تألفت حكومة في أية بقعة من البقاع اليمنية على هذه الأسس المتقدمة فلن يتخلف عن التعاون والتعاضد معها إلا خائر النفس أناني الضمير. وسلاطين الجنوب أول من يمدون أيديهم إلى الاتحاد ويعلمون ما يسبغه على اليمن جميعه من خير وتقدم، ولكن الدعاة لضم الإمارات الجنوبية إلى حكومة صنعاء لا ينظرون إلى هذه النيات السليمة الصافية لدى أبناء الجنوب سلاطينهم وعامتهم، بل يركبون حكم رؤوسهم ويأتون من طريق آخر، طريق مطالبة الإنجليز بإرجاع هذه الإمارات إلى صنعاء بدعوة أنها كانت تابعة لها والإنجليز هم الذين فصلوها عنها حسبما يزعمون، وما كان للإنجليز ولا غير الإنجليز أن يتحكموا في رغبات شعب الجنوب ويبتوا في مصيره، فأبناء الجنوب هم الذين يقررون ما يرونه صالحًا وذا نفع لهم ولسائر اليمن. وحق تقرير المصير حق معترف به لدى سائر دول العالم، والإمارات الجنوبية على استعداد إذا رأت الاتجاهات السياسية تجانب العدالة وتهمل حقوقها الطبيعية أن تدافع عن كيانها بكافة الوسائل، وأن ترفع قضيتها إلى مجلس الأمن بما لديها من مستندات ووثائق، وأهمها رغبة أبناء الجنوب في تقرير مصيرهم بأنفسهم، وكل محاولة تبذل للإفتئات على هذه الإمارة وإنكار حقها في الاستقلال وتقرير المصير سيكون مصيرها الفشل والبوار، لأن الجنوب ليس ملكًا للإنجليز يبيعون فيه ويشترون، وليس الإنجليز من السذاجة والبلاهة بالدرجة التي تحملهم على تجاهل الواقع وإنكار الشعور العام في سائر المناطق الجنوبية.

إلى دعاة الوحدة

فإلى الداعين إلى ضم المناطق الجنوبية إلى حكومة صنعاء نصيحة مخلصة لوجه الله والدين والعروبة، نصيحة لا نقصد بها -يعلم الله- إلا خدمة هذا اليمن العزيز، ننصحهم بأن ينادوا أولًا بالإصلاح ونشر العلم في كافة الربوع اليمنية، والمساواة بين سائر الطوائف والمذاهب في كافة الحقوق والواجبات والحرية، حرية القول والكتابة والتعليم والنهضة بكافة مرافق الحياة، فإذا ما رأينا نحن أبناء الجنوب هذا التطور المحمود مددنا أيدينا وتوجهنا بقلوبنا وأفئدتنا للنهوض باليمن الكبير إلى أعلا درجات المجد والعزة.

أما محاولة الغض من قيمة هذه الإمارات أو سلاطينها بما ينشره أمثال كاتب البلاغ «المفوض»، أما المغالطات التي تنافي الحقائق التاريخية القاطعة، فكل ذلك لا يجدي فتيلًا بل يزيد النار اشتعالًا.

وقد عمد الكاتب في مقالاته بمناسبة وبدون مناسبة إلى غمز سلاطين الجنوب ومحاولة الانتقاص منهم، فقد ذكر أن السلاطين إنما يمانعون في الانضمام إلى حكومة صنعاء خوفًا من انقطاع مرتباتهم أو حرمانهم من مظاهر التبجيل التي تتمثل في إطلاق المدافع للترحيب بهم عند زيارتهم لعدن، ولا أسمي هذا إلا إسفافًا في التعبير كان ينبغي أن يترفع عنه وزير مفوض سابق.

إن القضية أخطر من هذا الصغار بل إنها أخطر من أن تكون متعلقة بسلاطين الجنوب أو إمام صنعاء، فالقضية هي قضية الشعب اليمني بأجمعه لا قضية سلاطين أو قضية إمام مهما كانت قيمة هؤلاء السلاطين أو عظمة ذلك الإمام، وهذا الشعب لا يمكنه أن يلقي بمقاليد أموره طائعًا مختارًا إلا لمن اطمأن إليه ووثق به وبانتهاجه الأسس التي تعود على الشعب بالهناءة والسعادة والعزة، فما لم توجد القيادة الحكيمة فإن كل كلام في الاتحاد لا معنى له ولا جدوى.

الجامعة العربية واليمن

أما محاولة ذلك الكاتب إثارة الجامعة العربية واستنصارها على إمارات الجنوب، فما نظن الجامعة أسست لتكون سوط عذاب على الشعوب العربية لا همَّ لها إلا تنفيذ رغبات الحاكمين من أعضائها، وهي إذا سارت في هذا السبيل ضلت الطريق الذي رسم لها وخانت الأمانة التي نيطت بها، ونعيذها أن تفجع الشعوب العربية بها، وليس أمينها العام أو ملوك العرب بالذين يجهلون حقيقة الحال في الجنوب أو بالغافلين عن سير الأمور.

مذكرة سلطنة لحج

وقبل أن أختم هذا الإيضاح التاريخي، أحب أن أسجل فيما يلي نص المذكرة السياسية التي أرسلتها سلطنة لحج إلى جامعة الدول العربية والوفود التي حضرت جلسات الجامعة بشهر فبراير الماضي ردًا على اعتراض مندوب حكومة اليمن، وهذا نص تلك المذكرة.

حضرة صاحب الدولة:

بعد الإجلال والاحترام - اطلعنا اليوم على اعتراضات أبداها حضرة مندوب حكومة اليمن على انضمام سلطنة لحج إلى بعض لجان جامعة الدول العربية عامًا كما اطلعنا على نشرات أخرى غير صحيحة نشرتها جريدة المصري حول هذا الطلب، وإني بصفتي مستشار عظمة السلطان وقد انتدبني لتمثيله في الجامعة أتشرف بأن أقدم لدولتكم المذكرة الآتية:

أولًا: أن سلطنة لحج مستقلة منذ مائتين وثلاثين عامًا، وقبل أن يكون للإنجليز أي تدخل في السياسة العربية، وقبل أن تستقل اليمن بمائتي سنة.

ثانيًا: أن سلطنة لحج ليست محمية بريطانية، ومعاهدتها مع الإنجليز معاهدة صداقة وود، وقد سلمنا الصورة الرسمية عنها إلى معالي الأمين العام.

ثالثًا: أن عظمة السلطان لا يتقاضى مرتبًا من الإنجليز ولكن بريطانيا في مقابل استثمار ملاحات بلدة الشيخ عثمان ومقابل المياه الحلوة المستغلة منها تدفع نحو أربعين ألف روبية.

رابعًا: أن سلطنة لحج مستقلة استقلالًا داخليًا كاملًا ولا يوجد فيها مستشارون إنجليز ولا أي موظف إنجليزي ولا أي مندوب من قبل بريطانيا في أي دائرة وبالأولى المحاكم الشرعية.

خامسًا: أن سلطنة لحج مستعدة لتنفيذ الرغبات العربية القومية، ولكنها لا تقبل الانضمام إلى حكومة لا تقوم على أساس نظامي من دستور أو قانون، وتطلب من جامعة الدول العربية انتداب لجنة تكون ضيفة عليها لتحقيق الأوضاع الحاضرة في لحج واليمن، وترى الفرق الشاسع بينهما في النظام وحكم الشورى والحرية الشخصية وحالة التعليم والصحة وغير ذلك من المرافق العامة.

فمن هذا يتضح ما في تلك الأقوال من مغالطات غير صحيحة، كما أننا نطلب سماع ردنا عليها والوقوف على وجهة نظرنا في مواجهة حضرة مندوب حكومة اليمن الذي لم يراع الأصول السياسية المتعارف عليها بين الحكومات وبعضها.

وفي الختام أرجو أن تتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

القاهرة في ٨ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ — **مستشار عظمة السلطان**

١٨ فبراير ١٩٤٨م — **الإمضاء**

هذا وإني أختم كلمتي بأنه ليس هناك طريق للوحدة اليمنية وتنفيذ الرغبات القومية العربية إلا الطريق الذي ألمعت إليه آنفًا، وهو أن تقوم في اليمن حكومة نظامية مدنية تعترف بوجود العلم والفن، ولا تعتبر الجامعات والكهرباء والراديو والطيارات من عمل الشيطان.

محمد علي الجفري
القاهرة في جمادى الأولى ١٣٦٧هـ
إبريل ١٩٤٨م

النهضة الاقتصادية وكيف تكون؟

في خلال بضع سنوات نكبت حضرموت بمجاعتين الأولى كانت شديدة الوطأة أهلكت الحرث والنسل، واضطر بسببها كثيرون من الأغنياء لبيع ملابسهم وفرشهم ليبتاعوا بثمنها طعامًا.

ولقد كانت المساعدات التي جاءتهم من الحكومات الإنجليزية والقعيطية والمصرية ومن المحسنين من أفراد الشعب أعظم منقذ لأولئك المنكوبين.

أما الثانية فكانت في هذا العام وكانت في بعض المناطق العليا كوادي عَمْد شديدة الوطأة، ولا تزال آثارها السيئة باقية إلى اليوم، بالرغم من الجهود التي بذلتها الطائرات الإنجليزية لإرسال الطعام إلى المنكوبين بطريق الجو.

وليس الجدب وانقطاع الأمطار زمنًا أطول مما كانوا يألفونه سبب المجاعة الوحيد كما هو الحال في المجاعة التي نكب بها شرق السودان اليوم، ولكن هناك أسبابًا أخرى أهمها انقطاع المواصلات بين حضرموت

والشرق الأقصى، فإن كثيرًا من سكان حضرموت يعتمدون في حياتهم على إيرادات أملاكهم بإندونيسيا وملايا، فقد كانت تدر عليهم حوالي ٦٠٠٠٠٠ ستمائة ألف ريال سنويًا في فترات متقطعة، فلما احتلت اليابان الشرق الأقصى انقطعت المواصلات فانقطع ما كانوا يتسلمونه من النقود.

وهناك سبب هام لحدوث المجاعة وهو أن الأثرياء من الحضارم في المهاجر حبسوا أموالهم الطائلة هناك ولم يأخذوا بعضها ليستغلوه في وطنهم في إنشاء الآبار الارتوازية وشراء وسائل الفلاحة الحديثة واستزراع السهول والصحراوات، وفي تكوين شركات تجارية ومصانع لترقية المصنوعات المحلية وغير ذلك، ولو استغل كل من أولئك الأثرياء جزءًا من ماله لهذه المشروعات الاقتصادية لكانت حضرموت جنة كما كانت في عهدها الماضي السحيق، ولكان انقطاع الأمطار زمنًا طويلًا لا تأثير له كثيرًا، واليهود في فلسطين حولوا صحاري واسعة قاحلة وأراضي جدباء إلى مناطق زراعية خصبة تدر عليهم الخيرات؛ وذلك لأنهم استخدموا جزءًا من أموالهم في شراء الآلات الحديثة وسحب المياه من طبقات الأرض السفلى إلى سطحها واستزراع تلك الصحاري الماحلة.

ولكن أغنياء الحضارم كانوا -وأظنهم لا يزالون- غير واثقين من استقلال أموالهم في وطنهم، فقد كان الأمن مفقودًا في البوادي والحواضر، وكان الأقوياء يعتدون على حقوق الضعفاء، ولا رادع يردعهم عن الباطل ويخضعهم للحق وينصف المظلومين، فأثرياء الحضارم في مهاجرهم كانوا معذورين والشاعر يقول:

إذا الديار تغشاكم الهوان بها فخلها لضعيف العزم واغترب

قلنا كانوا معذورين لأن الأمن كان مفقودًا، أما اليوم فلا عذر لهم البتة لأن الأمن يسود الصحاري والقفار والجبال والوديان، فلو أن شخصًا حمل معه مالًا وسار شرقًا أو غربًا أو إلى الجنوب أو إلى الشمال لما استطاع أحد أن يعتدي عليه ويسلب ما معه من المال.

لقد ران على الأذهان شعور بالغ بعجز البلاد وقصور الحضارم عن ممارسة الاستثمارات الزراعية والنهوض بما تقتضيه من مطالب وتبعات، وحرض الكثير على تأكيد هذا الشعور وتثبيته في الأذهان حتى أضحى وهمًا عامًا لم يستطع معه الحضارم أفرادًا أو جماعات أن يتعاونوا على مجهود زراعي كبير.

إن الأرض عنصر هام في الإنتاج الزراعي، وطرق استثمارها واستغلالها ونظام توزيع ملكيتها في مقدمة العوامل المؤثرة في الكيان الاقتصادي والنظام الاجتماعي.

إن في حضرموت مناطق من الأرض واسعة صالحة للاستنبات والزرع، وبعضها خصبة كإقليم مَيْفَع الذي يرويه نهر حَجْر، ومنطقة غيل بازير ورَخْيَة، وجميع الأراضي الواقعة بين البَاطِنَة ودَمُّوْن حيث الماء قريب من سطح الأرض، والأرض هنا تتكون من الطمي والغرين، ومن السهل استخدام الآلات النازحة للماء، وقد جرب البعض ذلك وعلى رأسهم المرحوم الأمير علي بن صلاح القعيطي والسادة آل مرتع فنجحوا إلى حد بعيد.

أما الأراضي العالية في دَوْعَن وعَمْد فيعتمد في زراعتها على مياه الأمطار، وهي شحيحة جدًّا.

والزراعة التي تعتمد على مياه الأمطار وتسمى الزراعة الجافة لها قواعد هامة يجب اتباعها لتتلقى الأرض ماء المطر وتحتفظ به في باطنها، ويقل ما

يتبخر منه بواسطة الحرارة، وأهم هذه القواعد حرث الأرض حرثًا عميقًا لتغوص مياه المطر مسافة بعيدة عن السطح، وأن يكون الحرث متمشيًا مع ارتفاعات الأرض وانخفاضاتها لا متقاطعًا معها حتى يحتفظ بالماء في أخاديد الحرث، ومن الضروري استئصال الحشائش وتوسيع مسافات غرس المزروعات ليقل ما يفقد من الماء عن طريق نتح أوراق النبات.

وعلى البحر أراض صالحة للزراعة، ومن السهل استزراعها لا بمياه الأمطار ولكن بمياه العيون والآبار الارتوازية، وهي قريبة من سطح الأرض كما شاهدتها بنفسي في أثناء رحلتي إلى رَيْدَة ابن عبد الودود. ورمال الصحراء في المناطق الساحلية رمال بيضاء تحتوي على مادة الجير، وهي لذلك أقدر احتباسًا لمياه الأمطار، وتتسرب مياه الأمطار في هذه الرمال ثم تتجمع فوق أول طبقة صماء. ولما كانت الأمطار عذبة وأخف من ماء البحر المالح؛ فإن هذه المياه تعلو المياه التي تتسرب من البحر في العادة، غير أنه إذا اشتد السحب منها زادت ملوحتها بسبب تغلب مياه البحر المالح على مياه الأمطار المخزونة.

وفي استطاعة المزارعين إذا استخدموا الأنواع الصالحة من الآلات الزراعية الحديثة أن يزرعوا مساحات واسعة جدًّا من الأرض، وأن يطمئنوا إلى بذر الحبوب في الوقت المناسب الذي يساعدهم على إنتاج أكبر محصول ممكن.

وتوجد الآن آلات صالحة لحرث الأرض وبذر الحبوب وحصد المحاصيل ودرسها. وتقوم بالعمليتين الأخيرتين آلة واحدة تحصد المحاصيل وتدرسها فتنقي الحبوب بعد أن تضع الحبوب الناضجة السليمة بعيدًا عن الحبوب المكسورة، ولكن هذه الآلة لا يمكن استعمالها في حصد السمسم وهو من

الحبوب التي تجود زراعته في حضرموت؛ لأن حبوبه لا تنضج كلها في وقت واحد ولذلك لا مناص من أن يظل يجنى باليد إلى أن يمكن إنتاج نوع منه تنضج حبوبه كلها معًا.

ومنذ ثلاث سنوات أجريت في السودان تجربة هامة لإنتاج الذرة بالآلات، فقد زرعت منطقة ذات تربة صلصالية مساحتها عشرون ألف فدان فنجحت إلى حد كبير، والطريقة التي اتبعت في الزراعة هي كما يأتي:

عزقت الأرض بمجرد ظهور الأعشاب بعد سقوط الأمطار، ثم وجد أن عملية العزق الأولى لا تكفي، فكررت العملية مرة أخرى، واستخدمت في ذلك جرارات ديزل ثقيلة قوتها ثمانون حصانًا. وبعد عملية العزق الثانية مباشرة استخدمت جرارات صغيرة للبذر، وذلك بأن توضع البذور في حوض خاص مثبت على عجلتين تجره الجرارات، وفي قاع الحوض ثقوب يتساقط منها الحب أثناء سيرها.

وخلاصة الكلام يمكننا أن نؤكد أن الآلات الحديثة أصبحت تمكننا من زراعة مناطق لم يكن زرعها ممكنًا فيما مضى.

والزارع متى توافرت له وسائل الفلاحة الحديثة وتعلم كيف يستخدمها في أرضه يضاعف الإنتاج الزراعي بما يعود عليه بسعة الرزق، فيزداد طموحه الشخصي ويسعى إلى الارتقاء بحكم طبيعة البشرية، وحينئذ نقدم له صحراء مترامية الأطراف لكي يجعلها جنة.

لا شك أن معظم أصحاب الأراضي في حضرموت ليس في استطاعتهم استخدام الآلات الحديثة لعجزهم المادي؛ ولذا يجب التعاون، والتعاون في معناه الاقتصادي هو أن تتضافر جهود جماعة من الناس الذي لا يستطيعون

مكافحة الحياة بمفردهم للقيام بمشروع يرمون من ورائه إلى تحسين حالتهم الاقتصادية والاجتماعية.

وتنقسم هذه الجماعات التعاونية إلى أقسام أو أنواع، أهمها وأصلحها لنا وأكثرها موافقة لأنظمتنا الدينية والقومية هي: (المزارع ذات العمل المشترك)، ويسمى عند الإنجليز Societies for joint Tillag وهي فرع من (جمعيات التعاون في الإنتاج الزراعي والصناعي)، وفيها تدمج أراضي جميع الأعضاء مع بقاء الملكية الخاصة القائمة لكل منهم، أي تكون المشاركة هنا في العمل فقط أما الأرض فتبقى ملكيتها فردية، ويوزع الدخل على النحو الآتي:

١- يقدر لأرض كل عضو قيمة إيجارية في السنة تدفع له في نهاية العام.

٢- تدفع مرتبات الموظفين والخبراء الفنيين والمشرفين على أعمال المزرعة.

٣- ما يتبقى بعد ذلك يوزع على الأعضاء بنسبة ما أداه كل منهم من العمل. ولمعرفة ما أداه كل عضو من العمل على وجه الدقة يتبع لذلك مقياس للعمل يسمى وحدة العمل اليومي، ويمكننا أن نعرف وحدة العمل اليومي لعمل ما بأنها مقدار العمل الذي يؤديه الرجل المتوسط القوة في يوم عمل كامل (٨ ساعات عادة).

ومن المسلم به أن المهارة الفنية وصعوبة العمل لهما شيء كبير من الاعتبار والتقدير، ولذلك فمن البديهي أن يختلف الأجر الذي يُعطى لوحدة العمل باختلاف العمل نفسه.

وعليه فإن الأمور التي تقدر لوحدات الأعمال المختلفة تكون مرتبة ترتيبًا تصاعديًا كلما زادت صعوبة العمل واشتدت حاجته إلى المهارة الفنية.

ويقوم رئيس كل فرقة من الفرق بتدوين وحدات العمل اليومي التي يؤديها كل فرد من أفراد فرقته، ويراقب هذه العملية مفتش المزرعة.

وللمزارع التعاونية مزايا قيمة:

أولًا: زيادة المساحة المستغلة من الأرض حيث إن إدماج الأراضي يؤدي إلى إزالة الفواصل بينها ويوفر المساقي والمراوي المستعملة.

ثانيًا: إمكان استعمال الآلات الزراعية الحديثة، إذ ليس في مقدور الفلاح ذي الملكية الصغيرة أن يستفيد من استعمال الآلات الزراعية الحديثة لعدم قدرته على شرائها.

ثالثًا: الاستفادة من أحدث الطرق الفنية في الزراعة، يقوم على إدارة المزرعة أخصائيون فنيون في الزراعة، وهم بقيادتهم للمزرعة يلقون الإرشادات اللازمة على الأعضاء ويراقبون تنفيذ هذه الإرشادات.

رابعًا: إقامة مشروعات تربية الحيوان والدواجن والصناعات الزراعية وعمل الألبان.

خامسًا: العمل على رفع أجور العمال الزراعيين؛ لأن نظام توزيع الربح في المزرعة التعاونية حسب ما يؤديه كل عضو من عمل يعتبر من العوامل المهمة التي تؤدي إلى زيادة دخل الفلاح.

سادسًا: تعميم الملكية للعمال الزراعيين.

سابعًا: تأدية خدمات اجتماعية وثقافية.

ويستطيع كل عضو أن يستقل وينفرد بزراعة أرضه مستقلًا عن الجمعية عندما يريد، على شرط أن يكون ذلك في فرصة ممكنة أي بعد الانتهاء من السنة الزراعية.

هذا وإني أرى لزامًا عليَّ أن أرفع الصوت عاليًا وأنادي بأن مشروع إصلاح الأراضي أمر حيوي للبلاد لا يصح القضاء عليه بل يتطلب حتمًا أن تتضافر الجهود والقوى في سبيل المضي في تنفيذه وتخصيص المبالغ اللازمة له.

إن الحكومة ليست في استطاعتها القيام بجميع المشروعات الإصلاحية، وهي ليست مسئولة عن ذلك، فأهم اختصاصها حفظ الأمن والقضاء بين الناس بالعدل وإنما المسؤولون هم القادرون من الرعايا لا سيما الأغنياء منهم.

ملاحظات على المدارس

١- ليس للتاريخ القومي والجغرافيا المحلية عناية تذكر، وهذا يرجع إلى عدم وجود كتب في هاتين المادتين، ولذا يجب أن تؤلف كتب صغيرة ملخصة تلخيصًا وافيًا تطبع وتوزع على التلاميذ بالمجان أو بثمن يوازي ما ستصرفه إدارة المعارف في طبع هذه الكتب.

٢- ليس لدى التلاميذ كتب في معظم المواد التي يدرسونها، وهذا مما يجعل فهم التلميذ للدرس محدودًا مهما كانت الملخصات طويلة، ولهذا يجب أن يصرف للتلاميذ -ابتداء من الفرقة الثانية من المدارس الابتدائية- كتب تساعدهم على فهم الدروس بعد شرحها. أما في الحساب فلا مانع من بقاء النظام الحالي وهو توزيع الكتب في أثناء الدروس فقط؛ لأن حاجة التلاميذ إليها لا تتعدى قراءة المسائل التي يكلفون حلها منها، ويراعى ألا يبدأ استعمال كتب للحساب إلا في السنة الثانية الابتدائية؛ لأن أطفال السنة الأولى لا يحسنون القراءة.

يجب أن تكون الملخصات لا سيما في التاريخ والجغرافيا والصحة والأشياء قصيرة ليضطر التلاميذ لمراجعة ما عندهم من الكتب، وبهذا يتعلمون كيف يعتمدون على أنفسهم ويتقوون في المطالعة.

الكتب في جميع المواد موجودة بكثرة في مصر وأثمانها رخيصة، وهي واضحة وضوحًا تامًا تتناسب مع جميع تلاميذ المدارس الحضرمية، ولا بأس أن تؤخذ أثمانها من التلاميذ عند توزيعها عليهم.

٣- جميع مدرسي اللغة العربية والمواد الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا ومدرسي الصحة ومبادئ العلوم والحساب في أشد الحاجة إلى إرشادات وتوجيهات في طرق التدريس وعلم النفس، كما أنهم في أشد الحاجة إلى توسيع معلوماتهم في المواد التي يدرسونها.

٤- المدارس في أشد الحاجة إلى مفتش فني يمر على كل مدرسة مرة في الشهر على الأقل ليراقب سير التعليم فيها ويمد المدرسين بما يحتاجون إليه من توجيهات في طرق التربية الحديثة وغير ذلك، ويحسن بالمفتش أن يستعين في توجيهاته للمدرسين بمجموعة التوجيهات التي تصدرها وزارة المعارف الإنجليزية للمدارس الأولية بعنوان: «Handbook of Suggections for Teachers».

صحة التلاميذ

إني آسف إذ أجدني مضطرًا لأن أقول: إني لم أر للنظافة أثرًا محسوسًا لا في التلاميذ ولا في الفصول ولا في دور المياه؛ فقد شاهدت في كثير من المدارس تلاميذ مصابين بأمراض جلدية معدية يجلسون بين زملائهم السليمين، وشاهدت تلاميذ يمسحون ألواحهم بأطراف أكمامهم، وقد هالني قذارة وجوههم وأيديهم وأظافرهم وملابسهم وما تراكم على وجوههم وأيديهم من الذباب، وشاهدت مراحيض المدارس قذرة تنبعث منها الروائح الكريهة إلى مسافات بعيدة.

إن دروس الصحة التي يتعلمها التلاميذ لا تفيد إلا إذا طبقت تطبيقًا منتظمًا في بيئة المدرسة وحياة التلاميذ اليومية، ولذلك أقترح ما يأتي:

أولًا: أن يلفت نظر نظار المدارس إلى أن من أهم واجباتهم مراعاة الشروط الصحية في مكان المدرسة وفي حياة التلاميذ به وأن يحاسبوا على تنفيذ ذلك.

ثانيًا: أن تزود المدارس مما يلزم من استعداد وأدوات لنظافة التلاميذ الشخصية، وألا يسمح لهم بدخول الفصول كل يوم إذا لم يكونوا قد قاموا بغسل وجوههم وأيديهم وكانت ملابسهم نظيفة، ويا حبذا لو كان بكل مدرسة استعداد للوضوء والصلاة وتشجيع التلاميذ الكبار على الاغتسال وتأدية صلاة الظهر بإمامة أحد المعلمين، ففي هذا فوائد صحية ودينية في آن واحد.

ثالثًا: أن يكون تعليم قواعد الصحة تعليمًا عمليًا مطبقًا فيتجه إلى تدريب الأطفال على مكافحة الذباب واتقاء ضرره وعلى كيفية غسل الفجل وما شابهه من الخضروات قبل أكلها لتنقيتها من الميكروبات الضارة، وعلى عمل الإسعافات البسيطة في حالة الجروح والحروق.. إلخ. فبكثرة التمرين على ذلك يعتاد الأطفال هذه الأمور وتصبح حياتهم المدرسية مثالًا يحتذونه هم وأهلوهم في حياتهم المنزلية، وبهذا يكون للمدرسة أثر في النهوض بالحالة الصحية.

الامتحانات

١- يعقد امتحان الدور الأول في أوائل يونيه، وامتحان الدور الثاني للراسبين والمستجدين في أواخر سبتمبر.

٢- يجب أن تكون اختبارات النقل من فرقة إلى أخرى على نظام الفترات الثلاث.

٣- يجب أن تكون أسئلة الاختبارات للفرق النهائية من عمل إدارة المعارف، وأن تراقب الامتحانات مراقبة دقيقة، وأن تكتب أرقام سرية لأوراق إجابات التلاميذ.

٤- يجب أن يراعى في وضع الأسئلة الطريقة الفنية لكيلا يظلم التلاميذ.

٥- يجب أن تكون لدرجات كل مادة نهاية صغرى ونهاية كبرى وأن تكافئ إدارة التعليم المتفوقين من التلاميذ تشجيعًا لهم.

٦- يجب أن تمنح لكل ناجح في نهاية كل مرحلة من مراحل التعليم الثلاث شهادة من إدارة التعليم، وتمنح كل مدرسة الناجحين من فرقة إلى أخرى شهادات تثبت نجاحهم.

٧- تبدأ الإجازة الدراسية السنوية في شهر يونيه بعد الانتهاء من امتحان الدور الأول حيث تشتد الحرارة، ويبدأ العام الدراسي في أوائل أكتوبر من كل سنة.

منهج التعليم

منهج التعليم المعمول به في مدارس الدولة القعيطية هو منهج السودان، وهو في مجموعه لا يتمشى مع حاجات البيئة الحضرمية، وعلماء التربية في

كل الدنيا قالوا إنه عند وضع أي منهج للتعليم يجب أن يراعي فيه الاحتفاظ بالطابع القومي، وأخطر شيء أن نكون مقلدين نأخذ منهج التعليم بدقة من غيرنا ونطبقه على مدارسنا فلكل أمة خصائصها، وما يصلح لفرنسا لا يصلح لإنجلترا، وما يصلح لمصر لا يصلح للشام، وما يصلح للسودان لا يصلح لحضرموت؛ لذا يجب أن يتمشى المنهج مع الظروف الاجتماعية والخصائص القومية والاستعدادات العقلية لأبناء الوطن، وخير مثال لذلك الإنجليز فهم يعترفون بالاستقلال في تفكيرهم، لقد جددوا في أساليب تعليمهم ولكن بعقل وحذر فحرصوا على أمرين:

أولًا: أن يحوِّروا كل طريقة يتبعونها تحويرًا يجعلها مناسبة لأمتهم ولعقلية أبنائهم، وقد يصلون بالتحوير إلى التغيير والتبديل وابتكار أساليب جديدة.

ثانيًا: أن يحتفظوا بالمزايا القيمة التي تمتعت بها مدارسهم كاملة غير منقوصة، وهذه المزايا هي العناية بالتربية البدنية وحرية الفكر، وبالاهتمام بالجو الخلقي والاجتماعي. كل ذلك من أكبر ما ساعد على تطبيق المبادئ الحديثة، ثم يجب أن يبين المنهج على أساس سيكولوجي، فإن علم النفس قد أثبت أن لكل مرحلة من مراحل النمو الإنساني الجسمية والعقلية خصائص يجب أن تتمشى معها أساليب التربية والتعليم إذا أريد لها النجاح، يجب أن يكون أساسه استغلال النشاط الطبيعي الذي خلقه الله في الإنسان.

والنجاح في الحياة يتوقف -إلى حد كبير- على الأخلاق قبل المعرفة، فالأمانة والصبر والاعتماد على النفس وحب العمل وتقدير الشغل اليدوي

واحترام النفس والعطف على الضعيف، والرغبة في النجدة؛ كل ذلك من أهم الأسس التي يجب أن يُبنى التعليم عليها، وكل هذه الصفات لا تكتسب بالوعظ والإرشاد والاستماع إلى المحاضرات وإنما يتم الإعداد للحياة بالحياة، فلنجعل المدرسة صورة من صور المجتمع الحقيقي، ولنجعل أساس التعليم شعور التلميذ بالحرية أولًا ثم بالحاجة إلى المعلومات التي يريد أن يكتسبها، وأن يكون موقفه في ذلك موقفًا إيجابيًا لا سلبيًا، والمدرس يوجهه توجيهًا ويقدم الإرشاد له.

جاء في تقرير اللجنة الاستشارية لوزارة المعارف بإنجلترا المعروف باسم تقرير (هادو)، والذي صدر في سنة ١٩٢٦م ما يأتي:

إن التنظيم التعليمي يكون ناجحًا ومثمرًا بقدر ما يُبنى على الحقائق الفعلية لنمو الأطفال والفتيان ..... وعند الانتقال من الطفولة إلى المراهقة يشعر الفتى في كثير من الأحيان بقوى وميول جديدة، فإذا أردنا أن يكون التعليم وسيلة لإيقاظ العقل وأن يشعر التلاميذ أنه شيء له معنى وقوة على الإيجاد للنفس لا أنه مجرد استمرار العمل، فيجب أن يخاطب تلك الميول ويعمل على تنمية تلك القوة العقلية، وبالإجمال يجب أن ينمو ويتسع بنمو الأطفال الذين يهيأ لهم، وسيكون التعليم أنجح في تحقيق ذلك إذا جعلت العلاقة بين مراحله المختلفة بحيث تتفق بداية كل مرحلة منها مع بداية طور جديد في حياة الأطفال أنفسهم.

أرى أن يقسم التعليم في حضرموت إلى ثلاث مراحل مدة كل منها أربع سنوات وتخص لكل منها مدرسة مستقلة، وهذه المراحل هي:

١- المدرسة الابتدائية.

٢- المدرسة الوسطى.

٣- المدرسة الثانوية.

١ - المدرسة الابتدائية

تكون حدود السن فيها من ٦ سنين إلى ١٠ في المتوسط، فيجب أن يستلهم التعليم في المدرسة الابتدائية روح التعليم في رياض الأطفال؛ فتهيئ المدرسة للأطفال وسطًا ملائمًا للنمو عن طريق النشاط العملي والتعبير الحر باللغة والرسم والتمثيل الحركي وعمل النماذج وما إلى ذلك، وتتخذ من هذا النشاط لتعليم القراءة والكتابة والعمليات الحسابية الأساسية، وتشجيع الطفل على دراسة بيئته المباشرة من نبات وحيوان وظواهر طبيعية وبشرية بسيطة دراسة مبنية على المشاهدة الحسية.

وينبغي أن يتبع في هذه المدارس نظام معلم الفصل «لا نظام معلم المادة» فإن ذلك أكثر ملاءمة لروح الطفولة، ولن يكون في مناهج المدرسة الابتدائية ما يحتاج إلى معلم أخصائي في أي مادة.

خطة الدراسة بالمدارس الابتدائية

عدد	المادة	عدد الدروس في الأسبوع			
		السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
١	الديانة	٢	٢	٣	٢
٢	اللغة العربية، المحادثة والقراءة، والكتابة، وتحسين الخط، والمحفوظات، والأناشيد	٨	٨	١٢	١٣
٣	الحساب	٦	٦	٦	٦
٤	الأشغال	٤	٤	٣	٣
٥	الرسم	٢	٢	٢	٢
٦	مشاهدة الطبيعة والصحة	٢	٢	٢	٢
٧	القصص	٢	٢	٢	٢
٨	الألعاب والموسيقى	٤	٤	٤	٣
٩	الجغرافية	٤	٤	٤	١
١٠	التاريخ	٤	٤	٤	١
	الجملة	٣٠	٣٠	٣٤	٣٤

ملحوظة: عند توزيع الحصص على الأيام ينبغي ألا يزيد عدد حصص كل من يومي الاثنين والخميس على أربع حصص على أن يستبدل بقية يوم الاثنين في النشاط المدرسي.

(أ) تبدأ الحصة الأولى الساعة السابعة والنصف صباحًا.

(ب) حصص اللغات والرياضة تكون في الصباح.

(جـ) يجب أن ينتهي المقرر في أواخر إبريل ليكون شهر مايو للمراجعة.

٢ - المدرسة الوسطى

عندما يبلغ الطفل سن العاشرة يمكنه أن يبدأ في الانتفاع بالكتب في تحصيل المعلومات، وهو لا يهتم بعد بالأفكار المجردة والنظرات بل لا يزال اهتمامه منصبًا على الحقائق الواقعية التي يصل إليها من طريق الخبرة الحسية أو الصور الذهنية، ويتجه خياله الإنشائي وميله الغريزي إلى الحل والتركيب اتجاهًا واقعيًا نفعيًا. وفي تلك السنة يظهر فيه الميل والاندماج إلى جماعة منظمة لها قوانينها وتقاليدها، ويأخذ في توقيف سلوكه على حياة تلك الجماعة ونظمها ويقوى شعوره بالولاء لها، ومع أنه لم يصل بعد إلى مستوى إخضاع سلوكه للمثل العليا الموجودة فإنه يكون شديد القابلية للتأثر بالشخصيات القوية البارزة في المجتمع الذي يعيش فيه، ومما يقرأه من سير أبطال التاريخ والقصص، لهذا ترى أن مهمة المدرسة في هذه المرحلة هي تهيئة الوسط الاجتماعي الملائم لنمو شخصية الفتى وتوجيه ميوله الاجتماعية توجيهًا صالحًا والعناية بتوسيع دائرة خبرته ومدى فهمه لطبيعة الأشياء عن طريق النشاط العملي، والعمل على تربية تذكيره وقدراته العملية الابتكارية وتنمية ملكته اللغوية.

وتكون خطط التعليم ومناهجه في هذه المرحلة واحدة في أساسياتها لجميع التلاميذ، على أن تراعى المرونة في تطبيقها بحيث يمكن مواجهة ما يوجد بين التلاميذ من فروق قيودية في هذه المرحلة، وعلى أن يراعى في تدريس

الموضوعات بسطها بسطًا قويًا بالبيئة التي يعيش فيها الطفل وحاجات الحياة العملية، فتختلف الصبغة العملية في مدارس الريف عنها في مدارس المدن الداخلية أو مدارس المدن الساحلية أو مدارس البيئة الصحراوية، كما تختلف في مدارس البنين عنها في مدارس البنات، إذ أنها في هذه الأخيرة يجب أن تتصل بشؤون المنزل والأسرة أوثق الاتصال.

خطة الدراسة بالمدارس الوسطى

عدد	المادة	عدد الدروس في الأسبوع			
		السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
١	الدين	٣	٣	٣	٣
	اللغات				
٢	اللغة العربية	٧	٧	٧	٧
٣	اللغة الإنجليزية	٧	٧	٨	٨
	مواد اجتماعية				
٤	التاريخ	١	١	٢	٢
٥	الجغرافيا	٢	٢	٢	٢
	الرياضة				
٦	الحساب	٦	٥	٤	٢
٧	الهندسة	٦	١	٤	٢

	العلوم				
٨	أشياء وصحة	٢	٢	٤	٢
٩	طبيعة	٢	٢	٢	٢
١٠	الكيمياء	٢	٢	٢	٢
١١	الرسم	١	١	١	١
١٢	موسيقى وأناشيد	١	١	١	١
١٣	التربية البدنية	٢	٢	٢	٢
١٤	الأشغال	٢	٢	٢	٢
	الجملة	**٣٤**	**٣٤**	**٣٤**	**٣٤**

ملحوظة:

(أ) عند توزيع الحصص على الأيام ينبغي ألا يزيد عدد حصص كل من يومي الاثنين والخميس على أربع حصص، على أن يستغل بقية يوم الاثنين للنشاط المدرسي.

(ب) حصص اللغات والرياضة تكون في الصباح.

(جـ) يجب أن ينتهي المقرر في أواخر إبريل ليكون شهر مايو للمراجعة.

(د) تبدأ الحصة الأولى في الساعة السابعة والنصف صباحًا لقرب منازل التلاميذ من مدارسهم.

٣- المدرسة الثانوية

أهم الصفات التي تتميز بها مرحلة البلوغ شعور الفتى بشخصيته شعورًا قويًا، ونزوعه إلى الاستقلال في تفكيره وتصرفاته، وتطلعه إلى حياة المستقبل، واهتمامه بتفهم المثل العليا الخلقية، واشتداد ميوله العقلية والفنية والاجتماعية وتنوعها، وظهور الفروق الفردية بين التلاميذ في الميول والاستعدادات ظهورًا واضحًا يتعين معه أن ينوَّع التعليم لهم فتكون هناك مدارس ثانوية نظرية تتبع الميول الفكرية للتلاميذ، ويراعى فيها الإعداد للدراسة العلمية العالية، ومدارس ثانوية فنية تعدُّ الفتيان للحياة العملية من زراعية وتجارية وصناعية.

خطة الدراسة بالمدارس الثانوية

المادة	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
الدين	٣	٢	٢	٢
اللغات				
اللغة العربية	٨	٨	٧	٧
اللغة الإنجليزية	٧	٧	٧	٧
مواد اجتماعية				
التاريخ	٢	٣	٣	٣
التربية الوطنية والأخلاق	٢	٢	٢	٣
الجغرافيا	٢	٢	٢	٣

الرياضة				
الحساب	٣	٢	٢	٣
الجبر	٣	٢	٢	٢
الهندسة	١	١	١	٢
العلوم				
الطبيعة	٢	٢	٢	٢
الكيمياء	٢	١	٢	٢
علم الأشياء	٢	١	٢	٢
الموسيقى والأناشيد	١	١	١	١
الرسم والأشغال	٣	٢	٢	٢
التربية البدنية	٢	١	١	١
الجملة	٣٤	٣٤	٣٦	٣٦

إعداد المعلمين

أجمعت تقارير اللجان المكونة لإصلاح التعليم في كل العالم، على أن المعلمين يجب أن يكونوا من خيرة الناس عقلًا واستعدادًا، وأن المعول كله في إصلاح التعليم على المعلمين، ومن غير معاونة المعلمين وتمكينهم من هذه المعاونة تكون الإصلاحات المقترحة مجرد إصلاحات إدارية فقط.

ومن المسلَّم أن مهمة التعليم شاقة جدًّا، ومن الخطأ البيِّن الاعتقاد بأن التعليم يمكن أن يوكل إلى أناس من الدرجة الثالثة أو الثانية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن رغبة الشعب الحضرمي في التعليم شديدة، وأن حاجة المدارس إلى المعلمين الأكفاء أشد، وقد شاهدت بعض مدارس بها أربعة فصول واثنان من المعلمين. وفي مدينة حَوْرَة أكثر من مائتي وخمسين ولدًا يهيمون في الشوارع ويقضون أوقاتهم سدى؛ لأنهم لا يجدون مدرسة يتعلمون فيها، وإذا كانت أزمة المعلمين وصلت اليوم إلى هذا الحد فكيف تكون الحالة بعد بضع سنين، وكيف نتصور النتائج السيئة في سير التعليم التي ستتركها أزمة المدرسين.

لهذا أقترح ما يأتي:

أولًا: إيقاف فتح مدارس جديدة ثلاث سنين على الأقل.

ثانيًا: إنشاء مدرسة للمعلمين يلتحق بها خريجو المدرسة الوسطى ليقضوا بها ثلاث سنوات يدرسون خلالها علم النفس، وطرق التربية الحديثة، والتربية العملية، والجغرافيا، والتاريخ، وغير ذلك.

فبعد ثلاث سنين من إنشاء المدرسة سيتخرج أول فوج من المعلمين الأكفاء الفنيين، وسيسدون أكبر فراغ من المدارس، وسيقومون بأعمالهم على أحسن ما يرام.

خطة الدراسة بمدرسة المعلمين

عدد	المادة	عدد الدروس في الأسبوع		
		السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة
	علم النفس	٢	٢	٣
	تاريخ التربية	١	١	١
	طرق خاصة	٢	٢	٢
	التربية التجريبية	٢	٢	١
	التاريخ	٢	٢	٢
	الجغرافيا	٢	٢	٢
	التربية العملية	٢	٣	٥
	الرياضة البدنية	١	١	١
	الهوايات	٢	٢	٢
	الأدب العربي	٢	٢	٢
	الجملة	١٤	١٧	٢١

قصيدتا ابن النقيب، والدموني

نورد هنا قصيدة قالها بالشعر الحميني عبد الله بن صالح بن النقيب اليافعي بعد استيلاء يافع على شِبَام وبعد مقتل السلطان منصور، ورد عليه عبد الحق الدَّمُّوْني.

قصيدة ابن النقيب التي مطلعها:

يا رب سالك بلسما كلها تشرح ... من الخطايا عسى بالعفو يوم النور
اغفر ذنوبي إلهي رب لا تفضح ... راجيك تكرم بجودك عندي التقصور

إلى أن قال:

ذا فصل والبارح النوم اشتعف روح ... طول الدجا ما هنيته والسهر منكور
الناس ناموا ونا بطلت في المسدح ... لا هم دنيا ولا باطل على مقهور
الحمد لله نود القبولة يذلح ... لا انا بلا قوت في الصغر أو لا محصور
العز يكفي أذانا وسطها أتبجح ... من ساحة الحصن لما دارنا المشهور
يسلم عمر بن عوض فوق العدو ديَّح ... بالحال والمال والمدفع عليه يثور
وصلوه ربعه كما لظبا سوا ترزح ... وخلوا العبد يدحا في الجبل مكسور
يدعون من فوق طيب يا ولد افتح ... وأهل النمش في تلاهم هلبوا زمهور
وحملة الشرق لي خافته يوم أكلح ... والركز شاف القيامه نفخها في الصور
من بعدها ديف المكسور ما رنح ... ولا حسب لي بقلبه عندنا محذور
عينه بقطعات با يذبح وبا يقدح ... عايب يروم الجماعة: هاك يا لصنفور
نفخوك بالعيب كل فيك يتمدح ... ذا خلع بيدك خلعته فيش من محذور

دثرك وقع لك تفطن من قتل لكسح | وبن حمود أيش لقى فيك يا لقنتور
ما حد يشارك بحرمه صوبها ينضح | ما يصلح العقد بين اثنين يا لمدمور
في لوله قد قمرت الناس يا لجلح | والتاليه غاب سحرك فر يا لمسحور
وقعوا له آساد غاصوا له وهو يسبح | لقفوه في منزله حوش بهم قنبور
ولو هو إلا سبق كم نذل با يفرح | وبا يقولون دامت بيده المنبور
قم يا رسولي من ادمنه شِبَام اسرح | حلوا وسطها بني مالك رجال صدور
لي ذللوا صعبها خشفوه وتسمح | من بعد ما كان يطمر في السما مذعور

إلى أن قال:

واقصد إلى الشعب ذي هو بالرصاص افلح | نعمته لا خيم البارود فوق القور
فيه آل سلمه دريك الحرب لا صيح | وارم المعلم سعيد اشرح له المسطور
قله يقول السعيدي غيثنا طرح | فوق المدينة تهنا نخلها وذبور
ما هو كما غيثكم كل لغب يلفح | يرعد ويبرق وتاليه ارتكزن عكور

يشير في هذا البيت إلى كفاح آل تميم ضد الدولة الكثيرية الحديثة:

اغفر ذنوبي إلهي رب لا تفضح | راجيك تكرم بجودك عندي التقصور
شف من لغب ما لغبنا كان يوم أفسح | واليافعي دوب وقته يذلح المنزور
حدرا وعلوا شفوا من ذل يتفلقح | من لا تنكف لنفسه ريت له معقور
ذا وقت كل بعقله من ظمى ينزح | من شاوف الناس يحرم لاضوا مجبور

وأجابه المعلم عبد الحق فقال:

لاحت بروق الظفر في الليل ذي جوّح وحن رعد الجميله فوق روس القور
رغاي من فوق يهدر والمزن تطرح فتكت سيوله وروا ذبره المعمور
وجاء مكتب وقال إنَّ لانت خصم افرح يافع طووا لآل عيسى امبدر بالأمور
ذي سيلهم كان في ظلمه بليل أكشح واليوم من بعد تلك الظلمه امست نور
والوعل لي كان في لصبار يتبجح ما يعرف الدقم خايف دثره المدثور
في الجو راسه إذا شاف القنص زوح غير الأجل في الصحائف يوم له محذور
يوم انقضى العمر من شاهق جبل لوح ولعاد عرقه شبا منها ولا عترور
من غيرنا هل ورد للدقم وتسمح عسفوا قرونه وشربوا دمه المنثور
تقنو فعائله لي تـاذي ولـي تجرح ولّا فـوالله مـا حـد يقتل المأسور
الجيد يللي قتل في سوقها نفرح ليته قتل يوم لاقا تحت فتش الدور
غير المنيه رمت به ابن عصم لبيح ما عاد يعزم بنفسه لو يكن معذور
ما تصمد الحذفه إلا كل راس أقرح ومـن ذرا بر حصل ذريـه المبرور
ومن ذرى شوك مثله قط ما يربح هو من ذرأ ذري للحيله كما منصور
اشغله بيع المنيحة شافها تنضح ولا اشغلته البقش لي تكسر العبرور
الفقر يـازي وذكـر الفقر لأصبح وصاحب الفقر يقطع زنده المعسور
يا عازم اعزم من الشعب الورب واسرح واقصد شِبَام التي محصورها مجبور
تلقى محمد إذا جا الضيف يتفرح وإن لاضوابات في جنح الدجا مذعور
قلّه مهني لكم بالفلك ذي طرح ذي كسروا يافع إذ قاله وهو مصمور

إلى أن قال:

يا عـاني اقصد لمن في ديرته رنح | من بعد شدة ليالي قد مضت وعصور
خصه سلامي وقل له يا السعيدي صح | صوب المعلم وهو من شأنكم معكور
وصل كتابك وبطنه كل سطر أسمح | كأنه من النحو فيه الجار والمجرور
الحرمة العاقر التي صوبها ينضح | صارت لكم بكر بعد الماسي المكسور
والصقر ذي في الهوا يصقر إذا ميح | برك وصارت عيونه من فعاله عور
ذلّا من السعد ولا كـان بـا يبرح | غزلوا يفوعه شبك من غزله المنزور

ومنها:

هـذا جوابك وتذكر غيثكم يذلح | وغيثنا بعد رعـده ارتـكـزن عكور
كله من الريح لي منه المزن تلقح | يوم اشتعف صار غيث القبوله منخور

إلى أن قال مشيرًا إلى حرب الدولة مع آل تميم وبمعيتهم عبد القوي بن غرامة:

نحن وأنتم فسحنا والعدو ما افسح | إلا ان ظهر سيل منكم ذي يزوع القور
والخصم يا بو علي بالصلح يتفرح | قايس من أرض التميمي با يقع مقصور
أمسى كما الغار وسط الغار ذي يلفح | وفـوق ذلـك طرحنا تحته النور
ومن لغب خلها في الديم لا تفذح | قد خير يبقى المخبا بيننا مستور

معاهدة عدن

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ وها نحن ولله الحمد مؤمنون بالله ومتبعون لهدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومعتقدون في اجتماع الكلمة لما يعود نفعه للمسلمين وصلاح العباد والبلاد، وراغبون فيما يوجب الأمن والراحة للأهالي ورفاهيتهم في داخل البلاد وخارجها، فلهذه الدول الكرام القعيطية وآل عبد الله عقدوا بينهما معاهدة مؤبدة إلى أن يشيب الغراب ويفنى التراب، وهما السلطان السر غالب بن عوض بن عمر، وعمر بن عوض بن عمر القعيطي عن أنفسهما وورثائهما وخلفائهما ومن يكفلهما من جهة، والسلاطين منصور بن غالب ومحسن بن غالب آل عبد الله عن أنفسهما وورثائهما وخلفائهما ومن يكفلهما من جهة وجعلوا الشروط الآتية:

الشرط الأول:

يرتضي السلطان القعيطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا وسلاطين آل عبد الله أهل كثير أن يكون إقليم حضرموت إقليمًا واحدًا، وأن الإقليم المذكور هو من متعلقات الدولة البريطانية تابعًا لسلطان الشِّحْر والمُكَلَّا.

الشرط الثاني:

يقر السلطان القعيطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا أن سلاطين آل عبد الله هم سلاطين الشنافر، ولكن أهل عبد الله يحكمون في داخل حضرموت على مدن

وقرى سَيْئون، وتَرِيْم، وتَرِيْس، والغُرَف، ومَرْيَمَة، والفَيْل، وصار الاعتراف أن فخذ الشنافر الآتي ذكرهم تابعون لسلاطين آل عبد الله وهم آل عمر وآل عامر والفخائذ الكثير والعوامر وآل باجري وآل جابر وما شملته حدودهم، وهي معروفة مشهورة.

الشرط الثالث:

يتعهد السلطان القعيطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا عن نفسه وورثائه وخلفائه من الجهة الأولى بأنه يقر ويعترف بالحقوق والسيطرة لسلاطين آل عبد الله وورثائهم وخلفائهم في المدن والقرى المذكورة، وعلى فخذ الشنافر المذكورة في الشرط الثاني المذكور أعلاه، وأنه لن يتعرض لهما في أي أمر كان مطلقًا، وأنهم سلاطين مستقلون في بلادهم المعينة في الشرط الثاني.

الشرط الرابع:

يقبل سلاطين آل عبد الله عن أنفسهم وورثائهم وخلفائهم من الجهة الأخرى بأنهم لن يعترضوا بأي طريقة كانت للحكم على حضرموت ما عدا المدن والقرى المذكورة في الشرط الثاني، وكذلك الفخذ المذكورة في الشرط المذكور ويقروا ويقبلوا بأنه ليس لهم حق في التعرض في محلات أخرى.

الشرط الخامس:

يرتضي سلاطين آل عبد الله أن يقبلوا أن المعاهدة المنعقدة بين الدولة البريطانية ودولة القعيطي في سنة ١٨٨٨م رابطة لهم وكأنهم جعلوها ويرتضون بأن يمتثلوا بشروطها بأمانة ويرتضوا أيضًا أن تكون جميع معاملاتهم ومراسلاتهم مع الدولة البريطانية بواسطة السلطان القعيطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا.

الشرط السادس:

كلا الفريقين يقبلان أن يوقفا الفتن في الحال والاستقبال حالًا، ويقبلا أن ينسيا ويعفوا عن كل ما سلف، وأن لا يصير من أحدهما انتقام أو مطالبة في عوض، ويرتضيا أن يحافظا في المستقبل على الأمان في السبل الكائنة في حدودهما المعروفة، وإجراء العدالة طبقًا للشريعة واحترام السادة العلوية وإسعاف المظلوم وإقامة العدالة العامة في حدودهما المعروفة.

الشرط السابع:

يقبل المذكورون أن يساعد بعضهم بعضًا إذا حصل خلاف من أحد الحزبين على رعاياهم وأصحابهم، ومن تعلق بهم، أو على شريف أو عابر سبيل أو قاصر يد ويقبلوا أن يحافظوا على أرواح وأموال بعضهم بعضًا وأتباعهم ورعاياهم ومن يلوذ بهم ما داموا في حدودهم المعروفة، وأن يعاملوهم بالعدل والإنصاف كمعاملتهم لغيرهم من أصحابهم.

الشرط الثامن:

يرتضي المذكورون بأن تكون الحرية المطلقة للتجارة، وأن تؤخذ العشورات بالمقدار المرتب على جميع الناس سواء كانوا رعايا أي أحد كان من السلطانين المذكورين.

الشرط التاسع:

إذا رغب أحد السلاطين المذكورين أعلاه أن يزور الآخر ينبغي أن يخبر بمراده حتى يكون الاستعداد لمقابلته بالاحترام الواجب، ويحتاج أن لا يزيد مقدار العسكر عن خمسين نفرًا اتقاء لحدوث الفتنة بين العسكر.

الشرط العاشر:

سلاطين القعيطي وسلاطين آل كثير يقبلون بالسوية أن يعاون بعضهم بعضًا بحسب مقدرتهم واستطاعتهم في أي تدبير فيه صلاح حال حضرموت ورقيها.

الشرط الحادي عشر:

مقابلة لقبول الشروط المذكورة أعلاه من لدن سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا وسلاطين آل عبد الله كثير سوف تجتهد الدولة البريطانية أن تصلح جميع المخاصمات الناشئة في المستقبل بين المذكورين بعد تاريخ هذه المعاهدة بالتحكيم بواسطة والي عدن.

حرر في ١٧ شعبان سنة ١٣٣٦هـ
شهد على الإقرار المذكور
سالم بن جعفر بن طالب
شهد على الإقرار المذكور
ناصر بن عمر بن يماني بن مرعي بن طالب

صحيح غالب بن عوض القعيطي
شهد بذلك
حسين بن حامد المحضار
وفيه شهادة والي عدن بالإنجليزي

معاهدة بين القعيطي وآل تميم

الحمد لله وحده، بتاريخ ثلاثين شهر القعدة سنة ١٣٣٦هـ فقد حصل الاتفاق بين السيد حسين بن حامد المحضار نائب الدولة القعيطية والقائم مقامها، وبين المقدم علي بن أحمد بن يماني وقبيلته آل تميم الآتي أسماؤهم ومباديهم أسفل المسطور، وأقروا وارتضوا واحتملوا بوجيههم المقدم علي بن أحمد بن يماني وقبيلته آل تميم للسلطان غالب بن عوض القعيطي أن كل ما شله وتحمله بوجهه لأهل عَيْنات ومِشْطَة والقرية والمَسِيلَة، وما شله وتحمله السلطان غالب بن عوض للدولة آل عبد الله ورعاياهم في حاذهم وباذهم وما لهم وما يشومهم ويلومهم، وفي القرى المذكورة أعلاه من جهة المالية حيثما كانت في أرض التميمي، وفي إقامة العدل والإنصاف ورد المخالفات وأمان السبل الجميع معنق بوجوههم، وليس لهم في مال الشائم إلا العادة المعتادة من له الخمس ومن له العشر، ومن له نصف العشر، ومن له ربع العشر ومن قد باع أو رهن فليس له شيء والعمدة على ما شملته خطوط البيع والرهن، ومولى المال مختار في ماله وعلى آل تميم الشرحان والحفظ والصيانة ورفع يدهم من كل باطل وفرقة ومضرة على أهل المال، وليس يحصل على أهل المال منهم لا ترويع ولا تقريع ولا تمنيع وقت تخبير أو وقت قطيع وغيره، وأن يقوموا لأهل المال بكل شرع وافي، وعلى أهل المال غدا لك رح في المائة أربع خبر، وما دون المائة كل شيء بحسابه وهو قاطع لجميع العوائد من دون ما ذكر أعلاه فليس لهم غير ذلك، وكل من لم يرتض ولم يطرح إقراره على هذا الوثر من آل تميم ولا ارتدع من المخالفة وأخذ زيادة على ما ذكر أعلاه أو طرح إقراره ووجهه على هذا الوثر ونكث فهو عائب ومقطوع ومجلوز من

جميع المنافع ومقطوعة خوته وسيارته من كل بدي من آل تميم، ومن دولتهم المكرم السلطان غالب بن عوض القعيطي، ومن المقدم علي بن أحمد بن يماني ومن قرب للمخالف نفاعة أو سيره أو سائرة فهو مخالف، وشرطه شرط المخالف، وليس يصيب ولا يعلق وجه للدولة آل عمر بن عوض والمقدم علي بن أحمد وجميع البدية من آل تميم، ويد الدولة القعيطية ودولة آل عبد الله والمقدم علي بن أحمد وجميع البدية من آل تميم واحدة على المخالف. وجهات ابن يماني من البضيع إلى هود وسَنَا داخلة في الوثر حسب أعلاه بوجه الدولة والبدية.

بدا بوفا ما ذكر علي بن أحمد بن يماني.

بدا بوفا ما ذكر عبود بن سعيد عن كافة الحبارسة وكتب بأمره سالم بن حسن باعطوة.

بدا بوفا ما ذكر طناف بن محمد بن عوض على رجاله وآل عوض بن علي وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق.

بدا بوفا ما ذكر محمد بن عبد القادر بالهندي وكتب بأمره كرامة سليمان مرداس.

بدا بوفا ما ذكر نصيب بن عبد الكريم بن علاو بن قرموص على رجال آل علاو ورجال آل عوض بن علي القرامصة.

بدا بوفا ما ذكر عبيد بن عوض العبد على كافة آل عبود بن سعيد آل مرساف وكتب بيده.

بدا بوفا ما ذكر أحمد بن عوض بن أحمد على رجال آل علي بن أحمد من دون مكتب آل طالب بن محمد وكتب بيده.

بدا بوفا ما ذكر عمر بن محمد بن عبد الشيخ على آل عبد الشيخ وكتب بأمره صلاح بن عبد الله بن شعيبان.

بدا بوفا ما ذكر ناصر بن عبد الله بن سليمان بن محمد وعن كافة آل محمد.

بدا بوفا ما ذكر كرامة بن عبود بن سعيد بن عمر على رجال آل سعيد بن عمر، وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق.

بدا بوفا ما ذكر هادي بن ناصر على رجال يماني بن سعيد، وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق.

بدا بوفا ما ذكر علي بن سعيد وسالم بن سعيد آل كلاب على رجال آل كلاب، وكتب بأمرهما سعيد حيمد رزيق.

بدا بوفا ما ذكر عبد الله بن بخيت بن عمهر عن كافة آل عمهر.

بدا بوفا ما ذكر صالح عمر عن كافة آل سعيد بن سالم بن شيبان، وكتب بأمرهم سالم حسن باعطوة.

بدا بوفا ما ذكر علي بن عوض بن زيدان على رجال آل عوض بن عمر زيدان ومن ظفوه، وكتب سالم حسن باعطوة.

بدا بوفا ما ذكر عوض بن محمد دحدح على رجال آل دحدح، وكتب بيده.

بدا بوفا ما ذكر عبد الشيخ بن عبد الله بن شملان.

بدا بوفا ما ذكر أحمد بن سالم بن خلوفه على رجال آل أحمد.

بدا بوفا ما ذكر كرامة بن عبد القادر بن عمر بن مبارك بن شيبان.

بدا بوفا ما ذكر محمد بن صالح بن مبارك بن شيبان.

بدا بوفا ما ذكر أحمد بن يماني بن أحمد بن خلوفه على رجال آل عبد الله، وكتب بأمره عوض بن صالح.

بدا بوفا ما ذكر عوض بن عبد الله على رجال آل عوض آل خلوفة.

بدا بوفا ما ذكر عمر بن أحمد بن شملان.

بدا بوفا ما ذكر يماني بن سالم، وكتب بأمره صلاح بن عبد الله بن شيبان.

بدا بوفا ما ذكر محمد بن يماني بن عوض بن شملان.

بدا بوفا ما ذكر يماني بن العبد بن عمر بن عبد الشيخ على رجال آل علي ابن أحمد وآل مبارك، وكتب بأمره صلاح بن عبد الله بن شيبان.

بدا بوفا ما ذكر كرامة بن صالح بن سالم بن عوض بن زيدان على رجال سالم بن عوض بن زيدان.

بدا بوفا ما ذكر صلاح بن عبد الله بن شيبان.

بدا بوفا ما ذكر محمد بن عبد الله بن يماني على رجال آل يماني، وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق.

بدا بوفا ما ذكر كرامة بن عبود على آل كرامة بن خلوفة.

بدا بوفا ما ذكر محمد بن فرج وعلي بن عوض آل حتيش وعلى كافة آل حتيش، وكتب بيده.

بدا بوفا ما ذكر صالح بن علي على رجال آل عوض بن عمر ورجال آل يكسو، وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق.

معاهدة عسكرية بين القعيطي والكثيري

الحمد لله، ولما كان ١٠ من شهر شوال سنة ١٣٣٦هـ ألف وثلاثمائة وست وثلاثين بناء على المعاهدة المنعقدة بين الدولة القعيطية والكثيرية عند الدولة البريطانية بواسطة والي عدن المؤرخة.

حصل الاتفاق بين الدول المذكورين؛ وهما السلاطين الكرام: غالب ابن عوض وعمر بن عوض القعيطي عن أنفسهما وأولادهما أبدًا ما تناسلوا: وعن من يكفلهم ويصالحون ويبارون عنهم وعن جميع يافع من جانب، والسلاطين الكرام وهما المنصور ومحسن أبناء غالب بن محسن الكثيري عن أنفسهما وأولادهما أبدًا ما تناسلوا وعن من يكفلهم ويصالحون ويبارون عنهم، وعن من دخل مدخلهم من الشنافر كثيري وعامري وجابري وباجري، وطرح إقراره ووجهه أسفل المسطور من جانب على يد السيد الشريف الحسين بن حامد بن أحمد المحضار وتقاروا وتراضوا، وانعقد بينهم حلف بعهد الله الوثيق ومثياقه الشديد حلفًا مؤبدًا إلى أن يشيب الغراب ويفنى التراب، حلف الصدق والوفا والطيب والنقا على دم وفرث وشائم ولائم وجار ونسيب على عوائد الأحلاف الجارية بين العرب بالجهة الحضرمية، حلف متوارث يرثه الحي بعد الميت أبدًا ما تناسلوا من يرث المال يرث الوجه، حلف من تبرأ منه ما برئ ومن تخلى منه ما خلي، راده عائب وقابلة عائب، وعلى أن كل ما كان بين الدولة القعيطية ومن خلفوهم من يافع، وبين الدولة آل عبد الله ومن دخل مدخلهم من الشنافر وطرح إقراره أسفل المسطور من ضغائن من قبل هذا التاريخ وأحقاد ودماء وأموال وغيرها وكائن ما كان فهو مهدوم مردوم ولا عاد فيه ثار ولا مثار ولا دعوى ولا طلب، وعلى أن كل من حصل منه خلاف على الدول المذكورين ورعاياهم وما يشومهم ويلومهم، فيد الدولتين القعيطية والكثيرية واحدة في ردع المخالف، والدولة البريطانية متردمة عليهم في كل خلاف يصير من أحدهم على بعضهم البعض، وهي القائمة عليه والرادعة له من الخلاف حسب المعاهدة المذكورة أعلاه، وأن كل من طرح إقراره على

هذا الحلف فهو مقر ومرتضي وملتزم بما في تلك المعاهدة من الشروط، وهذا الحلف تابع لتلك المعاهدة ومرتبط بها وليس يخل بشيء من شروطها وهي العمدة، وكل من لم يدخل مدخل الدولة آل عبد الله من الشنافر وهو حليف للدولة القعيطية أو مبار لها وحصل منه خلاف على إحدى الدولتين آل عمر بن عوض القعيطي أو آل عبد الله الكثيري فيما يشومهم أو يلومهم فيد الدولتين عليه واحدة في ردع الخلاف، وكل من طرح إقراره ووجهه على هذا الحلف فهو المخاطب عن نفسه ليس ينتسب بنسبة غيره، ولا يعاقب بذنب غير ذنبه، ولا عليه مطالبة من الدولتين بخلاف غيره، وليس للدولة القعيطية والكثيرية تداخل ولا اعتراض فيما بين الشنافر في بعضهم البعض في أي أمر كان، وليس لهم أن يعاونوا أحدًا على أحد، وكل من حصل منه خلاف ليس لهم نفاعة من كل بريء فهو مقطوع من أبيه وقريبه، وعاره وناره على رأسه، وللدولتين ما يؤمنهم نهار تحصل الخلافة من قبيلته، وليس للدولة القعيطية أن يحالفوا أحدًا من الشنافر من بعد هذا التاريخ إلا من دولة آل عبد الله وبرضاهم، جرى ذلك وحرر برضى المذكورين والله على ذلك رقيب.

صحيح حسين بن حامد المحضار نائب الدولة القعيطية.

صحيح المنصور ومحسن أبناء غالب بن محسن آل عبدالله الكثيري.

بدا عيضة بن عامر الصعيري على آل بدر بن عامر الصعيري.

بدا صالح بن عامر على آل عوض بن عبد الله الصعيري.

بدا مبارك بن زيمة على آل عبود بن عوض بن زيمة.

بدا محمد بن عامر بن مهدي على آل مهدي آل عمر.

بدا حمود بن عوض بلوعل على رجال الوعل آل ظهوم.

بدا عايض بن سالمين بلظراف على آل ظراف آل ماس.

بدا صالح بن سالم بلصقع على رجال لصقعان الحالة.

بدا محمد بن علي بن هضيل على آل هضيل آل رواس.

بدا عامر بن امبدر على آل جعفر بن سعيد آل سعيد.

بدا جعفر خالد وعبيد عوض وعوض بن سالم على الغيمان الرواسي.

بدا أحمد بن عوض بن عمر حيدر على آل سعيد بن عبد الله آل عمر ابن حيدر.

بدا عزال بن حيدر على آل سعيد مرعي آل سعيد.

بدا مبارك بن سعيد بن بدر عبد الله على آل خالد بن عبود البدر عبد الله.

بدا عبد الله بن عامر بن حصن على آل بدر وحصن الرواسي.

بدا بدر بن جعفر على آل جعفر وآل عامر محمد البدر بن عبد الله.

بدا سعيد البرام على نفسه وعلى عمر البرام العبد العون.

بدا عمر بن عبد الله بن سند على الرواسي أسيد بن سند.

بدا خميس بن ريس على آل خالد بن عبد الله وآل عامر بن سعيد السعيد ابن مرعي آل مرعي بن طالب.

بدا صالح بن مبارك بن عون بن سند على آل عون بن سند الرواسي.

بدا سالم بن محمد بن سعيد على آل علي محمد آل سعيد.

بدا يسلم بن صالح على آل دعيس العمر امبدر.

بدا عمر بن عوض وصالح بن عمر على القحوم آل سعيد.

بدا ربيع بن سعيد على آل علي بن عبد الله بن عمر بن بدر.

بدا عبد الكريم محمد امبدر على آل محمد امبدر العون.

بدا سالم بن جعفر بن سالم بن مرعي بن طالب على رجال آل عبيد مرعي ابن محمد بن مرعي بن طالب.

بدا عوض بن غزال بن زيمة على القتمة آل زيمة العون.

بدا أحمد بن صالح بن زيمة على آل سعيد.

ابن عبود آل حمود بن سالم بن زيمة.

شل وتحمل بوجهه سالم بن محمد بن امبدر بن عمر بن طالب على رجال آل سعيد بن عامر وآل مرعي بن طالب.

بدا عبد الله بن صالح بن زيمة على آل سالم بن عبود بن زيمة العون.

شل وتحمل بوجهه جعفر بن محمد بن سلامة على رجال الفلهوم ابن علي الجياني.

بدوا علي بن عبود وسعيد بن عبد الله آل شملان على آل شملان العون.

بدا جعفر بن أحمد بن عبد الودود على آل عبد الودود الجميع.

بدا مبخوت بن صالح على آل علي بن سعيد آل عبد الله العون.

بدا سالم بن صالح بن علي بن عمر بن جعفر على العيلانية وحاجز.

بدا سعيد بن عامر على آل سعيد بن عبد الله الصعير.

بدا علي بن جعفر على رجال اليالين بيت براهم العوامر.

بدا صالح بن عبد الله بن زامل على آل علي بن عبد الله الصعير.

بدا عمر بن عبيد على نفسه وعلى جماعته آل إبراهيم الكريم العوامر.

بدا عامر بن عبد الله عزان على آل سعيد بن عبد الله الصعير.

بدا عبد الله بن جعفر بن سالم على آل سالم مرعي بن محمد آل مرعي ابن طالب.

بدا صالح بن حمود على آل عبد الله مرعي بن طالب.

بدا سعيد بن سالم على آل طالب بن عبد الله محمد آل مرعي بن طالب.

بدا محمد بن سعيد مرعي على آل سعيد مرعي وآل مبارك مرعي بن محمد آل مرعي بن طالب.

بدا سالم بن عبيد ريس على العامر محمد آل مرعي بن طالب.

بدا عبدالله بن محمد بن سالم على آل مرعي بن يماني وآل عمر بن يماني وآل سعيد بن يماني آل مرعي بن طالب.

بدا عمر بن محمد بن سند على آل عبدالعزيز بن رواس آل سند.

بدا بدر بن عبدالله على طالب مرعي آل مرعي بن طالب.

بدا عبدالله بن سالم على العامر بن عبدالله محمد آل مرعي بن طالب.

بدا محمد عامر وربيع بن صالح آل سند على آل جعفر بالرواس آل سند آل رواس.

بدا يسلم بن جعفر على آل جعفر بن عبدالله محمد آل مرعي بن طالب.

بدا محمد بن صالح على آل صالح بن عبدالله محمد آل مرعي بن طالب.

بدا بدر بن عزان بن سيف على آل سيف.

بدا عوض بن سالم على آل علي مرعي آل مرعي بن طالب.

بدا محسن بن جعفر بن سويد على آل جعفر بن حمود آل سويد وآل دعيس ابن حمود آل سويد.

بدا عبود محمد على آل صالح بن يماني آل مرعي بن طالب.

بدا سعيد بن خالد على آل خالد بن مرعي آل مرعي بن طالب.

بدا محمد بن صالح بن سويد على آل سعيد بن حمود آل سويد.

بدا عمر بن جعفر وطاهر وسالمين آل سلامة على آل سلامة وآل مرعي ابن طالب.

بدا صالح بن جعفر بن سالم على آل علي محمد آل عمر بن طالب.

بدا عبود بن سالم على آل عبود بن سلامة وآل مرعي بن سلامة آل سلامة ابن جعفر.

بدا سالم بن حمود بن سعيد على آل حمود بن سعيد آل سعيد بن مرعي.

بدا محمد بن سالم بن عوض على آل سعيد محمد وآل جعفر محمد وآل محسن محمد آل مرعي بن طالب.

بدوا جعفر بن سعيد على آل سعيد بن سلامة وآل عبود بن عامر وآل محمد بن عمر آل عمر بن سعيد بن طالب.

بدا عوض بن سالم بن سعيد مرعي على آل سالم بن سعيد مرعي آل مرعي بن طالب وآل محمد بن سعيد آل سعيد مرعي بن طالب.

بدوا مبارك وعائض على آل امبارك بن عمر آل عمر بن سعيد.

بدا سعيد بن امبدر بن محرق على آل عبدالعزيز بن جعفر آل جعفر ابن طالب.

بدا محمد امبدر بن مرعي على آل عون امرعي وآل محمد المرعي آل مرعي ابن طالب.

بدا عبدالله بن سالم بن حيدرة على آل سالم بن حيدرة اليماني.
بدا سالم بن عوض بن طنفيرة على الطنافرة آل ملهوم.
بدا صالح بن سالمين البرام على آل سالمين البرام وآل عبدالله العون.
بدا سالمين بن علي بلفاس على آل جعفر بن عبدالله بلفاس.
بدا عبدالله بن أحمد علي العوانزة العوامر.
بدا عيضة بن فرج بن مكناف على آل عبدالله بن مكناف بن براهم.
بدا فرج بن دريس على جماعته آل براهم.
بدا ناصر بن سعيد بن عبود على جماعته آل براهم.
بدا عيضة بن عوض بن ناصر بن مطرف على آل باحرب بن مطرف العوامر.
بدا محمد بن صالح على آل سالم بن مطرف وآل بدر بن مطرف العوامر.
بدا عيضة بن عوض ومحسن بن سعيد وبدر بن محمد على آل حاضر حضر العوامر.
بدوا سعيد بن عوض وعوض بربيع وهادي بن جعفر على آل سيف الحضر العوامر.
بدوا برك بن عوض وعبود بن سالم على رجال آل كرتم وآل قناص العوامر.
بدا عبود بن سالم بلعذر على رجال العذر الجميع الحطاطبة الحضر العوامر.
بدا عمر بن سعيد بن جعفر على رجال آل قثيم وعلي بن سالم بن ختلا على رجال الختلا العوامر.
بدا منصور بن بخيت على آل عوض بن عبد الله، وآل ناصر بن عبد الله الكرتم وعلى براهيم وريضان آل عبد الباقي العوامر.

بدوا عبد الله بن صالح وسالم بن سعيد بن قاسم على آل منوّر آل عبد الباقي العوامر.

بدوا علي بن سالم وعوض بن بدر على رجال آل عيسى آل عبد الباقي العوامر.

بدوا علي بن سالم بدا عامر بن حسن بن مقبل على رجال آل عامر بن سالم آل عبد الباقي العوامر.

بدوا عمر وعائض أبناء عبد الله بن علي عيار على رجال آل محمد بن علي آل عيار آل عبد الباقي العوامر.

أقر سالم بن جعفر بن سالم بأن جميع المبادي طرحها هو في الأصل.

وشهد على البري إملاء في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٦هـ
شهد بذلك مردوف بن امبارك بن سعيد حم لطف الله به.
شهد بذلك عبيد بن علي بن محمد نصير سامحه الله.

اعتراف آل جابر بالرعوية للكثيري

الحمد لله، بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ألف وثلاثمائة وثمانية ثلاثين. فقد حصل الاعتراف بالإقرار من قبيلة آل جابر الواضعين إمضاءاتهم ووجيههم أسفل هذا بما أنهم مقرون ومعترفون أنهم شنافر تابعون لدولة آل عبد الله، وأن جهتهم وأرضهم بوادي بن علي وادي عِدِم بسَاهْ حسب حدودها وهي تابعة لدولة آل عبد الله منذ زمن، وبتاريخ الآن قد جعلوا لدولة آل عبد الله حق الحماية على أرضهم وأنهم طرحوا الجهة في ردع الخلاف، وأنهم عيال لدولة آل عبد الله يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم، وأن يدهم مرفوعة من كل باطل على شريف وضعيف وقاصر يد، بل يدهم مع يد الدولة في إقامة العدل والإنصاف، ونصر الشريعة وردع المخالف. بذلك عاهدوا الله على الوفاء بحضور من سيضع مشهده، والله على الجميع جميل وشهيد.

أقر بذلك وارتضاه وتحمل المقدم: سعيد بن محمد بن امبدر الجابري على رجال آل بدر وعبد ومن ظفوه.

كتب ذلك وشهد به: منصور بن يسلم حنشي.

شهد بذلك محمد منصور وأكد وكتب بأمره منصور المذكور.

شلوا وتحملوا بوجيههم مرعي بن يسلم وعيضة بن صالح آل مرعي بن عامر على رجال آل مرعي بن عامر ومن ظفوه آل جابر.

شل وتحمل بوجهه أحمد بن عبد الله بن سالم بن عبودان على رجال آل عبودان آل جابر ومن ظفوه. شهد بذلك منصور بن يسلم حنشي.

أقر بذلك وارتضاه وبدوا وتحملوا بوجيههم: حسين بن سعيد وعبد الشيخ ابن مطلق آل سعيد بن عامر على رجال آل سعيد بن عامر وآل محمد بن عامر وآل حسن بن عامر وآل جعفر بن عامر ومن ظفوهم آل جابر.

شهد بذلك عبيد بن عوض واكد وكتبه، وشهد به عبيد بن كرامة باسيف.

أقر بذلك وارتضاه وتحمل بوجهه: سالم العيد بن حسين بن محمد الحاج على رجال آل سعيد مبارك ومن ظفوه.

أقر بذلك وارتضاه وتحمل بوجهه: سالمين علي قماش بن محمد الحاج على رجال آل محمد بن قماش وآل أحمد بن قماش ومن ظفوه.

شهد على ذلك وكتب إقراراتهم بأمرهم: منصور بن يسلم حنشي.

شهد على إقراراتهم: عبيد عوض واكد.

أقر بذلك وارتضاه وبدا وتحمل بوجهه سالم بن محمد بن حسين ابن بدر على رجال آل بدر حر وعبد ومن ظفوه، كتب ذلك وشهد به منصور ابن يسلم حنشي.

شهد بذلك محمد منصور واكد.

معاهدة بين الحكومتين على إصلاح حضرموت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فبناء على ما تضمنته معاهدة عدن المبرمة بين الدولتين، الدولة القعيطية ودولة آل عبد الله الكثيري في ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٦هـ.

وبناء على ما بُني على المعاهدة المذكورة من المعاهدات المعقودة بين الدولتين المذكورتين، وبناء على أنه لم يقيد للدولتين تمام القيام بما شملته المعاهدات السابقة بينهما بسبب القلاقل التي حصلت في حضرموت، وبناء على اتجاه أنظار أهل حضرموت للإصلاح وإقامة العدل والأمن والعمران في بلادهم؛ اجتمع السلاطين: السلطان صالح بن غالب بن عوض القعيطي قائمًا

عن نفسه وعن كافة آل عمر بن عوض القعيطي من جهته، والسلطان علي بن منصور قائمًا عن نفسه وعن والده وعن كافة آل منصور بن غالب بن محسن آل عبد الله، والسلطان عبد الله بن محسن قائمًا عن نفسه وعن إخوته آل محسن بن غالب بن محسن آل عبد الله من الجهة الأخرى للمفاوضة والبحث فيما يجب عليهم من الإصلاح وإقامة الأمن والعدل والإنصاف وحفظ الحقوق في الأقطار الحضرمية الساحلية والداخلية، وبعد البحث والفحص وتبادل الآراء مع الوفد الحضرمي فيما ذكر تقرر ما هو آت.

أولًا: تتعاون الدولتان على الإصلاح وإقامة الأمن والعدل وتسكيت القلاقل والفتن بالوسائل السلمية، وإن لم تنفع الوسائل المذكورة، وتستعمل القوة المستطاعة.

ثانيًا: تلتزم كل من الدولتين أن تقاطع أي قبيلة تطغى على الدولة الأخرى وقت الخصومة والبراء.

ثالثًا: تلتزم كل من الدولتين بإجراء التضييق على من يخالف من الدولة الأخرى وتوقيف أمواله ومصالحه في جميع المملكة إلى أن يرجع إلى الحق.

رابعًا: تجتهد الدولتان في اتخاذ الوسائل اللازمة لتأمين السبل وتخليص المساكين ونحوهم من تأثير المخاصمات والفتن التي تقع بين القبائل.

خامسًا: تتبادل الدولتان المندوبين والنوّاب في الشِّحْر والمُكَلَّا من جهة آل عبد الله، وفي تَرِيْم وسَيْئون من جهة القعيطي.

سادسًا: تأسيس حامية عسكرية في حضرموت يتعهد القعيطي بإحضار جنودها وسلاحهم ولوازمهم الحربية بقدر الحاجة الضرورية. ووظيفة هذه الحامية المحافظة على تأمين السبل والمصالح المشتركة بين الدولتين وحقوق رعاياهما، ومن ينضم إليهم ممن يدخل مدخلهم، وتكون هذه المادة قابلة للتعديل بحسب مقتضيات الأحوال بعد استشارة الجمعية الوطنية التي تتعهد بنفقات الحامية العسكرية المذكورة ومشاهرات جنودها.

سابعًا: تأكيدًا للشروط الآنفة؛ تعتبر الاتفاقية المعقودة بين الدولتين في المُكَلَّا في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦هـ نافذة المفعول ما عدى حالة الباصات (تذاكر السفر) من حضرموت فإنه يؤجل العمل بها إلى أن يرجع السلاطين آل عبد الله الممضون على هذه المعاهدة من البنادر إلى حضرموت للمفاوضة مع السلطان منصور بن غالب بن محسن ومن يلزم هنالك من ذوي العلاقة بالمسألة المذكورة، فإذا اتفق رأيهم على العمل بها يرفعون النتيجة للقعيطي للعمل بها، وللدولتين حق التعديل في المسألة المذكورة، وفي مسألة تبادل المندوبين إذا رأتا ما يستوجب ذلك في المستقبل.

ثامنًا: تأييدًا لتجديد العهود وتوثيق عرى الصداقة والتعاون العملي بين الدولتين على الإصلاح وإقامة العدل والأمن وردع المخالف في الأقطار الحضرمية؛ اتفق المتعاهدون على إصدار البلاغ الرسمي المربوط بهذه المعاهدة من الدولتين وطبع كمية وافرة منه توزع على آل حضرموت ليستنير الرأي الحضرمي العام بالوقوف على خلاصة هذه المعاهدة.

تــاســعًــا: يجب أن تتألف جمعية وطنية عامة تتساعد مع الدولتين في جميع الإصلاحات اللازمة لحضرموت داخلها وساحلها، ويشترك فيها جميع الوطنيين القاطنين في داخل حضرموت والبنادر والنازحين في المهاجر، ويكتفى في الظروف الراهنة بأن تكون هيئة الوفد الحضرمي هي الجمعية الوطنية التي تتعاون مع الدولتين فيما يستطاع إجراؤه من الإصلاحات المطلوبة ريثما تتكون الجمعية الوطنية العامة بموجب القانون الذي يوضع فيما بعد بواسطة الوفد الحضرمي.

عــاشـــرًا: لا تكون سياسة الجمعية المذكورة مخالفة للسياسة التي تقتضيها علاقة الدولتين والبلاد الحضرمية بالحكومة البريطانية.

الحادي عشر: تلتزم الدولتان بحماية الجمعية المذكورة وتأييدها وتنفيذ قراراتها المتعلقة بالإصلاحات الوطنية اللازمة بشرط أن لا تخل بمركز الدولتين.

الثاني عشر: تجتهد الدولتان وهيئة الوفد في إرسال وفدين: أحدهما يتجول بين سكان حضرموت، والآخر يتجول في بلاد جاوة؛ لتفهيم الوطنيين الحضرميين مقاصد الدولتين والوفد الخيرية، وطلب المشاركة العملية في المساعي الوطنية والمعاونة المالية في المشاريع الإصلاحية.

الثالث عشر: حررت هذه المعاهدة وجرى إبرامها والتوقيع عليها في بندر الشِّحْر في ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦هـ من السلاطين المذكورة أسماؤهم أعلاه عن الدولة القعيطية ودولة آل عبد الله الكثيرية، وأشهدوا على أنفسهم من نذكر أسماءهم أدناه، والله خير الشاهدين وبه الثقة وعليه الاعتماد.

صالح بن غالب القعيطي، عبد الله بن محسن بن غالب، علي بن منصور ابن غالب.

شهد بذلك الطيب الساسي.

شهد بذلك عبد الله بن محمد الكاف.

شهد بذلك حامد بن محمد الجنيد.

شهد على ذلك سلمان بن عبد الشيخ بن محمد شامي.

شهد بذلك عبد الرحمن بن علي بن سهل.

شهد على ذلك عبد الرحمن محمد بلفقيه.

شهد بذلك حسن بن عبود بن سالم.

شهد بذلك أحمد بن ناصر البطاطي.

شهد بذلك حسن بن عمر بن حسن الكثيري.

صحيح لحقير علي بن عبد الرحمن بن عبد الله بن سهل.

شهد على ذلك بوبكر بن شيخ الكاف.

شهد بذلك عبد الله بن حسين السقاف.

صحح الشاهد بما ذكر أعلاه المنصب أحمد بن حسين بن هادون العطاس.

شهد على ذلك المقدم علي بن أحمد اليماني.

شهد على ذلك عبد الرحمن بن عبد الله بن شهاب.

شهد على ذلك بوبكر بن حسين المحضار.

شهد على ما ذكر أعلاه هود بن أحمد السقاف.

شهد بذلك أحمد بن جعفر بن المنصور.

المراجع

- ♦ تاريخ حضرموت السياسي. جزآن للمؤلف.
- ♦ تاريخ ابن حميد، (مخطوط).
- ♦ تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار للجرموزي، (مخطوط).
- ♦ قلائد النحر في وفيات أعيان الدهر، ٣ أجزاء، لابن مخرمة، (مخطوط).
- ♦ السلوك في طبقات العلماء والملوك، ٣ أجزاء، للجندي، (مخطوط).
- ♦ بين الحبشة والعرب، لعبدالمجيد عارفين.
- ♦ العقد الياقوت في تاريخ حضرموت، لابن عبيدالله السقاف، (مخطوط).

1– D. Van Der Meulen, H. Van Wissman, “Hadramaut”.

2– O. H. Little, The Geography and Geology of Mukalla.

3– Harold Ingrams,“Arabia and the Isles”.

4– Freya Stark, “The Southern Gates of Arabia”.

5– Freya Stark, Awinter in Arabia.

6– Guillian, Docoments Sur I, histoire la Geographie et le com – merce de I, Afrique Orientale.

صلاح البكري في سطور



- كاتب ومؤرخ عربي كبير ملأ الدنيا وشغل الناس، ولا يزال يشغل الناس بعد وفاته.
- من أبناء حضرموت ذوي الأصل اليافعي.
- في ٢١/ ٤/ ١٩١٣م ولد بإندونيسيا بمدينة (تيجال) وتلقى تعليمه الأولي بمدرسة الإرشاد العربية.
- سنة ١٩٢١م في سن الثامنة أرسله والده إلى حضرموت، فالتحق بمدرسة الحوطة بالقَطْن.
- سنة ١٩٢٦م توفي الده في سن ٣٥ عامًا في أثناء إحدى رحلاته التجارية إلى الخليج ودفن في البحرين.
- سنة ١٩٢٩م اختير صلاح البكري ضمن بعثة دراسية إلى مصر وهو في سن السادسة عشرة.
- سنة ١٩٣٤م التحق البكري بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول آنذاك بقسم التاريخ.
- سنة ١٩٣٨م تخرج في الجامعة مع زملائه باكثير والسحّار ونجيب محفوظ. ولما لم يستطع العودة إلى وطنه بسبب ظروف الحرب العالمية قرر البقاء بمصر والتحق بمعهد التربية العالي.
- سنة ١٩٤٠م حصل على دبلوم التربية وعلم النفس وعُيِّن مدرسًا بالإسكندرية.

- سنة ١٩٤١م تزوج في الإسكندرية من فتاة مصرية، لكن هذا الزواج لم يدم طويلا.
- سنة ١٩٤٣م حصل على الجنسية المصرية ونُقل إلى القاهرة للتدريس وانضم إلى لجنة النشر للجامعيين (التي أسسها السحّار وباكثير ونجيب محفوظ).
- سنة ١٩٤٤م أسس مع صديقيه باكثير وعزان عبدات (جمعية النهضة الحضرمية) بالقاهرة.
- سنة ١٩٤٧م زار حضرموت لأول مرة بعد غياب ١٨ عاما.
- سنة ١٩٥٠م طلبته هولندا للعمل مُعدًّا ومذيعًا بالقسم العربي بإذاعتها لمدة سنتين.
- سنة ١٩٥٣م غادر مصر إلى المملكة العربية السعودية أستاذًا لمواد التاريخ والجغرافيا واللغة العربية بمدرسة الفلاح الثانوية بمكة المكرمة.
- سنة ١٩٥٤م قررت المعارف السعودية كتابه (جغرافية البلاد العربية) على طلاب المدارس.
- سنة ١٩٥٤م زار يافع لأول مرة، ودوّن رحلته في كتابه: (في شرق اليمن يافع).
- سنة ١٩٥٥م إنشاء أول مؤسسة إعلامية رسمية سعودية رأسها عبدالله بلخير الذي استعان بصلاح البكري مُتعاونًا في مختلف مراحل التأسيس وكاتبا بمجلة الإذاعة.
- في ٧/ ١٠/ ١٩٥٥م تزوج من «حبيب العمر» نادرة عارف الزين الفتاة الشامية.
- سنة ١٩٥٦م برز صلاح البكري في مجلة الإذاعة السعودية كاتبا باللغتين العربية والإندونيسية.

- سنة ١٩٥٧م انتقل إلى جدة بعد تعيينه مديرًا لقسم الأحاديث بإذاعة جدة.
- سنة ١٩٦٢ م ساهم في إنشاء (إذاعة صوت الإسلام)، وكان أول مدير لها لمدة ٩ سنوات.
- سنة ١٩٧١م تم الانفصال الصعب بينه وبين زوجته بعد أن أنجبت له «شفاء» و«وائل»، وفي السنة نفسها عُيِّن مراقبًا دينيًا لإذاعة (نداء الإسلام) واستمر بها حتى بلغ السبعين.
- سنة ١٩٨٢م أحيل للتقاعد من العمل في الإذاعة، فاستعانت وزارة الإعلام به موظفًا غير متفرغ بمكتب الرقابة على الكتب التاريخية.
- سنة ١٩٨٥م استعاد جنسيته الإندونيسية بعد أن يئس من تحسن الظروف السياسية في وطنه.
- سنة ١٩٨٦م غادر المملكة العربية السعودية نهائيا إلى إندونيسيا ليمضي بها بقية عمره.
- في ١٢/ ١٢/ ١٩٩٣م توفي صلاح البكري إثر نوبة قلبية مفاجئة ودفن هناك حيث وُلد رحمه الله.

مؤلفات الأستاذ صلاح البكري

١- تاريخ حضرموت السياسي (جزآن):

الجزء الأول، صدر عن المطبعة السلفية بمصر، عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، في (١٩٧ صفحة).

الجزء الثاني، صدر عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، في (٣٥٦ صفحة).

الطبعة الثانية: صدرت في مصر، بدون تاريخ الطبع، أو دار النشر، لكن مقدمة المؤلف لهذه الطبعة كتبت في ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م. وقد صوّرتها فيما بعد مكتبة الصنعاني وأخرجتها مطموسة الصور، ثم أخرجتها مصوّرة دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، و١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢- في جنوب الجزيرة العربية:

الطبعة الأولى: صدرت عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

والثانية: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٩م.

والثالثة: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، وهي طبعة كثيرة التحريف، وخالية من الصور.

٣- تاريخ الإرشاد في إندونيسيا:

الطبعة الأولى: نشر الإدارة المركزية لجمعية الإرشاد الإسلامية جاكرتا، إندونيسيا، ١٩٩٢م.

٤- اتحاد الجنوب العربي:

طبع في دار العلم، جدة، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٥- حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي:

نُشر عن مكتبة الإرشاد بجدة، وطبع في مطبعة المدني، بالقاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

٦- في شرق اليمن: يافع:

صدر عن مطبعة دار الكشاف، بيروت، ذو الحجة ١٣٧٤هـ/ أغسطس ١٩٥٥م.

٧- الجنوب العربي اليوم:

صدر في القاهرة، ١٩٥٠م.

٨- الجنوب العربي قديمًا وحديثًا (٤٠٠ ق.م -١٩٦٧م):

صدر عن دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٩٦٧م.

٩- الاتجاهات الجديدة في سياسة التعليم:

صدر عن مطبعة المدني القاهرة، ١٩٥٦م.

١٠- جغرافية البلاد العربية:

صدر عن المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م.

١١- القرآن وبناء الإنسان:

صدر عن دار تهامة، جدة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٢- في الشمال الغربي للحجاز:

صدر عن مكتبة الجسر، جدة، وطبع في مطابع الهيثم، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٣- حضرموت بلاد الأحقاف:

محاضرة ألقاها في دار (جماعة التعارف الإسلامي) بالقاهرة، ونشرتها مجلة (الفتح) في الأعداد ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٩ لسنة ١٣٥٣هـ في القاهرة. وأعيد نشرها في كتاب: (حضرموت: فصول في التاريخ والثقافة والثروة)، جمع مادتها وقدّم لها د. محمد أبو بكر حميد، ونشرتها جمعية أصدقاء علي أحمد باكثير الثقافية بالقاهرة سنة ١٤٢٠هـ، صفحة ٣٧ وما بعدها.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

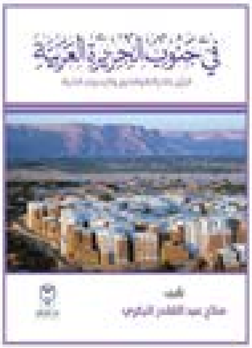
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



يكاد يكون الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية مجهولًا للعالم العربي والإسلامي. والصورة العامة عند بعضهم أن حضرموت وعدن وما جاورهما من المحميات التسع بلاد صحراوية جافة، وأهلها متأخرون يسكنون في الخيام، ويشتغلون بالرعي والانتقال وراء الإبل والأغنام سعيًا إلى مواطن الكلأ والمرعى. ولا شك أن هؤلاء لا يعلمون أن في حضرموت منازل طاعنات في السماء سمَّتها مس فريا ستارك: «ناطحات السحاب»، وقال عنها المستر بودلي في كتابه (The Messenger): «إن هندسة هذه المدن الآن ومن قرون قبل الآن أكثر شبهًا بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية».

ولكن لسوء الحظ معظمنا نحن الشرقيين لا نهتم كثيرًا ولا قليلًا بدراسة الشعوب...



صلاح عبد القادر البكري (١٩١٢م – ١٩٩٣م)، ولد في إندونيسيا، وتلقى تعليمه الابتدائي بجاكرتا ، ثم سافر إلى مصر عام ١٩٣٠م، ودرس مرحلتي الكفاءة والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، وتخرج في كلية الآداب قسم التاريخ عام ١٩٣٨م، ثم التحق بـ(معهد التربية العالي) وحصل على دبلوم التربية وعلم النفس عام ١٩٤٠م، وعين مدرسًا بـ(مدرسة القباري) بالإسكندرية، ثم نقل إلى (مدرسة محمد علي) بالقاهرة. وفي عام ١٩٥٠م ترك التدريس وسافر إلى هولندا واشتغل مذيعًا بالقسم العربي بإذاعة هولندا. وفي عام ١٩٥٢ انتدب للتدريس بـ(مدرسة الفلاح الثانوية) في مكة المكرمة. وفي عام ١٩٥٧م اشتغل مديرًا لقسم الأحاديث بالإذاعة العربية السعودية بجدة، ثم مديرًا لإذاعة (نداء الإسلام)، ثم مراقبًا دينيًا لهذه الإذاعة. وهو من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بجغرافية الوطن العربي وتاريخه خاصة الجنوب العربي، صدرت له العديد من الكتب منها:

1. تاريخ حضرموت السياسي (الجزء الأول والثاني)
2. في جنوب الجزيرة العربية
3. حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي
4. الجنوب العربي قديمًا وحديثًا
5. في شرق اليمن يافع
6. اتحاد الجنوب العربي
7. جغرافية البلاد العربية
8. في الشمال الغربي للحجاز
9. تاريخ الإرشاد في إندونيسيا
10. حضرموت بلاد الأحقاف
11. الاتجاهات الجديدة في سياسة التعليم
12. القرآن وبناء الإنسان

دار الوفاق
DAR AL WEFAQ

دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: 2001008170225+